التفسير الإسلامي للتاريخ

تأليف

أ. د. عماد الدين خليل



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

التفسير الإسلامي للتاريخ

تأليف

أ. د. عماد الدين خليل

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

خليل، عماد الدين
التفسير الإسلامي للتاريخ/ تأليف عماد الدين خليل.-
القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٥م.
٢٤٨ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٧ - ٢٧٠ - ٧١٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - الإسلام والتاريخ.
أ - العنوان.
٢١٤,٩

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة: القاهرة: ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف: ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف: ٢٠٨٠٢٨٧٦ (٢٠٢ +)
فاكس: ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية: ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني: info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت: www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *
* *
*

مُقَـدِّمَة

إن ثمة حقيقة تبرز واضحة في القرآن الكريم، تلك هي أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التي تأخذ أبعادًا واتجاهات مختلفة، وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي (الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميّز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان، مرورًا بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم، وبالصيغ (الحضارية) التي لا حصر لها، والتي تتأرجح بين البساطة وبين النضج والتركيب.. وتبلغ هذه المسألة حدًّا من (الثقل) و (الاتساع) في القرآن الكريم بحيث إن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية، أو إشارة سريعة لحدثٍ ما أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ.

إن هذا أمر منطقي تمامًا، ينسجم بالكلية مع إعجاز القرآن وتوزيعه الفذ لمساحات آياته وسوره لتغطية كافة المسائل الأساسية في حياة البشرية. ولقد أخذت تزداد اتضاحًا يومًا بعد يوم أهمية (الدراسات التاريخية)، أو ضرورتها بالأحرى، لمسيرة كل جماعة بشرية تسعى إلى أن تقبس الأضواء التي أشعلتها الوقائع الماضية؛ لكي تنير لها الطريق الطويل الذي يتوجب عليها أن تقطعه، متجاوزة أكبر قدر ممكن من العقبات والعثرات والمنحنيات، ملتزمة - من جهة أخرى - بأكبر قدر ممكن من الأساليب والنظم التي توصلها إلى أهدافها بجهود أقل وسرعة أكبر، تلك الأساليب والنظم التي كانت حركة التاريخ حقلًا لتجاربها وميدانًا لإثبات عناصر القوة والضعف فيها؛ إذ إن بدء التجربة دائمًا من نقطة الصفر، دونما التفات إلى مردوداتها التاريخية؛ يضيع على الجماعة جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلًا ما كان لها أن تضيعهما لو التفتت إلى الماضي تستمد منه المواقف والإشارات.

والعالم الطبيعي الذي لا ينظر إلى معطيات من سبقه من العلماء في مجال تخصصه ويسعى - دائمًا - إلى أن يبدأ من جديد؛ ليس بعالم أساسًا، ولو أن علماء الطبيعة سلكوا هذا البرنامج الخاطئ لما بلغت نتائج البحوث الطبيعية هذا المبلغ من النضج والتقدم، ولما قدمت للبشرية هذه الحصيلة من المبتكرات والكشوف.

وما يصدق على (البحث العلمي) يمكن أن يصدق على (البحث عن المستقبل الأفضل) الذي لا يتحقق إلّا بتفحص الماضي الذي هو تيار دفَّاق يصب دائمًا في الحاضر، ويرفده بكل مكوناته الأساسية، ويدفعه نحو المستقبل وهو يحمل الكثير من هذه المكونات.

وإذا ما أضفنا إلى المساحة (التاريخية) الواسعة في القرآن الكريم مسألة أخرى ترتبط بالتاريخ ارتباطًا عضويًّا؛ لأنها ملامسة وتعقيب وتعليق وإعادة صياغة وتوجيه لحشد من الوقائع التاريخية، تلك الآيات والمواقف القرآنية التي يحدّثنا عنها المفسرون في موضوع (أسباب النزول)، والتي جاءت في أعقاب عدد كبير من أحداث (السيرة)؛ لكي تعلّق وتفنّد وتلامس وتبني وتوجه وتصوغ، انطلاقًا من هذه الأحداث التي لم تبرد دماؤها بعد، سواء على مسرح الأرض أم في حس الجماعة والإنسان المسلم. إذا ما أضفنا هذه الآيات المنبثة في ثنايا القرآن، والتي تُختص بها أحيانًا مقاطع طويلة وسور كاملة؛ استطعنا أن نتبين أكثر فأكثر أبعاد المساحات الشاملة التي منحها القرآن الكريم للمسألة التاريخية.

إن (الرؤية التاريخية) ترتبط بالقرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا. أي سورة قرأت، أي صفحة شاهدت، طالعتك هذه العروض والإشارات المسهبة أو الموجزة، إلى مواقف تاريخية، لا ريب أنها تشكل بمجموعها نسقًا رائعًا ومتكاملًا للتفسير الإسلامي للتاريخ، ومن أجل تواجد هذه المساحة الواسعة، عن هذا الجانب الحيوي في القرآن كان التفسير الإسلامي أمرًا محتمًا، ما دام كتاب اللَّه يضرب دومًا على هذا الوتر الحساس، ويدعو المتأملين والدارسين إلى الخروج - في أعقاب مطالعاتهم التاريخية - بنتيجة نهائية عن مصير الحركة البشرية في الزمان والمكان، ودور الإنسان والقوى الكونية في أمدائها القريبة والبعيدة.

إن جانبًا كبيرًا من سور القرآن الكريم وآياته البيّنات ينصب على أخطار البشرية بالنذير الإلهي، وينبثق عن رؤية وتفحص التاريخ، وإن أشد نداءات المفكرين المعاصرين عمقًا ووضوحًا تلك التي تحدثنا عمّا يحيط بالمسيرة البشرية في حاضرها ومستقبلها من أوضاع وعمّا تتطلبه من شروط، وتنبثق هي الأخرى عن رؤية التاريخ. ونحن إذا نظرنا إلى التجارب الأوربية المتلاحقة في عالمي الفكر والحياة لرأيناها تمدّ بجذورها إلى أعماق التاريخ باحثة عن المبررات والحجج والأسانيد، متطلعة إلى (الصيغة) الأكثر

علمية وانطباقًا على واقع المسيرة البشرية من أجل أن تعتمد في التحرك على أرضية الواقع صوب المستقبل. وليست تجارب الثورات الفرنسية، والعسكريات الألمانية، والاشتراكيات الطوباوية والماركسية، في أبعادها الفكرية (الأيديولوجية) والواقعية العلمية؛ إلّا نماذج فحسب لمدى الارتباط بين الفكر والتجربة المعاصرة وبين الرؤية التاريخية.

إن القرآن الكريم لا يقدم (قصصه) و (صوره) و (مشاهداته) لمجرد ترف ذهني أو إشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والصور والمشاهدات، ولا لنزعة (أكاديمية) فيه تسعى إلى تتبع (ما حدث فعلًا) بأكبر قدر من الأمانة، ودون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي (حدث) وإشاراته الأخلاقية ..

إن القرآن يجيء بمعطياته التاريخية تلك من أجل أن (يحرك) الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام، ويبعده - في الوقت ذاته - فردًا وجماعة، عن المزالق والمنعرجات التي أودت بمصائر عشرات، بل مئات الأمم والجماعات والشعوب .. كما يجيء بها من أجل أن يبرز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والإسلامية (بعموم معنى الإسلام)، كأنه يقول للإنسان الواعي: إن أمامك صيغتين للعمل في العالم، لا ثالثة لهما، وإن عليك أن تختار: إما هذه أو تلك ..

فالحركة .. لا مجرد الاستقصاء الأكاديمي أو السرد الفني، الذي هو مجرد أسلوب أو وعاء لغوي، كانت أبدًا هدف العروض التاريخية للقرآن كما أنها - في الوقت نفسه - هدف الأيديولوجيات المعاصرة التي سبرت - بدرجة أو أخرى - أغوار التاريخ البشري، وقدمت برامجها ومخططاتها وفق التعاليم التي تمخضت عن تلك الرحلات الطويلة في ميادين التاريخ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٩] !!

إن القرآن الكريم يقدم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب، إلى مرحلة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية - التاريخية كما فعل (ابن خلدون) على سبيل المثال، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلّا بعد انقضاء خمسة قرون. وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود (سنن) و(نواميس) تخضع

لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال.

ولقد وقع كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصر في خطأ القول بأن (ابن خلدون) هو أول من مارس هذا (المنهج)، وأنه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل، ومن عجب أن ابن خلدون نفسه - هذا العقل الفذ - وقع في الخطأ ذاته عندما أكد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال، وكان أحرى أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق.

إن (المنهج) الجديد الذي يطرحه القرآن يؤكد - أكثر من مرة - على أن (التاريخ) لا يكتسب أهميته الإيجابية إلّا بأن يتخذ كميدان للدراسة والاختبار، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلّا على هداها، وليس الأسلوب الفني في العرض والتحليل سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأية ممارسة في حقول التاريخ. ولسنا ندري سببًا صدَّ المسلمين الأوائل عن اكتشاف هذا المنهج والتعامل معه سوى أن الفكر البشري عامة، والفكر التاريخي على وجه الخصوص، ما كان قد بلغ درجة من النضج والتطور تتيح له ذلك أساسًا.

والقرآن الكريم نفسه يلقي ضوءًا إيضاحيًّا على هذه المسألة؛ ففي الآية الثالثة والخمسين من سورة فصلت نقرأ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهناك حديث شريف يصف القرآن بأنه « **لا تنقضي عجائبه** » فكلا النصين يشير إلى أن مرور الزمن يقف دائمًا إلى جانب (التفسير)؛ لأنه يتيح من الوسائل والإمكانات ما يلقي أمام المفسرين مزيدًا من الأضواء والإيضاحات تجاه آيات القرآن ومراميها وأبعادها، وها هي علوم الطبيعة والاجتماع والآثار والنفس والسياسة والاقتصاد تقدم للباحثين - يومًا بعد يوم - مزيدًا من الأدوات والحقائق التي يمكن للمفسرين أن يجدوا بواسطتها طريقهم إلى التفسير القرآني بشكل أقل صعوبة وأنفذ إدراكًا. ومن ثَم يجب أن نلقي اللوم، في مجال فلسفة التاريخ وتفسيره، على بعض المفسرين؛ (كالطبري) و (الزمخشري) و(ابن كثير) وغيرهم ممن اضطروا إلى استخدام توضيحات وتفاصيل موارد أهل الكتاب (الإسرائيليات) بما تحمله من مبالغات وتهاويل وأخيلة تقف والبحث العلمي على طرفي نقيض؛ لتفسير قصص القرآن وجوانبه التاريخية وإشاراته الزمنية، وهذا يعني أيضًا أن تلك الوسائل غير ملزمة على الإطلاق إلّا بقدر ما تقرب من مفهوم الآية القرآنية أو تبعد عنها. وهل ينكر

أحد أن علوم الاجتماع والآثار والتاريخ تقدم لنا الآن وسائل أكثر علمية وموضوعية لتفسير تلك الجوانب القرآنية، من تلك التي قدمتها لنا (الإسرائيليات) يوم كان الخيال والدوافع الذاتية والمبالغة والتهويل من أهم عناصر كتابة التاريخ ؟ وهل يرفض أحد كذلك الحاجة الماسة في عصرنا هذا للقيام بنشاط علمي جماعي في مجال الدراسات القرآنية، يستهدف استئصال المواقف الإسرائيلية من تفاسيرنا استئصالًا؟

إن (الموقف) الإسلامي من التاريخ يتميز بمرونته وبعده عن التوتر أو التأزم المذهبي الذي يسعى إلى قولبة الوقائع التاريخية وصبها في هيكله المسبق، واستبعاد أو تزييف كل ما لا ينسجم وهذا الهيكل، الأمر الذي يوقع التفاسير الوضعية في كثير من الأخطاء والانحرافات. هذا إلى أن الفكر الوضعي لا بد وأن يتأثر بطبيعة العصر الذي يعيشه سلبًا وإيجابًا، وبدرجة أو أخرى، وهذا (التأثير) المحتوم ينعكس ولا ريب على معطياته الفكرية، سواء كانت (صيغة) هذا التأثر بشكل (تقبل) لقيم العصر وأوضاعه ومناهجه ورؤاه، أو (رفض) لها وتمرد عليها. ففي كلتا الحالتين يلعب الجانب التأثري الانفعالي، والإسقاطات الظاهرة والخفية، في الوعي واللاوعي، دوره في الرؤية التي يمارسها المفكر تجاه الأوضاع والأحداث والأشياء.

فإذا ما حدث وكان مفسرًا للتاريخ، وتفسير التاريخ - كما نعلم - توسيع التحليل صوب الماضي والمستقبل اللذين يندان كثيرًا عن الحصر والضبط والتحديد، فإن لنا أن نتصور كم سيجيء هذا التفسير مطبوعًا بطابع العصر الذي يعيشه المفسر، وكيف أن الأشياء والوقائع والأحداث، في الماضي والمستقبل، ستأخذ اللون الذي يجد المفسر نفسه مضطرًا إلى النظر من خلال زجاجته التي أسقطت عليها مواضعات العصر الظلال والأضواء. وهذا يؤدي إلى أن تبعد التفاسير الوضعية - بدرجة أو أخرى - عن العلمية والموضوعية والحياد.

أما التفسير الإسلامي، الذي يستمد من رؤية اللّٰه التي تعلو على الزمان والمكان وتتجاوز موضوعات العصر النسبية فإنه ينظر بانفتاح تام إلى الأحداث، ويسلط الأضواء على مساحتها جميعًا، دون أن يقتصر على الأحمر أو الأخضر لكي تبدو حمراء أو خضراء. إن رؤيته للأحداث رؤية واقعية شاملة في امتداداتها الزمنية الماضية والحاضرة والمستقبلة. فيما كانت عليه، وما هي عليه، وما سوف تكون عليه. إنه - مثلًا - يعترف بالتمايز القومي، ويعطي لهذا العامل (الواقعي) حجمه الحقيقي رغم

نزعة الإسلام العالمية واستعلائه على الكيانات المحدودة المنغلقة على الإقليم أو اللون أو الجنس. ويؤكد على ضعف الإنسان وتقلبه وعجلته، رغم أنه جاء بنظرية (الخلافة) التي رفع بها الإنسان إلى أعلى منزلة، وحتم على الملائكة أن تسجد له.

وهذا يقودنا إلى حقيقة أساسية، وهي أن التفسير الإسلامي تفسير (واقعي) لا يتأثر بقيمه ومثالياته الممكنة الوقوع أساسًا، في تفسيره للواقع - كما يفعل هيغل وماركس على سبيل المثال - إنما يتكلم على الواقع كما هو، دون تبرير أو تعديل أو تحوير، ولكنه من خلال حركته على أرض الواقع هذه ينطلق إلى أهدافه ومثالياته وآفاقه. إنه يسمي معركة (حنين) هزيمة وفرارًا ويخاطب مهزومي (أحد) بأنهم هم كانوا السبب وراء تلك الهزيمة، ويعلم المسلمين من خلال واقعيته هذه، ألا يبرروا أخطاءهم وينحرفوا في تفسير الأشياء والوقائع، ولكنه يعلمهم - في الوقت نفسه - أن يفيدوا من هذه الرؤية الواقعية للتاريخ لصياغة العالم المرتجى.

وهكذا فإن ثمة فرقًا (منهجيًّا) حاسمًا بين المذاهب الوضعية وبين المذهب الإسلامي في تفسير التاريخ. في الأولى تصاغ حقائق التاريخ وفق المذهب (المصنوع) سلفًا فتقسر على الانسجام مع وضعية المذهب وتساق للتدليل عليه وتأكيده. وهذا الخطأ يجيء من حقيقة أن الوقائع التاريخية سبقت في الزمن تخطيط المذاهب، ومن ثم فإن المذاهب جاءت كقضية (بعدية) تسعى إلى أن تجبر (القبليات) على التشكل بها.

وهذا التأزم المذهبي، وهذا التحديد الصارم للنظم التي تتبعها الوقائع التاريخية في سيرها، وهذا التوتر في التزام هيكل نظري مسبق، تساق أحداث التاريخ للتدليل عليه بالحق والباطل، والذي بلغ أقصى حدته في المادية التاريخية التي رسمها (ماركس وإنكلز)، دفع عددًا من المفكرين الأوربيين إلى اتخاذ موقف معاكس تمامًا، يمثل رد فعل إزاء الموقف السالف، بحيث إنهم رفضوا القول بخضوع الحركة التاريخية لأي ناموس أو سنة، ومسيرتها وفق أي نظام مهما كان. وقد بلغ هذا الموقف، غير الموضوعي، هو الآخر، أقصى حدته على يد (كارل بوبر) في كتابه (عقم المذهب التاريخي).

أما في القرآن، فإن التفسير ينبثق عن رؤية اللّه سبحانه، وهي تختلف عن الرؤية الوضعية في أنها تحيط علمًا بوقائع التاريخ، وبأبعادها الزمنية الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وببعدها الرابع الذي يغيب كثيرًا عن ذهن الإنسان مهما كان على درجة من اللماحية والبصيرة والذكاء، البعد الذي يغور في أعماق النفس البشرية فيلامس فطرة

الإنسان وتركيبه الذاتي، والحركة الدائمة في كيانه الباطني، وينسرب بعيدًا صوب اهتزازاته العقلية والعاطفية والوجدانية، وإرادته المسبقة، وما تؤول إليه هذه جميعًا من معطيات تمنح حركة التاريخ أبعادها الحقيقية، ويمتد كذلك لكي يشتبك في العلاقات الشاملة للمصير. ذلك أنها رؤية الذات الإلهية التي وسعت كل شيء علمًا، والتي صنعت الواقعية التاريخية ووضعتها في مكانها المرسوم من خارطة التاريخ البشري والكوني على السواء.

ومن ثم فإن التفسير القرآني ليس أبدًا مجرد مسلمات بعدية تسعى إلى أن تُقولبَ حوادث التاريخ القبلية في إطارها المتعسف، وإنما هو مذهب ينبثق وفق أسلوب موضوعي (عمّا حدث فعلًا) لا (عمّا يجب أن يكون) وعن طبيعة التصميم التاريخي للبشرية، فهو إذن تبلور للخطوط الأساسية لحركة التاريخ يصوغها القرآن الكريم في مبادئ عامة يسميها (سننًا) ويعتمدها المفسرون الإسلاميون منطلقًا - لا لتزييف التاريخ - وإنما لتفسيره وفهمه وإدراك عناصر حركته ومصائر وقائعه ومسالكها المعقدة المتشعّبة. وهو - إذن - تفسير شامل محيط، يعطي أصدق صورة للسنن التي تسير هذا التاريخ، وبما أن هذه السنن من صنعه تعالى، إرادة وعلمًا ومصيرًا، فإن هذا الموقف القرآني من حركة التاريخ وتفسيره يأخذ صفة الكمال.

الرؤية الوضعية تمتد إلى الماضي لتقبس منه و (تختار) ما يعزز وجهات نظرها المسبقة، والرؤية القرآنية تحيط بالماضي لكي تكثّفه في قواعد وسنن تطرح أمام كل باحث في التاريخ يسعى إلى فهمه، وإلى أن يرسم على ضوء هذا الفهم، طرائق حياته الحاضرة والمستقبلة، باعتبار أن الأزمان الثلاثة إنما هي وحدة (حيوية) تحكمها قوانين واحدة كتلك التي تحكم الحياة سواء بسواء.

من أجل هذا يغدو (التاريخ) في القرآن الكريم وحدة زمنية. تتهاوى الجدران التي تفصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتتعانق هذه الأزمان الثلاثة عناقًا مصيريًّا، حتى الأرض والسماء، زمن الأرض وزمن السماء، قصة الخليقة ويوم الحساب. تلتقي دائمًا عند النقطة الحاضرة في عرض القرآن. فهذا الانتقال السريع بين الماضي والمستقبل، وبين الحاضر والماضي، وبين المستقبل والحاضر، يوضح حرص القرآن على إزالة الحدود التي تفصل بين الزمن باعتباره وحدة حيوية متصلة، فتغدو حركة التاريخ، التي يتسع لها الكون، حركة واحدة تبدأ يوم خلق اللّٰه السموات والأرض وتتوجه نحو يوم الحساب.

إن الحياة الدنيا (فعل) تاريخي مستمر يتشكل من الماضي والحاضر ويرتبط بمستقبل

يوم الحساب الذي هو بمثابة المصير النهائي لفاعلية الإنسان في العالم؛ ولهذا يقدم لنا القرآن الكريم وصفًا رائعًا يتميز بالحيوية والتدفّق لمجرى التاريخ البشري، وبهذا التوافق بين الماضي والحاضر والمستقبل وينقلنا بخفة وإبداع بين الآونات الثلاث؛ حيث تذوب الفواصل والحواجز وتسقط الجدران.

وتبدو نزعة الإسلام الشمولية، والموضوعية في الوقت نفسه، بانفتاحه الكامل على كافة (القوى الفاعلة) في التاريخ، المنظورة وغير المنظورة، العقلية والوجدانية، الروحية والمادية، الطبيعية والغيبية، وبعدم تجزيء الرؤية وعزل الأرض عن موقعها الصحيح في الكون وارتباطاتها الشاملة بما حولها.

لقد شنّ فلاسفة التاريخ الغربيون حملة قاسية على (أرنولد توينبي) في كتابه الشهير (دراسة للتاريخ) ووصفوه بأنه مفكر لاهوتي مزج استنتاجاته الفكرية بكثير من القيم والرؤى الروحية. والحقيقة أن خطوة توينبي تعتبر فتحًا جديدًا في مجال التفسير التاريخي، كما كان كتاب (شبنغلر): (سقوط الحضارة الغربية) قد شكل جزءًا كبيرًا من هذا الفتح. ولكن خطوة (توينبي) هذه، ومن قبله (شبنغلر)، فيها نوع من التأرجح وعدم الاتزان، أو بالأحرى نوع من الانفصالية (العلمانية) بين القيم العقلية والروحية، ومن هنا استطاع العقليون والماديون والطبيعيون أن يجدوا ثغرات واسعة للطعن ضد (توينبي).

إن معظم مذاهب التفسير التاريخي - وضعية كانت أم دينية - قدمت معطياتها متخطية الإجابة عن هذا السؤال المهم: ما هي العلاقة بين اللّٰه سبحانه وبين الطبيعة، بما فيها القوى الماديّة، والإنسان، بما أنه روح ومادة، في صنع التاريخ وإقامة الحضارات؟ وهل من المحتم أن تتكئ أحداث التاريخ على عامل واحد من بين هذه العوامل الثلاثة ويلغى العاملان الآخران، أو على الأقل يغدوان ظلالًا باهتة لفاعلية العامل الرئيسي ؟ ولماذا هذه الجدران التي أُقيمت بين اللّٰه والطبيعة والإنسان ؟

إن معظم مذاهب التفسير تخطت الإجابة عن هذا السؤال، تاركة في طريقها ثغرة عميقة، ومنغلقة، في بحثها عن الفرضية التي تمنح صفة الفاعلية لعامل واحد، وتلغي العوامل الأخرى إلغاءً. ومن ثمَّ برز التفسير السحري (الميتافيزيقي) للتاريخ، وتطور ليعبر عن نفسه بالتفسير (اللاهوتي) الذي ساد تفكير مثقفي العصور الوسطى الأوربية، كما برز التفسير الفردي (البطولي) للتاريخ، والتفسيرات الطبيعية التي بلغت أقصى حدتها (بالمادية التاريخية) التي يصفونها (بالعلمية) !!

ولقد أدرك بعض فلاسفة التاريخ المعاصرين، وعلى رأسهم (شبنغلر) و(توينبي) و(كيسرلنج) والناقد (كولن ولسون)، وغيرهم، أبعاد هذا الخطأ، فعادوا خطوة متمعّنة إلى الوراء لكي يجيبوا عن السؤال الأول ، ويجتازوا - من ثم - طريقًا مرصوفًا لا ثغرات فيه. والحق أن (التفسير الحضاري) تقدم خطوات في هذا المجال، خطوات تتسم بقدر من الموضوعية والشمول الذي يستند إلى نظرة كلية وإدراك عميق لمقومات الحدث التاريخي، ولكن الموقع الذي رصد منه هؤلاء التاريخ، وفلسفوا حركته، تقف أمامه كثير من المرتفعات كسدود وحواجز تمنع الرؤية الكاملة والحكم الشامل الصحيح. كما أن التجربة النفسية التي لامسوا بها أحداث التاريخ تحمل الكثير من عناصر (الذاتية) المزدوجة والتأثيرات العلمانية؛ لذا فإنهم لم يقدروا على إعادة الالتئام الكامل بين فاعلية العوامل الثلاثة، وأبقوا بعض الجدران المزيفة، مرئية وغير مرئية، بين الحضور والغياب، واللَّه والإنسان، والمادة والروح، والطبيعة وما وراء الطبيعة.

صحيح أنهم أعلنوا أن الحدث التاريخي لا يمكن أن تصنعه قوة واحدة، أو أن يصدر عن طرف واحد؛ لأن أية (حركة) تاريخية إنما هي نتاج لقاء خلَّاق بين اللَّه والإنسان والطبيعة، بما فيها الزمن، ولأن إغفال أي عنصر منها إنما هو جهل بالأسس الحقيقية لحركات التاريخ .. لكنهم لم ينجوا من الوقوع في أسر المذهبية المحدودة، والنظرة الذاتية، واضطراب التجربة النفسية في عملية الاستشراف والاستقراء التاريخي، الأمر الذي أدى إلى تأرجح مواقع رؤياهم والوقوع بالتالي في كثير من الأخطاء التي سنعرض لبعضها في دراستنا هذه.

إن تفسير التاريخ البشري يجب أن ينبثق عن موقف موضوعي شامل، يرتبط ويوازن ويدرك العلاقة المتبادلة بين سائر القيم التي تصنع التاريخ مادية وروحية، طبيعية وغيبية، ولن يتحقق هذا بطبيعة الحال إلّا في نطاق (الموقف الإسلامي)؛ حيث لن يستطيع مفكر أو ناقد أن يجد أي مجال للطعن ضد القيم الروحية؛ إذ هي ليست منفصلة عن (المادية) و(العقلية)، وهي تعمل بانسجام وتوافق مع سائر القوى الطبيعية، في تحريك وتوجيه الأحداث التاريخية؛ ذلك أن القيم الروحية في الإسلام ليست مجرد ممارسات فردية شعائرية، بالمعنى اللَّاهوتي؛ بل هي قيم ذات جذور عريضة وارتباط متين بقلب العالم، وحركة التاريخ، وبواقع الحياة البشرية والوجود الجماعي على السواء.

* * *

لقد أدركت من خلال تدريسي مادة (مناهج البحث وفلسفة التاريخ) لطلبة كلية الآداب مدى ضرورة عرض التفسير الإسلامي للتاريخ، في بحث موسع شامل يستمد رؤيته من كتاب اللَّه مباشرة، ويتجاوز - كلية - معطيات الفلاسفة والمفكرين القدماء والمحدثين، الذين تأرجح كثير منهم بين تهاويل الخيال القصصي الإسرائيلي وبين أطروحات الفلسفة اليونانية، ذات التصور الوثني، وبين النزعات العقلية والطبيعية التي سادت القرنين الأخيرين. ولقد قادهم هذا التأرجح والجنوح إلى مواقع ومواقف ما تلبث أن تتفكك ويبدو زيغها واصطناعها الكيفي بمجرد عرضها على المعطيات القرآنية مباشرة.

وما دام الأمر يستهدف عرض وتحليل الموقف الإسلامي من حركة التاريخ، فإن لنا - إذا ما توخينا الدقة والموضوعية - ألا نرجع إلّا إلى مصدره الأول والأخير : القرآن. وهكذا وجدتني ملزمًا أن أقف، بالصرامة التي يتطلبها منهج البحث العلمي، عند معطيات هذا المصدر اليقيني الثابت، منذ أول خطوة في البحث وحتى آخر كلمة فيه. وأرجو أن أكون قد أسهمت - بجهدي هذا - في ميدان خصب، عميق، لا يزال ينتظر الكثير والكثير من البحث والدراسة والتحليل.

إن أية نظرة سريعة تجاه معطيات الفكر الفلسفي الراهن وعروض المكتبة المعاصرة تطلعنا على حشد كبير من الأبحاث والمؤلفات المتعلقة بنظريات التفسير الوضعي للتاريخ، وبخاصة التفسير المثالي (لهيغل) والمادي (لماركس) و (إنكلز) والحضاري (لشبنغلر) و (وتوينبي)، ويمكن أن نضيف إليها التفسير الجنسي (لسيغموند فرويد). لكننا لا نجد إزاء هذا كله دراسات منهجية متكاملة لعرض التفسير الإسلامي للتاريخ، من خلال الرؤية القرآنية، عرضًا تحليليًّا مستقلًّا.

هنالك شذرات عن المسألة في كتاب محمد إقبال (تجديد الفكر الديني في الإسلام) يطغى فيها التحليل العقلي على الاستمداد الموضوعي من القرآن، وبحث التفسير الإسلامي في كتاب عبد الحميد صديقي (تفسير التاريخ) لا يعدو أن يكون محاولة مستعجلة لتقديم بعض ملامح الموقف، تفتقد في كثير من جوانبها العمق المنهجي والتماسك، على ما فيها من جدة وجرأة في طرق باب جديد، أما كتاب راشد البراوي (التفسير القرآني للتاريخ) فهو مجموع دراسات اقتصادية في القرآن الكريم لا علاقة لها بتفسير التاريخ اللَّهم إلّا الصفحات الأخيرة من الكتاب، والتي يمر فيها بالمسألة مرورًا

سطحيًّا سريعًا، وكان أحرى أن يسمى الكتاب (دراسات اقتصادية في القرآن) بدلًا من تسميته تلك. ونجد في كتاب ويدجري (المذاهب الكبرى في التاريخ)، صفحات خمسًا أو ستًّا يستلهم فيها كتاب (إقبال) آنف الذكر أكثر مما يستلهم القرآن.

ويبقى المثقف المسلم، والمؤرخ المتخصص، والطالب الجامعي - بعد هذا - في حاجة إلى مرجع منهجي يرتبط بالقرآن ارتباطًا عضويًّا، ما دام يسعى إلى كشف الرؤية القرآنية نفسها تجاه حركة التاريخ، ويستمد مادة بنيانه من معطيات القرآن ذاته، ويعتمد المنهج الحديث للبحث، بادئًا بتجميع كافة (النصوص) المتعلقة بالموضوع، منسقًا إياها بعد هذا وفق بنيتها وارتباطاتها، محللًا - في نهاية الأمر - مضامينها المتنوعة المتشابكة، مَقطعًا مَقطعًا وفصلًا فصلًا، من أجل أن يظل البحث متماسكًا مترابطًا يخدم هدفه الواحد وهو البحث عن الخطوط الشاملة للتفسير الإسلامي للتاريخ من خلال الرؤية القرآنية. وما هذه الدراسة، التي بين يدي القارئ، سوى محاولة أولية في هذا السبيل، أرجو أن يتجاوز الباحثون في المستقبل القريب، أخطاءها وسلبياتها من أجل الوصول إلى الأحسن والأكمل بإذن اللّه.

وإذ آثرت عبر فصول البحث كلّه إجراء مقارنات بين كل نظرة أو موقف إسلامي إزاء التفسير التاريخي وبين ما يقابله من نظرات ومواقف في التفاسير الوضعية وبخاصة (المثالية) و (المادية) و (الحضارية). فقد وجدت لزامًا عليَّ أن أعرض على القارئ في فصل تمهيدي - وبإيجاز تام - الخطوط العريضة لتلك المذاهب، والنقد الموجه إليها؛ لكي يكون على بينة من أمره، ويقدر على متابعة المقارنات المنبثة في صفحات الكتاب. ومن ثم فإن هذا الفصل (التمهيدي) لا يعدو أن يكون تلخيصًا وتركيزًا، مع إضافات وتعليقات خاصة ترد بين الحين والحين، لأبحاث عدد من الكُتّاب والمفكرين وبخاصة: أطروحة (منح خوري) القيمة عن (التاريخ الحضاري عند توينبي) وكتاب (توينبي) الملخص نفسه (مختصر دراسة التاريخ) و (مدخل لفلسفة التاريخ عند هيغل) - (لهيبوليت) - والمحاضرتين القيمتين: الثانية والثالثة من كتاب (صديقي) (تفسير التاريخ) واللتين يتناول فيهما تفسيري (هيغل) و(ماركس) على التوالي، وكتاب (التفسير الاشتراكي للتاريخ) (لفريدرك إنكلز).

وأعترف بأنني لم أبذل في هذا الفصل (التمهيدي) جهدًا يذكر إزاء ما بذلته في تعقب (النظرية) عبر القرآن نفسه، اللّهم إلّا جهد التلخيص والتركيز والتنسيق، حسبما يسمح

به الموقف، فضلًا عن تحديد الانتقادات الأساسية التي لن ينجو منها أي جهد وضعي يعتمد الطاقات البشرية النسبية وحدها، ولا يستمد من اللَّه.. ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٩، ١١٠].

أ. د. عِمَادُ ٱلدِّين خَلِيل

الفَصْلُ الأَوَّلُ

التفاسير الوضعية الأساسية

(عرض ونقد)

التفسير المثالي: هيغل[1]

يمكن تعريف فلسفة هيغل التي يدين لها ماركس بالشيء الكثير بأنها (مزيج المتناقضات)، فهو يرى أن كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواحٍ للمجموع الحي (Living Totality)، ومنها جميعًا يتكون كيان متجانس. و« إن كل فترةٍ أساسية تنمّي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها ».

ويستمر الصراع دائمًا، فتتحد المبادئ المتناقضة في وحدة عليا هي (الموحد)، وهذا الموحد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد، فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعّال من كل من الفرضية ونقيضها. وبهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى (المطلق) الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبين فيه أي تناقض.

ويمكن توضيح ذلك بعدة أمثلة: أعلنت اليونان القديمة ديمقراطية محدودة تعني أن بعض الناس - وهم كل طبقة المواطنين - أحرار. وبهذا اكتشفت أثينا مبدأ الفردية والحرية المقيدتين. وإذ دفعت الديمقراطيات اليونانية مبدأ حرية الفرد إلى حد الأنانية المستغلة فإنها حطمت بذلك وحدة كيان دولة المدينة (City State). وقامت روما فأعلنت مبدأ الشخصية العالمية.

إن الفرد شخص، كمواطن لإمبراطورية عالمية. ولكن روما لم تسلم بأن الفرد ككائن ذي روح حر فقط كمواطن. والمسيحية التي قامت في الإمبراطوية الرومانية أعلنت، بفكرتها عن الإله البشر، الاتحاد الشامل بين الفرد المستقل والروح العامة. لقد حققت الشعوب الجرمانية هذا المبدأ أول مرة في النظام السياسي الاجتماعي. فكل الناس فيه أحرار كأشخاص، ولكنهم إذ يكونون أشخاصًا فمعنى ذلك أن يكونوا أعضاء في الدولة التي هي الوحدة الجامعة التي تحمي وتغذي الأسرة والمجتمع المدني والكنيسة والحضارة. فالدولة تجريد غير واقعي بغير أعضائها. والفرد لا يكون إنسانًا ما لم يعمل

---

(١) عن عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٦١ - ٦٨).

بتعاون كعضو في الدولة وهذه الجماعية التي ظهرت في القرن هي مجرد رد فعل للفردية، وهي حسب ما يرى هيغل خير وأكثر انطباقًا على الحقائق؛ إذ إنها تتضمن العناصر الفعالة من الفردية أيضًا. وفي كل حالة تظهر من التقاء الاتجاهات المتضادة نتائج مثمرة.

وهكذا نجد أن جوهر التطور حسب رأي هيغل إنما هو نتيجة صراع المتناقضات على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضًا داخليًّا يدفعها إلى الأمام ويؤدي بها آخر الأمر إلى تحطمها وتحولها إلى شيء آخر. إلّا أن تحطم ظاهرة ما إنما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة. وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي إلى نظام آخر.

إن كل فيلسوف سبق هيغل اعتبر نظامه حقيقة مطلقة، وكل ما سبق من أنظمة مجرد أوهام خدّاعة، ولكن هيغل أظهر أن هذه النظرة تتسم بالسذاجة، وأن كل نظام فلسفي هو خطوة في تطور الروح المطلقة. و هذه الروح في كل حقبة من حقب التاريخ تتوصل إلى إدراك ذاتها بشكل فلسفة محدودة تطابق المحتوى التاريخي لمرحلة التطور تلك. ولكن هذا الشكل يظهر في حقبة أخرى شكلًا قديمًا ويخلي مكانه لخليفته الذي يزيحه دون ريب، ولكنه يحتوي أيضًا في ذاته على ما في الفلسفة المندحرة من نواحٍ فعالة.

ثم إن هيغل يدّعي أن الصيرورة ليست متروكة « للمصادفة والأسباب العارضة » بل هناك (إرادة مخططة) وراءها، وأن هدف هذا الصراع والتوفيق إنما هو تطوير (روح العالم) التي تتجه دائمًا نحو غايتها، ألا وهي (تحقيق الذات - (Self – realization)). يقول هيغل: « إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائمًا صيرورة عقلية (أي حركة فكرية متقدمة نحو الأعلى)، وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم؛ تلك الروح التي طبيعتها دائمًا واحدة لا تتغير، والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم »؛ لذا « فإن تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعّالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير، وأن الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة، والتي تعرضها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعالة، هذه الصيرورة تكوّن ما يسمى بصورة عامة بخطة المشيئة العليا ».

قد يبدو لذي النظر السطحي أن الناس أحرار في أن يعملوا ما يشاؤون كما يريدون، وأن أعمالهم تنبعث عمّا يشعرون به من حاجات وعواطف، وعمّا يتمتعون به من مزايا

ومواهب، ولكن هيغل يرى أن هذا تصور شديد الخطأ عانى منه البشر الكثير منذ زمن سحيق. فهذه الأعمال جميعًا تتم بأمر (روح العالم)، « وهذه المجموعة الكبيرة من الرغبات والميول والنشاط تؤلف الأدوات والوسائل التي تستعين بها (روح العالم)، وهي التي ترقى بها (أي الروح) إلى الوعي، وهي التي تجعلها حقيقة في عالم الوجود ».

وكذلك فإن أهداف كل العظماء تدخل فيها تلك القضايا الكبار التي هي إرادة (روح العالم). « أنهم قد يسمون أبطالًا من ناحية كونهم قد استمدوا غاياتهم ودعوتهم لا من الأوضاع الاعتيادية الهادئة التي يقررها النظام القائم، بل من مصدر خفي ». إنهم ربما يعتبرون أنفسهم رجالًا أحرارًا يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم ومما يشعرون به شخصيًّا من أنواع الاهتمام والميول، ولكن الحق أنهم جميعًا دُمى في يدي (روح العالم) فهم يجهلون تمامًا الفكرة العامة التي يعرضونها عندما يسعون وراء تحقيق أهدافهم تلك. وليست عظمتهم في الحقيقة إلّا في أن لديهم البصر النافذ الذي فيه من العمق ما يكفي لأن يدركوا متطلبات الزمن. « وكان مما امتازوا به أنهم عرفوا هذا المبدأ الناشئ، وهو الخطوة الضرورية التي ستلي مباشرة في طريق التقدم التي قدر للعالم أن يخطوها وأنهم جعلوها هدفهم وبذلوا طاقتهم في إنجاحها ».

إن المسألة هي ما الذي يميز هؤلاء الأبطال من سواهم من عامة الناس ؟

الفرق الوحيد الذي يبينه هيغل هو صفاء النظر، فهم يسمعون نداء (روح العالم) بوضوح أكثر من بقية الناس. والنتيجة المنطقية لهذا: أن هؤلاء الأبطال يجب ألّا يعيروا سمعًا لنصح الجماهير؛ لأن الجماهير لم توهب الذهن الصافي الذي يلتقط إشارات (الروح).

يقول هيغل: « لذا فإن الرجال الخالدين في تاريخ هذا العالم، أبطال عصر من العصور. يجب أن يعترف لهم بصفاء البصيرة ويعترف بأن أعمالهم وأقوالهم خير أعمال ذلك العصر وأقواله. لقد كوّن العظماء أغراضًا يرضون بها أنفسهم، لا الآخرين، ومهما كانت الخطط الحكيمة والنصائح التي ربما يكونون قد تعلموها من الآخرين، فإنها تكوّن في سيرتهم العلمية ملامح أضيق حدودًا وأشد تنافرًا؛ لأنهم هم أنفسهم يفهمون الأمور أحسن مما يفهمها الآخرون، الذين يتعلم بقية الناس منهم ويؤيدون سياستهم، أو على الأقل، يذعنون لها؛ إذ إن تلك الروح التي خطت هذه الخطوة الجديدة في التاريخ هي

الروح التي تسكن أعماق كل فرد، ولكن في حالة من الغفلة وعدم الوعي، فيوقظها هؤلاء العظماء الذين نتحدث عنهم؛ لذا فإن أصحابهم يتبعون قادة الروح هؤلاء؛ لأنهم يشعرون بأن قوة أرواحهم أنفسهم، هذه القوة التي لا تقاوم، قد تجسدت بهذا الشكل »؛ لذا فهم معصومون من الخطأ، وأعمالهم فوق كل أنواع النقد، وكل ما يفعلونه سلوك حميد؛ لأنهم عظماء وقد أرادوا شيئًا عظيمًا ونفذوا إرادتهم وفقًا لحاجة العصر، وأن أعمالهم العظيمة هذه لها أهمية كبيرة تجعلها أسمى من أن توزن في ميزان الفضيلة والأخلاق الحميدة.

يقول هيغل: « بل إنه لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الأخرى، وحتى المقدسة منها بدون اكتراث، وذلك تصرف يعرض أصحابه إلى تأنيب الضمير، ولكنّ هذا الشكل ذا القوة الكبيرة لا بد أن يدوس الكثير من الأزهار البريئة ويحطم الكثير من الأشياء التي تقف في طريقه » هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير، وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي.

يعتقد هيغل أن هذه الفكرة عن الأخلاقية تحل أحد الألغاز الكبرى في حياة البشر، وهو أن الطيب التقي - غالبًا أو في أكثر الأحيان - يعيش عيشًا نكدًا في هذا العالم، بينما الخبيث الذي يميل إلى الشر يعيش عيشًا سعيدًا منعمًا. فهو يرى أن الإنسانية إذا أخلصت نفسها لهدف واحد ووجهت جهودها إليه دون النظر إلى كل ما سواه فحينئذ لا يمكن أن يعتبر ما يسمى « تعسًا أو منعمًا من الأفراد المعزولين عناصر أساسية في النظام المنطقي المحكم الذي يسير عليه العالم. وكل ما هو مطلوب إنما هو أن يتحقق هذا الهدف العظيم. وأن الناس ليشعرون بعدم الرضا لمجرد أنهم لا يجدون الحاضر ملائمًا لتحقيق الأهداف التي يعتقدون أنها حق وعدل ».

والأمر الآخر الذي يجب بحثه: ما هو الشكل الذي به يمكن تحقيق الهدف العظيم؟ يخبرنا هيغل بأنه (الدولة) ولكنها لا تعني عنده السلطة الملزمة التي تكون قانونًا فوق كل فرد أو جماعة وتكون جزءًا من المجتمع، إنها الشكل الذي تتخذه الروح؛ إذ تتجسد تجسدًا كاملًا، « وهذا هو اتحاد الذاتي مع الإرادة العقلية، إنها الكل الأخلاقي، الذي هو ذلك الشكل من الحقيقة الذي فيه يكون للفرد حرية يتمتع بها. ولكن على شرط أن يعترف بالأمور المشتركة لهذا (الكل) ويعتقد بها وتتجه إرادته نحوها ». إن الإرادة الذاتية. والاندفاع الذاتي يحركان البشر ويدفعانهم إلى النشاط، الذي يحقق (الوجود العملي). إن الفكرة هي المنبع الداخلي للعمل والدولة هي الحياة الخلقية المتصورة

التي توجد حقيقة في عالم الواقع؛ لذا فكل ما لدى الأفراد من أخلاق إنما حصل لديهم بهذه الطريقة فقط. إنها في الحقيقة فكرة الروح ظاهرة في المظهر الخارجي للإرادة الإنسانية وحريتها. ويعرفها هيغل بأنها (فكرة إلهية) لأنها توجد على الأرض.

هذه بصورة مختصرة الخطوط العريضة لفلسفة التاريخ كما عرضها هيغل، ولنا بعد ذلك أن نعرض - بإيجاز كذلك - لأهم النقدات الموجهة إليها:

النقد

١ - إن الإنسان المتوسط الذكاء يقرّ بأن كل شيء مدين بوجوده إلى نقيضه، وبأن هناك صراعًا أبديًّا بين الميول والاتجاهات المتضاربة، وبأنه حين يحقق نظام اجتماعي ما كل ما فيه من إمكانيات يبدأ بالانحلال، وتتولد من باطنه نفسه قوًى تحطمه تمامًا وتقيم أنظمة جديدة على أنقاضه. ولكن هيغل يتوسع فيما يدعيه أكثر مما يجب؛ إنه يعتقد أن هناك صراعًا دائمًا وتوفيقًا بين النقائض، وأن الموحد يحتوي على العناصر التي لا تزال فعالة من كل من الفرضية ونقيضها ويقربنا خطوة واحدة من الحقيقة[١]. ونحن إذا حللنا خط المناقشات عن كثب وجدنا أن هيغل - رغم المستوى العالي الذي يتمتع به من الذكاء - لا يفرّق بين ما هو نقيض وما هو واضح متميز.

يقول كروجه بهذا الشأن: « من ذا يستطيع أن يقنع نفسه بأن الدين هو عدم وجود الفن، وأن الفن والدين ما هما إلّا تجريدان ليست لهما حقيقة إلّا في الفلسفة، موحد الاثنين، أو أن الروح العملية هي نفي الروح النظرية، وأن المحسوس نفي للحدس، وأن المجتمع المدني نفي للأسرة، وأن السلوك الخلقي نفي للحقوق، وأن كل هذه التصورات لا يمكن التفكير فيها خارج نطاق موحّدها الذي هو الروح الحرة والفكر والنزعة الأخلاقية للدولة، بنفس الطريقة كالوجود وعدمه، التي لا تصدق إلّا بالصيرورة فقط »[٢].

* * *

٢ - إن الخطوط التي تمثل الحدود بين الفرضية ونقيضها مرتبطة مع بعضها ارتباطًا وثيقًا حتى ليستحيل رسم خط فاصل بينهما، إن هذا يكون صعبًا بصورة خاصة في

---

(١) لا يقصد هيغل بذلك الحقيقة المادية، بل المطلق الذي تنحل فيه جميع المتناقضات. [عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٦٨) هامش (٢)].

(٢) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٦٨، ٦٩) عن:
Benedetto croce: what is liveing and what is Dead the philosophy of Hegel (p. 96).

الحركات التي ليست لها صفة الثبات وإنما هي دائمًا متحركة. ومهما بلغ المرء من الذكاء فإنه لا يستطيع أن يجزم بالقول بأن هذه هي نهاية الفرضية وأن الخطوة التالية تكون في عالم النقيض. ولا يوجد خط حدود واضح يفصل الواحد عن الآخر، وربما يكون هناك فرق في الدرجة ولكن لا في النوع.

٣ - إنا إذا اعتقدنا بأن النقيض يتولد من باطن الفرضية نفسها، أدى بنا ذلك إلى أن نعتقد بأن النقيض هو ضد الفرضية في كل ناحية، وهذا يعني أنه لا يوجد شيء مشترك بين النظامين. وحين تكون الحالة هكذا فكيف يكون ممكنًا أن تذوب الفرضية تمامًا في خصميها ؟ إن الامتزاج بينهما لا يكون ممكنًا إلّا حين يكون هناك شبه بينهما. فإذا فرضنا أنه يوجد حقًّا بعض العوامل المشتركة بينهما لم يمكن حينئذ أن نسميهما بالنقيضين؛ لأن النقيضين يجب أن يكونا مختلفين فيما بينهما من كل وجه، إن التوفيق بين الفرضية ونقائضها ناتجٌ عن الحب (والتجاذب) لا الصراع (والتنافر).

* * *

٤ - أما قول هيغل بأن النقيض لا ينفي إلّا النواحي الناقصة من الفرضية فإنه يؤدي إلى سوء فهم آخر. إن هذه الفكرة تجعل المرء يستنتج أن الصراع بين المتناقضات منطقي تمامًا وتقوم على إنجازه الحكمة الواعية التي يتمتع بها الأفراد. إلّا أن هيغل، على العكس من ذلك، يقول: أن الأفراد ليس لهم في الخطوط العريضة من التطور التاريخي إلّا معلومات بسيطة جدًّا عمّا يقومون به فعلًا؛ إذ إنهم كلهم مجرد أدوات وليسوا سادة هذه الصيرورة التاريخية. فهذه الصيرورة صيرورة لا شعورية بالنسبة للأفراد.

والسؤال الذي يبرز هنا: إذا كانت كل حوادث العالم ليست نتيجة الإرادة الواعية للأفراد فكيف تم القيام بها؟ « إن هيغل لا يعطي جوابًا معينًا عن هذا؛ بل إنه ليبدو كأنه ليس الأمر المهم هو كيف تم القيام بها، وإنما إلى أي حد تبدو هذه الصيرورة اللا شعورية، حين نلتفت إلى الوراء لننظر إليها، منطقية ممكنة التصور؟ وهو يتحدث عن كل هذا التطور كما لو لم يكن من عمل القوى العقلية لأي شخص وهو مع ذلك من عمل (العقل بصورة عامة)، كأن الأفكار يمكن أن تؤدي عملها دون أن تكون هذه الأفكار في عقل أي شخص »[1]. هذه الطريقة من الكلام ليست سوى إضفاء الارتباك والإبهام على الكلمات.

* * *

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، (ص ٧٠) عن: Lindsay: Karl Marx's Capital (p.20).

٥- إن الأفكار ليست مجزأة إلى أجزاء واضحة التقسيم، بل إن كل فكرة وحدة قائمة بذاتها يستحيل أن تقسم أقسامًا مختلفة؛ لذا فليس من أساس لما يدعى من أن نتيجة التوفيق بين الفرضية ونقيضها - وهي النتيجة التي تسمى الموحد - هذه النتيجة التي هي الفرضية الجديدة، تضم بعض العناصر وترفض الأخرى ونريد أن نوضح ذلك بمثال: تمخضت الفرضية (أ) عن نقيضها (ب) إن للفكرة (أ) حسب رأي هيغل جوانب عديدة هي (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) (أ ٤) (أ ٥) ومن هذه الخمسة ثلاثة أصبحت باطلة، هي (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) أما (ب) التي هي النقيض فإنها تخالف ثلاثة أجزاء فقط، بينما تحتضن القسمين الآخرين (أ ٤) (أ ٥) وهذا يعني أن (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) التي رفضها (ب) هي العناصر المخالفة. ولو لم يكن الأمر كذلك لسمح (ب) لهم أيضًا بالانضمام إليه. أن (ب) لا يقبل (أ ٤) و (أ ٥) إلّا على أساس أنه يوجد شيء مشترك بينهم فيكون الحال الآن هكذا:

(ب) ضد (أ)

(ب) ضد (أ ١) (أ ٢) (أ ٣) لأنه يخالفهم.

(ب) ضد (أ ٤) (أ ٥) لأنه يتفق معهما !! وهكذا يتبين لنا أن الفكرة (أ) نفسها خليط من فكرتين متصارعتين كل منهما مجزأة إلى أقسام مختلفة. فهل يمكن تصور ربط هذه الأقسام المتخاصمة في فكرة واحدة؟

* * *

٦ - ثمة ناحية أخرى من عدم الاستقامة في حجج هيغل، فهو يعتقد أن كل عهد يأتي يكون أرقى من العصر الذي سبقه؛ لأن الفرضية ونقيضها وموحدها ما هي إلّا أشكال التطور أو مراحله. إن الموحد الذي هو نتيجة التوفيق بين العناصر الصحيحة الفعالة من الفرضية ونقيضها.. يجب بالضرورة أن يخطو خطى واسعة إلى الأمام. وكذلك يعتقد هيغل أن كل عهد يمثل وحدة؛ لأنه مظهر لشيء واحد فقط ألا وهو (روح العالم). ويتضح من ذلك أن الحضارة التي هي الكل المركب (Complex Whole) المؤلف من المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقوانين والعادات؛ يجب أن تليها حضارة أرقى منها، وأن مستوى الأوجه المختلفة للحضارة في رقي لا سبيل إلى مقاومته. وكذلك فإن روح العالم التي تتجه دائمًا نحو الكمال يجب عليها أيضًا أن تقوم بالتوسع والامتداد داخل الرداء الذي ارتدته؛ لذا فإنه مع تكشف الحجاب عن (روح العالم) يجب أن

يحصل أيضًا تحسن في أساليب حياة البشر وطرق تفكيرهم وفنهم وآدابهم ودينهم وحتى في وسائل ترفيههم وتسليتهم.

إلّا أن الملاحظ أن سجلات التاريخ تحمل تحديًا لهذه الحقيقة التي هي النتيجة الطبيعية التي تؤدي إليها طريقة هيغل الديالكتيكية، فليس هنالك نمو متناسق يتبع نظامًا اعتياديًّا لا شذوذ فيه ويمكن نقله من شعب إلى شعب في هذا العالم. إن نمو الحضارة « ليس على خط واحد أو تراكميًّا، وإنما هو يحدث أحيانًا.. في سلسلة من الارتفاعات تشبه البثقات التي ليس لها إلّا قليل من الاستمرارية، إلّا في حدود تأثرها بالطرق الأسلوبية في التعبير طبعًا »[١].

لقد دحض الناس هذه الحجة بقولهم: أنه قد حصل حقًّا اتساع مستمر في وسائل الراحة المادية بدأ منذ وقت لا تعرف حدوده؛ لذا فإن لهيغل الحق فيما ادعاه. ولكنهم في الحقيقة خلطوا بين الحضارة والمدنية، فلم يدركوا أن « الحضارة لا تمثل أحدث الأساليب المتبعة في الحياة العامة، لا سيما في الأمور الظاهرية من الحياة، في اللباس والتقاليد المتبعة في غرفة الاستقبال، وفي وسائل الترفيه المادية، وفيما أشبه ذلك من علامات الطلاء الزائف أو الخارجي. إن هذا الوضع أو الحالة قد تكون مظهرًا كاذبًا مصطنعًا وليس من الضروري أن يكون مثلًا لحالة عقلية راقية » [٢].

إن الحضارة تتعلق بحالة العقل؛ لذا فليس لها صفة التراكم وتكديس الأشياء كالمدنية. بل إن على كل جيل أن يكتسبها من جديد. إن الموضوع ليس مجرد وراثة وليس من شيء يناقض كون حصيلة الماضي هي أساس ما نحققه في الحاضر، ولكن ما من شيء يضمن أن يكون الحاضر مساويًا للماضي فضلًا عن أن يكون خيرًا منه[٣].

لقد عرض توينبي المسألة بوضوح عندما قال: « لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة لم يسبق له أن بلغها. ومع ذلك فقد انتكسنا في نفس الوقت في الحروب الطبقية والقومية والعنصرية إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا. وهذه المشاعر السيئة تجد لها متنفسًا في أعماق القسوة الغليظة المصممة علميًّا، وإنك لتجد في هذه الأيام الحالتين

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٧٣) عن: Ginbsag: Sociology, (p.46).

(٢) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٧٣) عن: Dr.Sayyed Abdul Latif: Islamic culture Studies.

(٣) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٧٣) عن: Maciver: Society

الفكريتين المتباينتين ومقياسي السلوك المختلفين يعيشان جنبًا إلى جنب لا في العالم نفسه وحسب، ولكن في بعض الأحيان في البلاد نفسها وحتى في النفس الواحدة. إن لدينا قوة في الإنتاج لم نصل إليها من قبل، وهي توجد إلى جانب نقص وعدم كفاية لم نعان منهما من قبل.. » (١).

إننا إذا اعتقدنا أن الموحد الحضاري لعصرنا هذا هو ناتج ثانوي للدم السليم النقي لكل الحضارات السابقة التي عرفها الإنسان حتى الآن؛ فإنه طبعًا يجب أن يكون أحسنها وأكملها من كل الوجوه. لكننا نجد الحقيقة مخالفة لذلك تمامًا، فعصرنا عصر يسير فيه الانحطاط الخلقي عند الناس جنبًا إلى جنب مع التقدم المادي، فكيف يستطيع هيغل وأتباعه أن يوفقوا بين هذين الاثنين؟

* * *

٧ - وتخالف ذلك مغالطة أخرى، فإن هيغل يعتقد أن صيرورة الزمن تتجه من الأدنى إلى الأكثر كمالًا، بالمعنيين الخلقي والمنطقي، أن العالم (روح العالم) تتجه نحو تحقيق الكمال، ولكنها لم تبلغ بعد هدفها، وربما لن يمكن لها ذلك ما دام هذا الوجود؛ إذ إن الصيرورة سائرة في طريقها تعمل عملها لا في أمريكا أو إنكلترا أو روسيا فقط، ولكن كذلك في ألمانيا؛ إذ لا يمكن أن توجد فكرة الانتهاء في نظام هيغل الفلسفي، ولكن هيغل نفسه تصور، رغم صعوبة توفيق هذه النظرة مع نظريته ذاتها، أن دولة بروسيا كانت قد بلغت الكمال حقًّا بحيث لم تكن أية ثورة تالية تستطيع أن تأتي بغير المصائب في أعقابها. ولقد يمكن القول: إن الحقيقة قد تم الوصول إليها آخر الأمر هناك في ألمانيا، وأن الخط المتموج قد بلغ قمته.

* * *

٨ - إننا لنجد عند هيغل محاولة لإعادة الثقة في العقل، تلك الثقة التي كان كانت (Kant) قد زعزعها، وهذا هو سبب ادعائه بأن العقل وحده يوجه العالم. وهو يعتقد أن العقل فكر يكيف نفسه بحرية تامة. وهو يكره كل ما هو مخالف للعقل والمنطق ويقول: إن الصيرورة الكونية تسير وفق مبدأ عقلي، وهذا هو الذي جعل هيغل يقول قولته

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٧٤، ٧٥) عن:
A. Toynbee: Civilization on Trial, (pp.151,152).

المشهورة: « إن كل ما كان معقولًا فهو حقيقي، وكل ما كان حقيقيًّا فهو معقول ». وكان يعني بهذا أن الأنظمة الاجتماعية الموجودة، وأشكال الحكم التي لا يقررها سوى تطور (الروح المطلقة) هي أيضًا خطوات في حركة العقل. وهنا يضع هيغل مبدأه الديالكتيكي المثالي، وهو أن تطور العقل هو تطور الحقيقة. وهكذا فكل شيء سواء كان خيرًا أم شرًّا، له ما يبرره؛ لأنه منطقي معقول.

يقول (بنيدتو كروجه) في معرض تعليقه على هذه الناحية من فلسفته: « إن فكرة هيغل عن الحياة كانت فلسفية بحيث أن النزعتين المحافظة والثورية، كلٌّ في دورها، تجد فيها ما يبررها. وفي هذه النقطة يتفق إنكلز الاشتراكي والمؤرخ المحافظ ترايتشه؛ لأن كليهما يرى أن تماثل المعقول والحقيقي يمكن أن يدعى إليه بصورة متساوية في كل الآراء السياسية والأحزاب التي تختلف عن بعضها، لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة؛ بل في تعيين ما هو المعقول والحقيقي وما هو غير المعقول وغير الحقيقي، وفي كل مناسبة يعد ذلك الحزب السياسي العدة لشن حرب على نظام أو طبقة من طبقات المجتمع، فإنه يدعي أن خصمه مخالف للمعقول، أي أنه ليس له وجود ملموس وحقيقي، ويكون بهذا الادعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة في خط واحد »[1].

وواضح أن هذه النظرة، فضلًا عن أنها تساند كل فجور واضطهاد، فهي كذلك تساند أي نوع من أنواع الهيجان. وإذا سلمنا بأن المعقول حقيقي، فحينئذٍ إذا تبين أن الحقيقي غير معقول وغدًا لا يتجاوب مع أفكاره، فذلك برهان نهائي على أنه صار عتيقًا، ومحكومًا عليه بالفناء وعرضة لأن يتحطم. فكانت الملكية موجودة طوال الفترة التي كانت فيها معقولة، ولكنها في الوقت الذي أصبحت فيه غير معقولة زالت؛ لذا استطاع اليساريون من أتباع هيغل أن يفسروا هذا الغرض لكي يساندهم في صراعهم مع النظام الملكي والدين. وكانوا يستطيعون أن يظهروا أن الملكية والدين مخالفان للمعقول؛ لذا فيجب أن يزولا، وذلك أن قتالهما أمر لا مفر منه.

ولكن المسألة هي: كيف يمكن أن يقرر أن نظامًا ما من أنظمة الحكم معقول أو مخالف للمعقول؟ والجواب على ذلك: هو أن النصر الحربي وحده يقرر ذلك. وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يسموا هيغل « فيلسوف مجلس الحكم السري وحكم طبقة الإداريين

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٧٦، ٧٧) عن:
B. Croce: Philosophy of Hegel, (pp. 66 , 67).

للدولة » وفي هذا القول شيء كثير من الحقيقة « ففي هذا النظام الذي يمتزج فيه غير المحدود والمحدود في شيء واحد، والخير والشر يؤلفان صيرورة واحدة، والتاريخ فيه هو عين حقيقة الفكرة والروح. لا شيئًا خارج إطار تطورها التاريخي، في هذا النظام تكون كل الحقيقة لمجرد كونها حقيقة، حقيقة للفكر وتابعة للكل المحسوس الذي لا يتجزأ؛ لذا فكل التاريخ عنده يصير تاريخًا مقدسًا للفكرة »[١].

* * *

٩ - إن الصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها هيغل قد علمت الناس عبادة القوة. وقد ساند هو نفسه كل رجل ارتقى عرش السلطان « حين حاول نابليون بحراب جيشه أن يدخل العلاقات البورجوازية إلى ألمانيا كان هيغل، الذي كان في ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي، يتجاوب مع الثورة الفرنسية، ورحب بدخول جيش نابليون إلى (ينا) باعتباره التجسيد التاريخي لشكل جديد للروح المطلقة. ثم سمي نابليون (الروح المطلقة على جواد أشهب). ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين قوي الحكم الملكي الإقطاعي في ألمانيا، والذي كان على رأسه فردريك وليم الثالث كان هيغل قد فَقَدَ أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسيا »[٢].

* * *

١٠ - ونريد أن ننظر آخر الأمر في نظريته عن الدولة. أن هيغل - كما نعلم - يعتقد بأن الانفصال شيء لا وجود له في عالم الحقيقة. فالعالم، كما يتصوره « ليس مجموعة وحدات صلبة، ذرات أو أرواحًا، كل منها قائمة بذاتها تمامًا ». وعنده أن ما يظهر من استقلال ذاتي للأشياء المحدودة إنما هو وهم وخيال. وهو يرى أنه ما من شيء حقيقي تمامًا وبصورة نهائية إلّا (الكل). وهذه العقيدة أدت به إلى أن يستنتج أنه لما كانت الدولة تجسيدًا للكل فهي الحقيقة الصادقة وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية. وأن الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده لم يستطع ذلك إلّا كعضو من أعضاء الدولة. ولكن في هذه الفكرة شيئًا كثيرًا من التناقض، فالمشكلة هي: لماذا يجب علينا أن نأخذ الدولة وحدها كتجسيد للكل ولماذا لا نأخذ العالم كله كـ (كل) والدول بمثابة أقسامه؟ إن ذلك أقرب

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص٧٨) عن: B. Croce: Ibid, (p. 69).

(٢) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٧٨، ٧٩) عن:
Atex Book of Marxi Philosophy, Translated by A.C.Mosley, (p.59).

إلى الحقيقة وأكثر اتفاقًا مع فلسفة هيغل؛ لأن (روح العالم) تعرض نفسها في كل أرجاء الأرض وما فيها من سكان، إنها لا تحصر نفسها في حدود بلاد أو دولة ، والعالم كله مسرح لها، فيه البشر جميعًا ممثلون يؤدون أدوارهم وفقًا لرغباتها.

إن هذا التعظيم المفرط للدولة ناتج عن رد فعل شعر به العالم بعد (حركة الإصلاح Reformation). ولقد أدت فكرة الدولة هذه إلى نتائج خطيرة، فقد ألقي في أذهان الناس أن يوالوا ويناصروا الدولة بدون قيد ولا شرط سواء كانت هذه الدولة تمثل العدل أو الظلم.

وفضلًا عن ذلك، فإن هذه الفكرة عن الدولة ولدت أشد الاتجاهات الفاشية فظاعة في العالم. وقد ظهر من يدعي بكبرياء أن أكثر الدول مدنية أشدها عدوانًا « لم يكن ينظر إلى الرجال (يقول نيتشه) على أنهم يليق بهم شيء غير التدريب على الحرب والنساء للترفيه عن المقاتلين، وسوى ذلك كان يعتبر مجرد سخف ».

هذا المذهب الحربي الذي كان وما يزال أحب المذاهب إلى الكثير من بلدان العالم نتج عن نظرية هيغل عن الدولة. فالدولة تعتبر قانونًا بذاتها، « إنها بالنسبة له العقل المطلق الواثق من نفسه الذي لا يعترف بأي سلطة سوى سلطته، والذي لا يقر بأية قواعد مجردة للخير والشر والمخجل والوضيع والاحتيال والخديعة ». وهكذا، فإن اللجوء إلى كل أنواع الوسائل - مهما كانت منافية للأخلاق - يعتبر أمرًا مشروعًا إذا كان من أجل الدولة. إن الفاشية هي الطفل السياسي الذي أنجبته ديالكتيكية هيغل. يقول دوغلاس إينسلي: « إن اعتبار هيغل للحقيقي والعقلي شيئًا واحدًا قد أدى به إلى أن يساند باندفاع عمل الدولة وكل العظماء »[١]. إن موسوليني ليتحدث عمّا في قلب هيغل فيقول: « إن الدولة هي المطلق حين تقارن بكل الأفراد أو الجماعات. إن توسع الأمة عرض جوهري للحيوية، ونقيضه هو علامة التردي والانحطاط ».

إن الأبطال المسؤولين عن توسع الدولة معصومون، وكل ما يقومون به صحيح؛ لذا فلا يجوز لأحد أن ينتقدهم. إن هؤلاء الأبطال يجب أن يقوموا وحدهم بإملاء إرادتهم؛ لأنهم يستطيعون أن يتصوروا حقيقة عصرهم تصورًا صحيحًا. هذه النظرية عن الدولة قد حثت الناس على اتباع أوامر الحكام اتباعًا أعمى وزعزت كيان الأخلاق من أساسه.

* * *

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٨٠، ٨١) عن: Croce: Ibid, (p. 32).

١١ - ثمة ملاحظة أخيرة، وهي أن هيغل قد غضَّ النظر عن بعض من أهم حقائق التاريخ من أجل أن يبرهن على صحة نظريته الديالكتيكية. إن تاريخ العالم الذي وضعه ذو شكل ثلاثي كما تصوره؛ وهو العالم الشرقي والعالم الإغريقي الروماني والعالم الجرماني. وهذه عنده هي الفرضية والنقيض اللذان يصبحان واقعًا محسوسًا لما هو أحسن أو أسوأ في الصيغة. إن الشرق عرف ويعرف أن شخصًا واحدًا فقط حر، والعالم الإغريقي الروماني أن بعض الناس أحرار، والعالم الجرماني أن كل الناس أحرار؛ لذا فشخصية الأول استبدادية والثاني ديمقراطية وارستقراطية، والثالث ملكية. وهذا الاستنتاج قد أراد الوصول إليه لغرض مساندة الحكم الملكي في ألمانيا. ولأجل أن يثبت هذا الثلاثي فإنه بمحض هواه غطى حقائق كثيرة في المكان والزمان ومارس أسلوبًا انتقائيًّا يرفضه المنهج التجريبي العلمي الصحيح [١].

* * *

* *

*

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٨١، ٨٢).

التفسير المادي: ماركس وإنكلز

تكشف لنا مختلف المصادر أن ماركس لم يكن منشئًا التفسير الديالكتيكي للتاريخ، وإنما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه، وصبَّ فلسفته في القالب الذي اقترحه ديالكتيك هيغل.

إن المادية التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النمو في بحث أعده هولباخ (Holbach) وطبع قبل قرن، وهي أيضًا مدينة بالكثير إلى سبينوزا (Spinoza)، وقد أعاد فويرباخ (Feuerbach) تقرير شكل مجدد منها في أيام ماركس نفسه. ويمكن أن ترى النظرة إلى التاريخ الإنساني على أنه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند سانت سيمون (Saint Simon) وقد اعتنقها إلى حد بعيد مؤرخون فرنسيون من معاصريه؛ مثل تيري (Thierry) ومكنيه (Mignet) وكذلك المؤرخ المحافظ كيزو (Guizot).

أما النظرية العلمية لحتمية حدوث الأزمات الاقتصادية حدوثًا منتظمًا فربما كان أول من وضعها سيسموندي (Sismondi)، وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة (Fourth Estate) فقد اتخذها دون ريب أوائل الشيوعيين ودعا إليها في ألمانيا في أيام ماركس كل من فون شاتن (Von Stein) وهيس (Hess). وأما التسلط المطلق للطبقة العاملة (دكتاتورية البروليا ريا) فقد وضع بابويف (Babeuf) خطوطه الكبرى بشكل ظلال، وذلك في آخر عقود القرن الثامن عشر. ووضع هذه الفكرة بشكل واضح في القرن التاسع عشر وبأشكال مختلفة كل من فايتلنغ (Weitling) وبلانكي (Blanqui). وقد زاد في إيضاح المركز الحاضر والمستقبل للعمال وأهميتهم في الدولة الصناعية لوي بلون(Louis Blanc) واشتراكيو الدولة الفرنسيون بشكل أكثر تكاملًا مما يوافق ماركس على إقراره.

وأما نظرية القيمة المبنية على العمل فتستمد من لوك (Locke) وآدم سميث (Adam Smith) والاقتصاديين القدامى المحافظين (الكلاسيكيين). ونظرية الاستغلال وقيمة الفائض (Theory of Exploitation and Surplus Value) ومعالجتها بسيطرة الدولة سيطرة مباشرة يمكن أن ترى لدى كل من فورييه (Fourier) وفي كتابات الاشتراكيين الأوائل؛ مثل بري(Bray) وتومبسن (Thompson) وهو لجسكن (Hologskin) [1].

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ، هامش (١) (ص ٨٧، ٨٨) عن:
Isalin :Karl Marx and His Life Envirenment, (pp.14 , 15).

ونستطيع أن نضيف هنا إلى أن محاولات عديدة أخرى قد نسقت في إطار فكري أو نفذت عبر تجربة عملية، شهدها تاريخ الشرق، قبل قرون عديدة لمعطيات هؤلاء، نكتفي منها بالإشارة إلى حركات : مزدك، وبابك الخرّمي، والقرامطة(١).

غير أن ماركس ورفيقه إنكلز وجدا أن هيغل (واقف على رأسه) لذا فقد عدلا - كما اعتقدا - وقفته وأقاماه على رجليه. وبينما نجد أن هيغل أصر على أن كل ما يحصل من تغيير في العالم المادي الحقيقي إنما هو مجرد انعكاس لا إرادي لتقدم وتطور (روح العالم) نجد ماركس قد أكد حقيقة العالم الخارجي، وبين أن المثل العليا والأفكار عند بني الإنسان إنما هي نفسها نتاج البيئة الاقتصادية المادية وما يحصل فيها من تغير؛ لذا فليس لها وجود مستقل خاص بها، وأن صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كما ادعى هيغل، وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الاقتصادي للمجتمع من تغير(٢).

وقد رأى ماركس كثيرًا من الأخطاء في نظام هيغل، كما بين ماركس نفسه في فقرة مشهورة من مقدمته للجزء الأول من كتاب (رأس المال)؛ إذ قال : « أن أسلوبي الديالكتيكي ليس مجرد أسلوب مخالف لأسلوب هيغل وإنما هو عكسه تمامًا؛ لأن عملية التفكير عند هيغل هي خالقة العالم الحقيقي، والعالم الحقيقي ليس إلّا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة، أما أنا فأرى أن الفكرة ما هي إلّا العالم المادي بعد أن يعكسه ذهن الإنسان ويصوغه في شكل أفكار ». ويقول في رسالة إلى كوكلمان (Kugelmann) عام (١٨٦٨م): إن ديالكتيكية هيغل هي الشكل الأساسي للديالكتيكيات ولكن تجريدها

---

(١) يجب أن نلاحظ أنه ليس المهم - على المستويين العلمي والاجتماعي - هو تنسيق الأفكار، إنما مدى نجاحها تاريخيًّا واجتماعيًّا.. ومدى قدرتها على إحداث تواؤم وتوازن في حياة المجتمعات البشرية يمكنها من أن تحظى بأكبر قدر من السعادة والقدرة على الإنجاز والتطور الحضاري. وهذا هو ما يميز الإسلام، في هذا الجانب بالذات، عن سائر المحاولات الوضعية التي أخفقت أو التي في طريقها إلى الإخفاق، والارتداد صوب وضعية أكثر انسجامًا وملاءمة، وليست محاولات التأكد - ثانية - على الحافز الفردي في (الاتحاد السوفياتي)، متمثلة بتفاوت الأجور وتنظيم الادخار الفردي، وتنفيذ نظام الميراث.. إلّا بدايات فحسب، ستعقبها ولا ريب، محاولات أخرى على نفس الطريق.. كما أن التحليلات التي يطرحها المفكر الفرنسي (روجيه، غارودي) وتلامذته على مستوى التمايز القومي أو الحضاري بين الشعوب وضرورة عدم تجاهله في التعامل مع (الماركسية) تقدم لنا محاولة أخرى، على مستوى آخر؛ لإرغام الماركسية، كنسق فكري نظري بحت، على أن تتلاءم مع الواقع البشري أكثر فأكثر.

(٢) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٨٨، ٨٩).

من شكلها المبهم (Mystical Form) هو بالضبط الشيء الذي يميز أسلوبي[١].

ويزيد إنكلز المسألة إيضاحًا فيقول: « لم يقتصر الأمر على طرح هيغل جانبًا؛ بل بالعكس لقد بدؤوا من الجانب الثوري من فلسفته، أي بدؤوا بالطريقة الديالكتيكية. ولكن ما كان في الإمكان استخدام هذه الطريقة. إن الديالكتيك عند هيغل عبارة عن التطور الذاتي للفكرة، فالفكرة المطلقة ليست موجودة فحسب منذ الأزل - وإن كنا لا نعرف أين توجد - بل إنها الروح الحية الفعلية للعالم الموجود بأسره وهي تتطور لتبلغ ذاتها خلال كافة المراحل الأولية التي يعالجها هيغل بإسهاب في كتابه (المنطق). وعلى ذلك يرى هيغل أن الحركة الديالكتيكية الظاهرة في الطبيعة والتاريخ - وبعبارة أخرى العلاقة المتداخلة العلية في حركة التقدم من الأدنى إلى الأعلى وهي العلاقة التي تبدو خلال كافة الحركات الحلزونية ونواحي التوقف المؤقتة - نقول: إن هذه الحركة الديالكتيكية ليست إلّا صورة أو نسخة تعسة للحركة الذاتية التي تقوم بها الفكرة منذ الأزل ومستقلة عن أي مخ إنساني مفكر وإن كنا لا نعرف أين توجد.

« كان لا بد من القضاء على هذه المذهبية المقلوبة الوضع. عدنا من جديد إلى إدراك الأفكار في رؤوسنا وفق النظرية المادية أي على اعتبار أن هذه الأفكار صورة تعكس الأشياء الحقيقية، وهذا يخالف الاتجاه الآخر الذي ينظر إلى الأشياء الحقيقية على أنها صورة تمثل هذه المرحلة أو تلك من مراحل نمو الفكرة المطلقة. وهكذا هبط الديالكتيك إلى عالم يعالج القوانين العامة عن الحركة في العالم الخارجي والفكر الإنساني، وكلاهما مجموعتان من القوانين متماثلة من حيث الجوهر ولكنها تختلف في تعبيرها بقدر ما يستطيع العقل الإنساني تطبيقها عن وعي وبطريقة شعورية، بينما في الطبيعة، وفي الغالب حتى الآن في التاريخ الإنساني، نجد أن هذه القوانين تثبت ذاتها بطريقة لا شعورية على شكل ضرورة خارجية في وسط سلسلة لا نهاية لها من الأعراض (Accidents) الظاهرية. وهكذا أصبح ديالكتيك الفكرة ذاتها هو مجرد انعكاس الوعي لحركة العالم الحقيقي الديالكتيكية، وهكذا وضع ديالكتيك هيغل على قدميه بعد أن كان واقفًا من قبل على رأسه .. »[٢].

يبدأ ماركس في (رأس المال) بأن يسأل هذا السؤال: ما هو المبدأ الذي يحكم كل

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٨٨، ٨٩).

(٢) فريدريك إنكلز: التفسير الاشتراكي للتاريخ (مختارات) (ص ٦٤، ٦٥).

العلاقات بين البشر؟ ويجيب على ذلك بأنه الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه، وهو إنتاج الوسائل التي يديمون بها حياتهم، وبعد الإنتاج تبادل الأشياء التي أنتجوها، فإن على الإنسان أن يعيش ثم يستطيع أن يبدأ بالتفكير؛ لذا فإن الأمر النهائي الذي يقرر التغير الاجتماعي يمكن أن يوجد لا في أفكار الإنسان عن الحقيقة الأبدية والعدالة الاجتماعية، وإنما فيما يحصل من تغير في أسلوب الإنتاج والتبادل.

إن الماركسية تطرح الفروض الرئيسية التالية:

أولًا: يدخل الناس، في غمرة الإنتاج الاقتصادي الاجتماعي، في علاقات معينة ويضطرون - دون إرادتهم - إلى أن يكونوا ظروفًا معينة. وإن ظروف الإنتاج هذه تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى المادية.

ثانيًا: إن ظروف الإنتاج - إذا أخذت ككل - تكون الكيان الاقتصادي للمجتمع، وهذه هي القاعدة المادية التي يقام عليها بنيان القوانين والأنظمة السياسية، والتي إليها يرجع بعض أشكال الوعي السياسي.

ثالثًا: ليس وعي الإنسان هو الذي يعين أشكال الوجود؛ بل إن أشكال الحياة الاقتصادية والاجتماعية هي التي تعين الوعي.

رابعًا: بعد أن تبلغ قوى الإنتاج المادية مرحلة معينة من التطور تصطدم مع ظروف الإنتاج الموجودة، أي مع نظام الإنتاج الذي تعمل في ظله.

خامسًا: إن تاريخ المجتمع منذ أن وجد حتى الآن هو تاريخ صراع طبقات كانت تقف موقف المعارضة الدائمة لبعضها، وتقوم بحرب لا انقطاع لها، تختفي عن الأنظار حينًا وتظهر حينًا آخر. حرب كانت تنتهي إما بإعادة بناء المجتمع كليًّا بشكل أساسي، أو بتدمير الطبقات المتصارعة جميعًا. وبتطبيق هذا الأسلوب في البحث نرى أن التاريخ يدل على أن تطور المجتمع الإنساني سار في نظام المشاعية البدائية، أو الجماعية، إلى نظام الطبقات متمثلًا في انقسام المجتمع إلى سادة وعبيد في العصور القديمة، وإلى سادة إقطاعيين وأقنان (Serfs) في العصر الإقطاعي، ورأسماليين وعمال إجراء في العصر الحديث، وأن هذا التطور يتجه، بفعل القوانين التي تتحكم فيه، إلى نظام جديد تزول فيه المصالح الاقتصادية المتضاربة، أي علاقات الجماعات بقوى الإنتاج[1].

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٨٩، ٩٠)، فريدريك إنكلز: التفسير الاشتراكي للتاريخ (ص١٧، ١٨) =

يقول إنكلز، مؤكدًا اعتبار التغير في وسائل الإنتاج ، هو القاعدة التي تقوم عليها سائر التغيرات « مثلما اكتشف دارون قانون التطور في الطبيعة العضوية، اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشر. لقد اكتشف الحقيقة البسيطة التي ظلت حتى الآن مغطاة بالنمو الزائد الذي نمته العقائد. وهذه الحقيقة أن الإنسان يجب أولًا أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكنًا ولباسًا، قبل أن يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم أو فن وما سواها؛ لذا فإن إنتاج وسائل المعيشة المادية، ونتيجة لذلك درجة التطور الاقتصادي التي يحصل عليها بعض الناس وفي حقبة معينة، كلاهما يكونان الأساس الذي تنمو عليه الدولة والأنظمة والأفكار القانونية والفن، وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء الناس، والذي في ضوئه يجب أن تفسر هذه الأشياء لا أن يفسر هو في ضوء هذه الأشياء كما كان يحصل حتى الآن »[1].

وفي المقدمة التي صدر بها ماركس كتابه (نقد للاقتصاد السياسي) نلتقي بتركيز شامل للعلاقات الأساسية بين (الإنتاج) وبين الحركة التاريخية، فهو يقول: « في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها، وهي مستقلة عن إرادتهم. وعلاقات الإنتاج هنا تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية في الإنتاج، والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية، والتي تطابقها أشكال محدودة من الشعور الاجتماعي. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والروحية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم؛ بل إن وجودهم هو الذي يعين شعورهم، وعند بلوغ مرحلة معينة من تطور قوى الإنتاج المادية في المجتمع نراها تصطدم مع علاقات الإنتاج القائمة أو علاقات الملكية بالتعبير القانوني، وبذا تتحول هذه العلاقات إلى أغلال تُقيِّد تطور قوى الإنتاج، وهنا تبدأ فترة انقلاب اجتماعي، وبتغير الأساس الاقتصادي يتحول الصرح العلوي الهائل بأسره، وذلك بدرجات متفاوتة في السرعة وفي بحث أمثال هذه التغييرات يجب دائمًا التمييز بين التغير المادي في أحوال الإنتاج الاقتصادي التي يمكن تحديدها

= (من مقدمة المترجم).

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٩٠، ٩١) عن:
Karl Marx: Selected works Vol. I. (P.12).

وتعيينها بالدقة التي يتميز بها العلم الطبيعي، وبين الأشكال المذهبية - سياسية ودينية وفلسفية - وهي التي يصبح الناس فيها على وعي وشعور بهذا الصراع ويتقاتلون من أجله، وكما أن رأينا عن شخص لا يرتكز على رأيه عن نفسه، كذلك لا نستطيع الحكم على فترة تحول كهذه بطريق ما تتميز به من وعي؛ إذ بالعكس يجب بالأحرى تفسير هذا الشعور عن طريق المتناقضات التي في الحياة المادية، وعن طريق الصراع القائم بين قوى الإنتاج الاجتماعية وعلاقات الإنتاج. لا يزول أي نظام اجتماعي أبدًا قبل أن تنمو كافة القوى الإنتاجية التي يكون لها فيه مجال النمو، و لا تظهر علاقات إنتاج أعلى مرتبة عن سابقتها قبل أن تنضج في طيات المجتمع القديم الأحوال المادية اللازمة لوجود هذه العلاقات، وعلى ذلك، فالمجتمع يجعل دائمًا لنفسه من المشكلات ما يستطيع حله، ولو أمعنَّا النظر في الأمر وجدنا أن هذه المشكلة لا تنشأ إلّا إذا كانت الأحوال المادية اللازمة لحلها متوافرة أو على الأقل في طريق التكوين.. »[١].

وفي رسالة بعث بها ماركس إلى ف. إنتكوف (في كانون الأول عام ١٨٤٦م) يؤكد مسألة استبعاد الحرية الإنسانية في صياغة واختيار (القوى الإنتاجية) التي هي أساس الأبنية التاريخية والحضارية «.. ما المجتمع أيًّا كان شكله ؟ إنه وليد النشاط المتبادل الذي يقوم به الناس. وهل لهم حرية اختيار هذا الشكل أو ذلك من المجتمع لأنفسهم؟ لا، بكل تأكيد. إذا فرضت وجود حالة معينة من التطور في القوى الإنتاجية، كان لديك شكل معين من أشكال التجارة والاستهلاك، يطابقه نظام اجتماعي وتنظيم للأسرة والطبقات، وبعبارة موجزة: كان لديك مجتمع مدني يتفق وهذا الشكل. افترض قيام مجتمع مدني معين، فهنا تجد أحوالًا سياسية معينة إن هي إلّا التعبير الرسمي عن المجتمع المدني، ومن العبث أن نضيف أن الناس غير أحرار في اختيار قواهم الإنتاجية، وهي الأساس الذي يقوم عليه تأريخهم كله؛ لأن كل قوة إنتاجية قوة مكتسبة أي هي ثمرة فعل ونشاط سابق.. »[٢].

النقد

ويمكن - بعد ذلك - أن نتلمس بعض ما وجه إلى التفسير المادي للتاريخ، من نقد بإيجاز تام وحسبما يتيح المجال:

---

(١) فريدريك إنكلز: التفسير الاشتراكي للتاريخ (ص ١١٩، ١٢٠).
(٢) المرجع السابق (ص ١٢٠، ١٢١).

١ - ظهر ماركس في أفق العالم في عصر كان ينظر فيه إلى الثروة المادية وامتلاكها على أنها الهدف الوحيد في الحياة، فقد كانت المسيحية تكاد تكون قد استنفذت ما فيها من قوة، وكانت القوة الهائلة والسيطرة على الموارد المادية التي وضعها التقدم العلمي تحت تصرف الإنسان قد جعلتاه يفكر أنه لا يوجد شيء وراء المادة. وكان ينظر حتى إلى غرائز الإنسان ومشاعره وعواطفه وضميره على أنها منتجات ثانوية لها. ولم يكن من اختلاف جوهري بين الإنسان والحيوان غير أن الإنسان يستطيع أن يتكلم والحيوان لا يستطيع، والأول قد نتج عن الثاني بعملية التطور. وحياة الإنسان خاضعة تمامًا لقوانين العالم المادي التي لا سبيل إلى تغييرها.

* * *

هذا التغير في النظرة بعيد المدى من حيث نتائجه، فوجه الذم بصراحة إلى كل الفلسفات التي كانت تتحدث عن الإنسان على أنه صاحب (إرادة حرة). وأصبحت أساليب التفكير ذات القوانين الدقيقة التي تشبه قوانين العلوم الطبيعية التي تحكم الظواهر الطبيعية مقبولة لدى الناس، وأبعدت أفكار الأخلاق والضمير إلى خلف؛ حيث لا سبيل إلى رؤيتها. ولم يكن من الظواهر ما يستحق الاهتمام إلّا ما كان ظاهرًا للحواس[1]. إن فكر ماركس هو انعكاس لعصره. والأفكار - كما يؤكد هو في نظريته - إنما هي انعكاس الواقع الموضوعي على الدماغ البشري !!.

* * *

٢ - لقد أغرى ماركس بفكرته المادية تلك ما كان للعلوم الطبيعية من بريق خارجي. ولما كان هو نفسه يتصور أن الإنسان مجرد آلة، فقد حاول أن يصوغ القوانين الاجتماعية على غرار القوانين الطبيعية، ولا شك أنه من أجل بلوغ هذه الغاية حرف الحقائق. ولقد كان في ذهنه هدف واحد فوق كل شيء، وهو أن يبرهن بطريقة ما على أن أسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الطابع العام لطرق الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية. إن (إنسانه) مجرد تمامًا من حرية الإرادة، والباعث الوحيد لأعماله هو الحصول على وسائل الراحة المادية. وأن الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التي عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية. وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامل

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٩١، ٩٢).

في البناء القائم عليها؛ لذا فإن وسائل الإنتاج هي الحكم الفصل الحقيقي الذي يقرر مصير البشر. والنتيجة الطبيعية لهذا أننا سنكون ملزمين بأن نقر بأن (الجماعة) وحدها هي الحقيقة، وأن الوجود المستقل للأفراد هو مجرد وَهْم[١].

* * *

٣ - إن الرابط بين التغير الاجتماعي وعملية التطور الاقتصادي أقل بكثير تأثيرًا وبساطة وكفاية مما يقره علم النفس الماركسي الذي يفتقر إلى الكفاءة، والذي ربما هو الضعف القتال للحتمية كلها. فقد أكد ماركس أن الإنسان يستجيب للتغيرات التي تدخل في نظام الإنتاج ... أما كيف تدخل فهو لا يقول لنا؛ لأنه يتكلم كما لو كان الأسلوب الفني المتغير في الإنتاج هو نفسه يوضح نفسه، وهو السبب الأول في صيرورة هي - ببساطة - محتومة. إنه يتجاهل تعقيدات التعود من جهة والنفور من جهة أخرى. إنه يبسط النظرات التي تتجمع حول الأنظمة فالتماسك والإخلاص بالنسبة للعائلة، والمهنة، والأمة، كلها خاضعة للطبيعة الاقتصادية. إن الحل الذي استهدفته هذه المحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جدًّا[٢].

* * *

٤ - ولنا أن نتساءل ما هي قوى الإنتاج ؟ كيف تأتي إلى هذا الوجود ؟ أهي حقًّا العوامل الأولية في تطور الإنسان؟ « إن قوى الإنتاج هي القوى التي يستخدمها الإنسان في الإنتاج الاقتصادي من صفات الخصب في التربة، والخواص التي تتميز بها المعادن، والقوى الآلية والكيمياوية في الطبيعة وحرارة الشمس، وقوة البخار والكهرباء، وكذلك قوى الحيوانات والإنسان نفسه ». ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوى وجدت منذ وقت غير معروف، قبل أن يطلع فجر المدنية بكثير، ومع تقدم الزمن اتسع عقل الإنسان فاكتشف هذه القوى الكامنة في أعماق الطبيعة، وأزاح الحجاب عنها، وسخرها لفائدته. وتاريخ الإنسان حافل بالشواهد على أن ذكاء الإنسان كان العامل الأول في اكتشاف هذه القوى « ولو لم يكن الأمر هكذا، ولو لم تكن هناك حاجة إلى الذكاء لاكتشاف قوى الطبيعة واستخدامها. لأنشأت الأجناس الدنيا مدنيات بنفس السرعة التي تنشئها

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٩٢، ٩٣).

(٢) المرجع السابق (ص ٩٣، ٩٥) عن:

Maciver and Charles Page: Society, (pp. 562 - 563).

بها الأجناس العليا. ملايين الأغصان نمت على الأشجار، أو كانت ممددة على الأرض، يمكن أن تقوم بعمل العتلات، أو تكون سياجات، وكانت هناك أحجار حادة كثيرة يمكن أن تستخدم كسكاكين أو فؤوس، والبخار ظل يرفع غطاء إبريق الشاي مائة ألف مرة، ومع ذلك لم يصبح الاكتشاف ممكنًا حتى جاء رجل ذو ذكاء كافٍ وعزم على أن يستفيد من الغصن أو الحجر، ورجل موهوب رأى أن البخار الذي كان يرفع غطاء إبريق الشاي يمكن أن يفيد في أغراض أعظم بكثير »[1].

* * *

٥ - وإذا كان أسلوب الإنتاج هو العامل الحاسم في حياة الفرد أو المجتمع، وجب أن يتصرف الأشخاص أو المجتمعات التي تواجه نفس النوع من المشاكل الاجتماعية، وفق نفس الأسلوب: ولكن الذي يحدث في كثير من الأحيان هو عكس هذا. فعلى سبيل المثال، كانت ولايات الإغريق (في الفترة الواقعة بين السنة ٧٣٣ و٣٢٥ ق. م) تجابه مشكلة زيادة السكان، فحين ازداد ضغط هذه المشكلة زيادة بالغة قامت الولايات المختلفة بحلها حلولًا مختلفة « فبعضها مثل كورنثوس (Corinth) وخالكيس (Chalcis) تخلصت من زيادة السكان بأن اغتصبت واستعمرت أقاليم زراعية في الخارج وراء البحر، في صقلية وجنوب إيطاليا وتراقيا وأماكن أخرى. ولما كانت هذه المستعمرات الإغريقية قد أنشئت بهذا الشكل، فقد وسعت البقعة الجغرافية للمجتمع اليوناني دون أن تغير شخصيته، ولكن ولايات أخرى اتخذت حلولًا نتج عنها تغيير في طريقة حياتها. فسبارطة أوجدت لأبنائها الأرض بأن هاجمت أقرب جيرانها من الإغريق واحتلت أراضيهم، وكانت النتيجة أن حصلت سبارطة على ما كانت تريده من الأراضي الجديدة، ولكن ثمن ذلك كان حروبًا متكررة لا تنتهي مع شعوب مجاورة. ولأجل معالجة هذا الموقف اضطر رجال الحكم في اسبارطة إلى أن يجعلوا حياة سبارطة حياة عسكرية من رأسها إلى قدمها، وذلك بإعادة القوة إلى أنظمة اجتماعية بدائية مألوفة عند

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٩٣ - ٩٥) عن:

karl Federn: The Materialist Conception of History, (pp. 8 - 10).

إننا يجب أن نلاحظ أن دور رجلين كواط وإديسون في تغيير القوى المادية يدلنا على موقف معاكس تمامًا للمنطوق الماركسي؛ موقف لا يقوم على الدافع المادي الخارجي والضرورات الاقتصادية قدر ما يقوم على الدافع الإبداعي الباطني وضرورات الكشف والابتكار والتطور العلمي، وهي مسائل ألصق بالمطامح الروحية منها بالتأثير المادي الخارجي.

عدد من المجتمعات الإغريقية، واستخدامها، وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه هذه الأنظمة في إسبارطة وغيرها على وشك الزوال.

« أما أثينا فقد عالجت مشكلة السكان بطريقة أخرى، فقد وقفت إنتاجها الزراعي للتصدير وبدأت الإنتاج ثم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطي حصة عادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التي أوجدها هذا التجديد الاقتصادي، وبتعبير آخر تفادي رجال الحكم في أثينا من ثورة اجتماعية بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية. وإذ اكتشفوا هذا الحل للمشكلة العامة بمقدار ما كان لها من أثر عليهم هم أنفسهم، فإنهم فتحوا مصادفة طريقًا جديدًا لتقدم المجتمع اليوناني كله »[1]. ووفق هذا التحليل نستطيع أن نضع أيدينا على حشد هائل من الأمثلة التاريخية على تنوع (ردود الأفعال) إزاء تحديات الأوضاع المادية.

* * *

٦ - يقول بروفيسور أليكساندر غري « هنالك حقيقة لا ينكرها إلّا القليلون، وهي أن التاريخ، إذا أريد له أن يكون شاملًا، يجب أن يسجل في صفحاته كل شيء عن مخزن حفظ الأطعمة في المطبخ، ولكن هنالك أيضًا شيئًا كثيرًا في التاريخ غير العامل الاقتصادي فالإنسان لا يقصر حياته على أن يحبو على بطنه، فهنالك كل أشكال الحماس والولاء والإيحاء والإلهام التي تحفز الإنسان للعمل، والتي هي رغم ذلك غير اقتصادية بتاتًا ولكنها في نفس الوقت تؤثر على الظروف الاقتصادية، وفوق كل ذلك فإن تأثير الذهن على الذهن مع نتائج هذا التأثير البعيدة، وهو من أعظم أنواع التأثير في العالم، يستعصي على التفسير الاقتصادي. ولو فرضنا أنه يمكن أن نفسر كيف جاء دانتي ومحمد ﷺ وكالفن وماركس ولويد جورج وجورج روبي، حين جاؤوا فعلًا، فستبقى مسألة أكثر صعوبة بكثير، وهي أن نفسر كيف أو لماذا جاؤوا في الأصل؟ ولماذا لم يبقوا في عالم العدم؟ والأمر الذي يزيد على هذا صعوبة هو أن نفسر كيف يجد الرجل العظيم جماعته الذين ينطقون بلسانه والذين قد ينقلون تأثيره هنا وهناك في أجزاء مختلفة من العالم؛ إذ إنَّ كالفن كان يمكن ألّا يجد نوكس (Knox)، وماركس كان يمكن ألا يكون له لينين. إن الأصوب عند تفسير التاريخ أن يتواضع المرء، وربما أن يعتقد بعدم كفاية عقله لإدراك

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٩٦ - ٩٨) عن:
Arnold Toynbee: A Study of History, (p. 4).

الغيبيات، ذلك أنه يدرك أن تاريخ الإنسان إنما تكونه عوامل كثيرة ليس الاقتصاد إلّا عاملًا واحدًا منها ربما لم يكن أكثرها أهمية »[١].

* * *

٧ - إننا نتأثر بالبيئة المادية التي نعيش فيها، إلّا أن فكرنا هو الذي يعلمنا أن نغير هذه البيئة المادية لكي تلائم أغراضنا المختلفة. إن العالم المادي لا يقرر وعينا وإنما وعينا هو الذي يقرر الوجه الذي سنستخدم فيه مواردنا المادية. فكل شيء يجب أن يكون موجودًا في الفكر قبل أن يمكن وجوده في العمل؛ لذا فقوى الإنتاج لا تصنع نفسها وإنما يصنعها عقل الإنسان. فبالرغم من أن الإنسان يتأثر بالحياة المادية المحيطة به لا يمكن اعتباره مجرد عجينة لا شكل لها تصب في قوالب البيئات المادية؛ إذ إنه يستطيع أن يغير بيئته[٢].

* * *

٨ - أن كارل فيدرن يلاحظ ملاحظة بارعة؛ إذ يقول: « إن قوى الإنتاج وظروف الإنتاج تؤثر دائمًا على بعضها ويقرر بعضها بعضًا. كما أن اختراع أسلحة جديدة يؤثر في الحروب ويحدد نتيجتها، والحروب تؤدي دائمًا إلى اختراع أسلحة جديدة وأشكال جديدة من التنظيم العسكري، ومع ذلك فلن يزعم إلّا مخبول أن تطور الأسلحة وتنظيم الجيش هو سبب الحرب والعامل الأساسي في التاريخ العسكري »[٣].

* * *

٩ - ويرفض بروفيسور جي دي إيج كول - الذي يعد من أشد الناس احترامًا لماركس - أن يعترف بالعامل الاقتصادي على أنه العامل الوحيد الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة. فهو يقول في كتابه: (معنى الماركسية): « من السهل أن نتتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التي تبنى عليها أنواع المجتمعات المختلفة، وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية، وأن نرى كيف كيفت الهياكل السياسية والاجتماعية في الماضي وفقًا لتغير الظروف الاقتصادية الأساسية، إلّا أن من الخطر أن نؤكد على هذا إلى حد

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ٩٨، ٩٩) عن:

A.Gray The: Development of Economic Doctrine, (p. 307).

(٢) المرجع السابق (ص ١٠١).

(٣) المرجع السابق (ص ١٠١، ١٠٢) عن: K. Federn: Op. Cit., (p. 23).

مفرط في البعد. وليست الحال قط أن المجتمعات التي في مستوى واحد من ناحية أسلوب الإنتاج يجب أن يكون لها حتمًا نفس الأنظمة أو نفس الأشكال الاجتماعية للعائلة والعلاقات الجماعية والمنظمات السياسية والدينية، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق. فلقد أظهرت بحوث علم الإنسان (Anthropology) أشكالًا حضارية مختلفة جدًّا لا يمكن قط أن تفسر تفسيرًا اقتصاديًّا محضًا. إن أقصى ما يثبته هذا التشابه الذي تبين لنا وجوده إنما هو مجرد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية - لا أنها تتعين بها وحدها - إن الأساس الاقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة، حتى ولو كان أهم عامل »[1].

* * *

١٠ - لقد قام ماركس كما فعل هيغل وشبنغلر؛ لكي يجعل نظريته تبدو مستساغة، بتحريف كثير من الحقائق. وتجاهل بعض الحوادث المهمة في التاريخ التي لم تساند ما ذهب إليه، ولأجل أن يثبت أن نظرياته صحيحة استخدم الحوادث التي وقعت في (الأغوار البعيدة من الزمن) مما لا يمكن التحدث عنه بشكل أكيد، وما يمكن أن يفسره المرء بسهولة أي تفسير يشاء، ثم إنه يصعب، بل يستحيل الوصول إلى أية حقيقة على أساس هذه الحوادث التي وقعت قبل التاريخ، فهي مغطاة بحجاب كثيف من الزمن، ولكن ماركس وإنكلز بنيا (جلّ) بحوثهما عليها، فانتخبا مقدارًا لا بأس به من دراسات مورغان (Morgan) عن قبائل إروكوي (Studies of Iroquis)، وكتاب جورج لودفيغ فون ما ورد: (Work on the Municipal and Agrarian Customs of the Ancint Germans) عن العادات البلدية وعادات الأراضي الزراعية عند قدامى الألمان. وهذان الكتابان يبحثان كيف كانت الحال في عهد ما قبل التاريخ، إن فيهما مما يدعو إلى التفكير أشياء أكثر من مجرد الحقائق الجامدة، فكل شيء غامض ومغطى بالضباب؛ فالمرء يستطيع أن يثبت أي شيء ويبرهن على شيء بواسطة المادة المعطاة فيهما، فهي يمكن أن تحرف بسهولة لأجل الوصول إلى نتائج كانت في الذهن بادئ الأمر.

وها نحن نأتي بمثال واحد بهذا الصدد، مقتبس مما كتبه كيونو (Cunow) وهو

---

(١) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص ١٠٣، ١٠٤) عن:
P. G. D. H. Cole: The Meaning of Marxism (p. 57).

مفسر مشهور لنظرية ماركس، إنه يقول: « إن القبائل الرحل التي تعيش على الصيد تنظر إلى المرأة نظرة احتقار؛ لأن المرأة لا فائدة منها في الصيد وتربية الماشية وغير لائقة بدنيًّا للقتال الذي تكون هذه الشعوب المقاتلة مشتبكة فيه دائمًا، ولكن لما أخذ الشعب بالزراعة، وأصبحت هذه عملًا مهمًّا في المجتمع، ارتفع مركز المرأة أيضًا في ميزان التقدير، فأخذ الرجال ينظرون إليها باحترام وتقدير. إن السبب الأساسي لهذا التغير الجذري سبب اقتصادي صرف، فبما أن المرأة أصبحت ذات فائدة للناس في نواحٍ عديدة في غرس الأشجار والبذور وجني الثمار مثلًا. ارتفعت مكانتها ».

إننا - **أولًا** - لا يمكننا أن نجزم بأن المرأة كانت تحتقر عند كل قبائل العالم. ففي الهند كانت المرأة موضع احترام كبير. **ثانيًا**، إن بين ما هو مسجل لدينا أن شعوبًا عديدة كانت، رغم كونها زراعية، لا تحترم نساءها. وعند الرومان، وكذلك عند قدامى الألمان، كان مركزها القانوني، على الأقل، مركز العبد[1]. ويستنتج مما قرره (كيونو) إنه بما أن المرأة مفيدة في الزراعة فهي تحظى بالاحترام، أي أن الاحترام هو لعملها، ولكن ما أشد خطأ هذه النتيجة !! لقد أصاب كارل فيدرن حين قال: « وحتى لو صرفنا النظر عن كل هذه الحقائق التي تثبت عكس ذلك، فإن مجرد هذه الفكرة (إنه بما أن المرأة قد عملت في الحقول، فيجب أن تكون قد نالت الاحترام وأعطيت مركزًا قياديًّا في المجتمع ».

فكرة غريبة مضحكة، فمتى وأين سجل التاريخ أن العمل وحده قد قاد إلى مركز كريم، وإلى القوة والسلطة؟ وحتى في وقتنا هذا فإن الكرامة والشرف اللذين يعطيان له محدودان جدًّا، فهما موجودان بصورة عامة في الكلمات أكثر من الحقيقة. ففي كل الأوقات كان العمل يفرض على المرأة، وعلى الضعفاء ومن لا أهمية لهم، لقد كان العمل مفيدًا للغاية، ولكنه لم يكن شيئًا مكرمًا، بل كان المكرمون هم الأقوياء الذين كانوا يسرقون البضائع التي ينتجها العمال. إن الماركسيين يعلمون هذا حق العلم، بل إنهم ليؤكدوا عليه تأكيدًا شديدًا، فكيف إذن يستطيعون أن يزعموا أن العمل الزراعي الذي قامت به المرأة جعلها تنال السلطة والقوة؟ إنهم لا يستطيعون أن يقروا الأمرين. إن جمهرة النساء لم تتحسن أحوالهن لمجرد أن العالم خرج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة، إنما تحسن وضعهن بالحركات الدينية (والسياسية) التي قادها الأنبياء عليهم السلام (والزعماء رجالًا ونساء) في الفترات المختلفة من تاريخ البشر »[2].

---

(١) انظر: K. Federn: Op. Cit., (p. 54).

(٢) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص١٠٦ - ١٠٨).

١١ - يقول إنكلز في كتابه (ضد دهرنك): « ليس الدين سوى انعكاس خيالي وهمي في أذهان الناس من القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية، وهو انعكاس تتخذ فيه قوى هذا العالم شكل قوى فوق الطبيعة »[١].

ولكن إذا كانت أساليب الإنتاج تعتبر حقًّا القواعد الحقيقية التي تقرر كل البنيان الذي يشاد عليها، والدين جزء من هذا البنيان، فسنضطر إلى أن نصل إلى أن أسلوب الإنتاج نفسه يجب أن ينتج النوع نفسه من الحركات الروحية، ونفس النوع من الأنظمة، ولكن الأمور في العالم تختلف تمامًا. فنحن نجد أن مائة دين ودين تعيش كلها متجاورة في نفس الظروف الاقتصادية. فإذا كان الدين مجرد انعكاس للظروف المادية التي يعيش فيها الناس فلا مجال لأكثر من دين واحد في وقت واحد، ولكننا نجد أن الإسلام والمسيحية والهندوكية، وعشرات الأديان الأخرى تسيطر على عقول ناس يعيشون في نفس الظروف الاقتصادية. لقد عاش الهندوس والمسلمون في نفس الظروف الاقتصادية، ونفس النوع من أساليب الإنتاج، مئات السنين، ولكن هذه القوى، رغم كل قوتها أخفقت في أن تصهر هذه الطوائف في كتلة واحدة، فهم اليوم يختلفون اختلافًا كبيرًا في الدين، كما كانوا يختلفون قبل آلاف السنين[٢].

* * *

١٢ - ونحن إذا فرضنا - طبقًا للتفسير المادي - أن الأخلاق في عصر معين هي مجرد انعكاس لأسلوب الإنتاج الذي يعيش فيه جماعة الناس، نتج عن ذلك أن الأخلاق في كل حقبة تاريخية تالية، لا بد أن تكون - حتمًا - أسمى من أخلاق العصر الذي سبقها؛ لأننا قد علمنا من ماركس أن النظام الاقتصادي الذي يوجد في حقبة معينة من التاريخ يحل محلّه دائمًا نظام أرفع؛ لأن قوى الإنتاج الجديدة المتولّدة فيه قد نجحت في هدمه. وبما أن النظام الاقتصادي الجديد الناشئ من القديم هو بصورة عامة تقدمي، ويصور درجة أرفع من العدالة الاجتماعية، فمن الواضح أنه يجب أن يأتي معه بأخلاق أسمى. ولو كان التاريخ سجلًا لتقدم مستمر من جميع نواحيه لكان هذا حسنًا، ولكنه بنفس المقدار سجل لفساد وانحطاط. ورغم الخطوات الواسعة الهائلة التي استطاع الإنسان الحديث أن يخطوها من ناحية تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية،

---

(١) F. Engels: Anti - Duhring, (p. 353).

(٢) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص١١٠، ١١١).

ورغم التقدم الذي يحرزه العلم في كل يوم، في شكل اختراعات لا تخطر في الخيال، فإن (الإنسان) ليس بخير أبدًا من ناحية الأخلاق[١]. إننا - من أجل تجاوز هذا الخطأ في مسألة التقدم البشري - يجب أن نفرق بين تقدم الفن الآلي والتقدم الأخلاقي، بين المدنية والحضارة[٢].

* * *

١٣ - هنالك أيضًا ناحية مهمة أخرى في النظرة المادية للتاريخ التي جاء بها ماركس. فهو يعتقد أن أفكار واتجاهات عصر ما إنما هي نتاج مرحلة التطور الاقتصادي التي تم الوصول إليها؛ ولذلك لا يوجد قانون مطلق أو أخلاق مطلقة في هذا العالم، وإنما هذه كلها انعكاسات لأسلوب الإنتاج. ولكن في هذه النظرية تناقضًا خطيرًا، فهو من ناحية لا يرى شيئًا أبديًا، ومن ناحية أخرى يعرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة. وهذا تناقض لم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يزيله. فنحن إذ نعتقد أن فلسفة عصر ما ناتجة عن البيئة المادية له، فهذا ينطبق أيضًا على الماركسية نفسها، فأفكار ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة؛ لأنها هي أيضًا انعكاس للعصر الذي عاش فيه. فلا بد أنه قد كان في ذهنه ظروف المجتمع في ذلك العصر، وكل ما جاء به ربما كان ملائمًا لزمنه هو، ولا يمكن بعد زمانه ذاك أن يكون صالحًا للعصور التي تلته. فمع تغير الزمان لا بد لفلسفته أن تتغير. ولكن لا يوجد ماركسي مستعد لأن يقبل هذا، فهم يعتقدون أن نظراته صحيحة في كل الأزمان : أي أنها قيم دائمة للمجتمع الإنساني لا تتغير[٣].

* * *

١٤ - ترتبط بهذه المسألة حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية، وهي أنه إذا كانت نتيجة التوسع في المجال الآلي في الصناعة والخدمات معًا هي زيادة الثقافة الفنية

---

(١) انظر في هذا المجال بحث ألكسيس كاريل، القيم (الإنسان ذلك المجهول). الذي يحلل فيه التناقض الكبير بين فهم الإنسان للواقع الخارجي المحيط به وبين فهمه لنفسه، وبالتالي بين السيطرة على الطبيعة والسيطرة على الذات البشرية وتوجيهها صوب الخير والحق والسعادة والانسجام. وانظر بحثًا للمؤلف بعنوان (تهافت العلمانية)، وانظر كذلك: Joad: A Guide to the modern wickedness.

(٢) عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ (ص١١٥ - ١٢٠).

(٣) المرجع السابق (ص١٢٢).

لمواطني المجتمع المعاصر التكنولوجي، وبالتالي زيادة عدد الموظفين عن العمال. فإن ذلك ينذر ببدء انتهاء عهد النقابات العمالية، التي جاء تأسيسها عقب الأزمات المتكررة بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال على عهد الثورة الصناعية منذ بداية القرن التاسع عشر. ومعنى ذلك: أن فلسفة (العمل) التي قامت عليها الفلسفة الماركسية، ونظام الحكم الماركسي - اللينيني فيما بعد؛ ستفقد أهميتها في المجتمع المعاصر وستنتهي قيمتها عند انتشار الآلية في الصناعة والخدمات في مجتمعات الغد. والاشتراكية في نظام الحكم التي تعطي السيادة للعمال التقليديين وتعدهم بالحكم في المجتمع. لا يصبح أمرها محتمًا ولا تصبح سيادتها ضربة لازب في المجتمع العالمي، كما ترتأي الماركسية[١].

وقد حلل كاتب ألماني[٢] مدى تأثر العمل بالآلية في الصناعة في المجتمع التكنولوجي المعاصر وتساءل: هل انتشار الآلية سيزيد في البطالة في العمل، أم سيخلق فرصًا أخرى جديدة واسعة، في مجالات الكسب والعمل معًا، تستلزم حتمًا زيادة في عدد الموظفين الفنيين، وإن كانت ستنقص من عدد العمال العضليين؟

فيما يلي ترجمة لبعض ما كتبه الكاتب الألماني: « أنت تقف كعامل بجانب إحدى الآلات الميكانيكية، أو تجلس كموظف على أحد المكاتب، ومكانك في العمل يبدو لك وكأنه مؤكد لا يفارقك. وبجانب ذلك اخترعت آلات أخرى ميكانيكية يمكن أن تعوض ما تقوم به من عمل وهي المحركات الآلية. وهي غالبًا أسرع وأدق في العمل من الإنسان ».

« هل نقف نحن الآن على حافة (بطالة) عن العمل واسعة النطاق ؟ هل ستهدد (الآلية) وجودنا. لا. لا هذا ولا ذاك. إن البحوث التي عملت أوصلت إلى أن البلاد التي توسعت في الآلية ليس لديها إطلاقًا بطالة في العمل، ووصلت في الوقت نفسه إلى مستوى رفيع في المعيشة. أما البلاد الأخرى التي لم تزل تستخدم الطرق التي مضى عليها الزمن في العمل فلديها مقابل ذلك بطالة وانحطاط في مستوى المعيشة ».

« ومن أجل ذلك فمن العبث أن تتحدى الآلية المتقدمة. وعلى كل حال يجب أن نعيش بهذا الوعي وهو: أن المصانع والمكاتب سيستعاض فيها عن القوى البشرية بآلات

---

(١) د. محمد البهي: تهافت الفكر المادي والتاريخي (ص٣١).

(٢) في سلسلة (هنا ما يتعلق بمالك) رقم (٢٥) من قاموس صغير للاقتصاد لـ (G . Loger). نشرته مجلة (Quecki) الألمانية عدد (١٣) لسنة (٢١) في (٢٧) آذار سنة (١٩٦٨م) (ص٣)، المرجع السابق.

ميكانيكية. وللتعويض والتعادل تنشأ صناعات جديدة، فالألياف الصناعية تقام أولًا في البداية، والكيمياء تتطور دائمًا في سرعة، وصناعة الذرة لم تكد تولد بعد، وصناعة المحاسب الإلكتروني، وتقدير المسافات والأوضاع، وتحديد الاتجاهات على وجه التأكيد. تنمو سنويًّا بمعدل عشرة إلى عشرين بالمائة، ومنتجات جديدة للاستعمال تتطور. وفيما عدا ذلك أيضًا تنمو وتتزايد مجالات الاقتصاد التي لا تنتج سلعًا، فالمواصلات والخدمات الطبية والصحية، وتربية الشعب، كلما ارتفع مستوى الرخاء زادت الحاجة إلى القيام بخدماتها ».

« إن عدد العمال انخفض بينما عدد الموظفين زاد. فألمانيا في سنة (١٩٢٥م) كان لديها موظفون تعادل نسبتهم في مجموع القوى العاملة خمسة وعشرين بالمائة. وفي سنة (١٩٥٨م) وصلت هذه النسبة إلى ثمانية وعشرين، وفي سنة (١٩٦٦م) زاد عدد الموظفين فأصبحت نسبتهم واحدًا وأربعين في المائة من مجموع القوى العاملة. وكل من يأخذ عملًا يجب أن يزيد في تثقيف نفسه. والمراكز الكبيرة للصناعة، ومدارس الشعب العالية يقدمون إمكانيات لهذا التثقيف، ومن لم يستغل هذه الإمكانيات اليوم يمكن أن يسيء إلى نفسه في الغد ». ويختم الكاتب مقاله بطرح هذا السؤال « هل نحن مستقبلًا سنتمكن من العيش في رخاء؟ « ثم يرد » لم تعد تجيب على سر هذا السؤال (قوة العضلات) بل الطاقة الذهنية لمن يباشر العمل اليوم »[1].

إن الماركسيين - على ضوء هذه التطورات التي ستزداد في المستقبل كمًّا ونوعًا وبشكل طردي - يبدون وكأنهم قد ربطوا تفكيرهم الفلسفي بأوضاع القرن التاسع عشر الاقتصادية والاجتماعية والعلمية؛ ولذا فإن صلاحية اتجاههم لحلول المشاكل البشرية يقصر عن أن يتجاوز هذه الأوضاع، ويقصر عن أن يمتد إلى القرن العشرين فيعالج مشاكله.

« .. إن ماركس ولينين يعيبان التمسك بالدين ويصفانه بـ (الرجعية) أي الرجوع إلى الخلف والوراء، مع أن صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ولا بمشاكل لا تتكرر؛ إذ هو للطبيعة البشرية بما لها من خصائص أينما وجدت، وفي أي وقت كانت، وهدفه أن يحول دون الانحراف في السلوك سواء في المال أو في العلاقات البشرية. بينما ارتبطت الفلسفة الماركسية بمشاكل اقتصادية معينة وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف

---

(١) د. محمد البهي: تهافت الفكر المادي والتاريخي (ص٣٢ - ٣٤) عن السلسلة المذكورة في الهامش السابق.

خاصة ليس لها طابع الاستمرار، وهي ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التي تبدلت تمامًا في القرن العشرين. أفلا يوصف ذلك الذي ينادي بالماركسية اللينينية، وقد اختلفت الأوضاع والظروف الآن. بأنه رجعي؟ وأنه يريد أن يعيد عجلة القرن العشرين إلى القرن التاسع عشر؟ إن الماركسي (التقدمي) يعيش في صورة الأمس بعد أن حجب عينيه بالتعصب البغيض لاتجاه فلسفي انتهى اعتباره، عن رؤية التغيير الذي يحدد صورة اليوم والذي سيحدد صورة الغد »[١].

* * *

١٥ - تؤكد الماركسية - كما مرّ بنا - على أن تغير أسلوب الإنتاج أي تغير القوى المنتجة وتغير العلاقات يؤدي إلى تغير النظام، إلّا أن الواقع التاريخي لعالمنا المعاصر يثبت غير ذلك، فالقوى المنتجة تغيرت في روسيا وأمريكا معًا، فتغيرت في كل منهما أدوات الإنتاج ومعارف الإنتاج أي الخبرات الفنية، ولكن العلاقات في روسيا فقط تغيرت من علاقات فردية إلى علاقات جماعية، وأما في أمريكا فظلت العلاقات فردية[٢].

ومعروف أن دول أوربا الشرقية لا تختلف عن دول أوربا الغربية من حيث أدوات الإنتاج، ولكن علاقات الإنتاج في دول أوربا الشرقية غيرها في دول أوربا الغربية، والنظام في دول أوربا الشرقية غيره في دول أوربا الغربية. فما الذي جعله يتغير؟ هل تطورت دول أوربا الشرقية من الرأسمالية إلى الاشتراكية، أو على حد تعبيرهم بشكل أدق إلى الديمقراطية الشعبية بتطور أدوات الإنتاج، أم باستيلاء روسيا الشيوعية عليها؟

إن العلاقات بين الناس لا شأن لها بأدوات الإنتاج أو (القوى المنتجة)، فهي تتحسن من حال إلى حال تبعًا لتقدم العلوم والمعارف. وأما العلاقات فتتغير من حال إلى حال تبعًا للأفكار أي تبعًا لوجهة النظر في الحياة.

والمدقق في حال العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الآن يجد أن التقدم العلمي والمخترعات الحديثة قد خطت إلى الأمام خطوات واسعة تفوق جميع الخطوات التي مرت في آلاف السنين، فلو كانت علاقات الإنتاج تتغير وتتطور طبقًا للتغيرات والتطورات في قوى المجتمع المنتجة لكان التاريخ سجل عشرات الأنواع

---

(١) د. محمد البهي: تهافت الفكر المادي والتاريخي (ص٣٤ - ٣٦).

(٢) غانم عبده: نقد الاشتراكية الماركسية (ص١٦٩).

لعلاقات الإنتاج قياسًا على أنه سجل خمسة أنواع أساسية لعلاقات الإنتاج، خلال الفترة السابقة لقيام الحكم الشيوعي لروسيا؛ لأن التغير والتقدم الذي حصل خلال هذه المدة لا يقاس به أي تقدم سابق.

ولكن الواقع أن علاقات الإنتاج، أو بعبارة أخرى: الأنظمة التي تسير عليها العلاقات لم يتغير شيء منها على الإطلاق، فالنظام الاشتراكي ظل في روسيا كما هو، مع أن روسيا انتقلت من دولة لا تملك حتى القنبلة الذرية إلى مركز الدولة الأولى في عالم الفضاء. والنظام الرأسمالي ظل في أمريكا كما هو مع أن أمريكا في الحرب العالمية الثانية، وإن كانت تملك القنبلة الذرية، ولكنها كانت في هذا الشأن وفي عالم الفضاء لا تزال في حالة بدائية. ولكنها انتقلت إلى أن صارت ترسل الرجال يدورون حول الكرة الأرضية وصارت ترسل المركبات للمريخ والزهرة وتحاول اللحاق بروسيا وسبقها[١].

وأما تكذيب التاريخ لقولهم أن العالم انتقل من المشاعية الابتدائية إلى الرق فالنظام الإقطاعي فالرأسمالي فالاشتراكي، فإنه ظاهر في انتقال روسيا التي كانت أقرب إلى الإقطاعية منها إلى الرأسمالية. وتحولها إلى الاشتراكية. وعدم انتقال أوربا الرأسمالية الصناعية من الرأسمالية حتى الآن. وانتقال ألمانيا الشرقية إلى الاشتراكية بمجرد استيلاء الروس عليها وعدم انتقال ألمانيا الغربية من الرأسمالية مع أنهما بلد واحد، وهي، أي ألمانيا كلها، بلد رأسمالي صناعي. الأمر الذي يؤكد أنه لا علاقة بين تغير أدوات الإنتاج وتحسنها، وتغير معارف الإنتاج وتقدمها، وبين علاقات الإنتاج[٢].

هذا إلى أن تأسيس الصناعات الكبرى - كصيغة من صيغ التبدل التاريخي لوسائل الإنتاج، خارج نطاق الوعي البشري - لا ينتج عنه، بالضرورة، كما ترى الماركسية، تجميع العمال والفلاحين معًا والقيام بثورة اشتراكية، بدليل أن هذه الصناعات الكبرى قد قامت في أوربا وأمريكا قبل روسيا، ومع ذلك لم ينتج عنها تجميع العمال والفلاحين، وبالتالي لم ينتج عنها ثورة اشتراكية، ولا نتج تحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وأما ما حصل في روسيا من ثورة فليس ناتجًا عن الصناعات الكبرى، ولا علاقة للصناعات الكبرى بتلك الثورة ولا بإيجاد الاشتراكية في روسيا، وبهذا كله يظهر أن قولهم أن تحول القوى المنتجة، وتحول أدوات الإنتاج يحصل في النظام القديم ويبرز بصورة مستقلة

(١) غانم عبده: نقد الاشتراكية الماركسية (ص١١٨ - ١٩٠).
(٢) المرجع السابق (ص١٩٠، ١٩١).

عن وعي الناس ولكن تحسينهم للقوى المنتجة يؤدي إليه، هذا القول خطأ، مخالف للواقع، وتكذبه الحوادث التاريخية، وما حصل في روسيا بالذات؛ حيث إن حكامها الشيوعيين صاروا يحاولون تغيير علاقات الإنتاج، لا بتغيير أدوات الإنتاج؛ بل بعمليات القضاء على النظام القديم بالقوة، وأدوات الإنتاج التي كانت سائدة في روسيا في سني ما قبل الثورة الشيوعية، حين كان النظام إقطاعيًّا، ظلت هي نفس أدوات الإنتاج في السنوات التي أعقبت الثورة، تلك السنوات التي تم خلالها تغيير العلاقات القديمة إلى علاقات جديدة. من هنا يبرز أن تغير العلاقات كان قبل تغيير أدوات الإنتاج، وأنه حصل بالقوة، وبعد البدء بتطبيق النظام الجديد لا أثناء وجود النظام القديم مما يثبت خطأ إحدى الفروض الأساسية للماركسية[١].

* * *

١٦ - إن (المادية التاريخية) إذ تجعل (أسلوب إنتاج الحاجات المادية) أساسًا للتطور، وتجعل (صراع الطبقات) سبيل هذا التطور، تختلف عن مجرد الإفادة من العامل الاقتصادي في تفسير أحداث التاريخ؛ بل إن هناك من يؤمنون بالتفسير الاقتصادي ويكتبون في التاريخ الاقتصادي، ولا يؤمنون بالمادية التاريخية على النحو الذي صاغها به ماركس، ولا يؤمنون بالصراع الطبقي. يقول هرنشو (C. Hearnshaw) الذي شغل كرسي أستاذ التاريخ بجامعة لندن (بين عامي ١٩١٣ - ١٩٣٤م). « ليس بين الدراسات الاجتماعية التي غدا التاريخ وثيق الصلة بها، ما هو أشد لزومًا للمؤرخ من علم الاقتصاد. نعم إن جميع المفكرين المسؤولين قد عدلوا عن العقيدة المسرفة التي صاغها ماركس وإنكلز، والتي تفسر التاريخ تفسيرًا اقتصاديًّا محضًا، إلّا أن المؤرخين معترفون بأن العوامل الاقتصادية لعبت دورًا بارزًا في جميع عصور النشوء الاجتماعي للعالم، وبخاصة في العصور القديمة أيام كان الإنسان مضطرًّا إلى أن يكافح من أجل وجوده كفاحًا متصلًا أعداء طبيعيين مساوين له في القوة وشدة المراس »[٢].

* * *

١٧ - ونقرأ - أخيرًا وليس آخرًا - لجون نيف (John U. Nef)، الذي اضطلع

(١) غانم عبده: نقد الاشتراكية الماركسية (ص١٩٨- ٢٠٠).

(٢) فتحي عثمان: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير (ص٢٢، ٢٣) عن: هرنشوا: علم التاريخ (ترجمة العبادي) (ص١٧٨، ١٧٩).

بتدريس الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي في عدة جامعات ومعاهد علمية وبعضوية عدد من جمعيات الاقتصاد والتاريخ الاقتصادي، في تقديم كتابه (الأسس الثقافية للحضارة الصناعية: Cultural Foundations of Industrial Civilization) هذه الكلمات:

منذ أن بدأت أبحاثي التاريخية، قبل خمس وثلاثين سنة، وأنا معني بأصول (العالم الصناعي) الذي نراه اليوم، وكنت واقعًا تحت تأثير النظرة السائدة عندئذٍ في الدوائر الجامعية - والتي لا تزال سائدة بشكل ربما كان أقوى من ذي قبل - وفحواها: أن التأليف التاريخي يجب أن يقوم على أسس من الاختصاص، فبحثت عن هذه الأصول كما فعل كثيرون غيري في ميدان التاريخ الاقتصادي. وبحثت عنها فيما كان، من أحد النواحي، فرعًا ضيقًا من ذلك الميدان، وهو (نشوء صناعة الفحم البريطاني).

وبمضي الزمن أدركت أن محاولتي كمختص، بل ومعالجتي كلها لمسألة الأصول بالنظر في التاريخ الاقتصادي كانت جزئية، ثم أدركت أن الإلمام بالتاريخ العام لا بد من أن يغير نظرة الإنسان إلى التاريخ الاقتصادي. فالتاريخ الاقتصادي كما يعرضه المؤرخون المختصون أمثال أرنولد توينبي (أول من شرح فكرة الثورة الصناعية شرحًا منظمًا) بل وكما يعرفه أيضًا كارل ماركس (الذي يعتبر من فلاسفة التاريخ وفيلسوفًا مثلما هو مشرع مذهب)، هذا التاريخ ليس فحسب تفسيرًا ناقصًا للحضارة الصناعية؛ بل هو لا يعد تفسيرًا جزئيًّا مرضيًّا.

وجدت نفسي أتساءل عمّا إذا كانت هناك علاقة بين الدين والأخلاق والفن - هذه الموضوعات التي ما برحت حيوية عند كثرة من البشر - وبين الموضوعات الخاصة بالبحث الاقتصادي. ولو أني نظرت إلى هذه الموضوعات من خلال مجرد الإحصاءات والأبواب التي جاء بها بعض الاقتصاديين، باعتبارها تكاد تكون جماع الحكمة، لوجدتها موضوعات خالية من الحياة. ولم أجد موضوعات البحث الاقتصادي تنبض بالحياة إلّا عندما عالجتها من خلال الرجال والنساء الذين شقوا طريقهم إلى السطح فظهروا في الوثائق التي قرأتها. ووصلت آخر الأمر إلى أن أصل الحضارة الصناعية الفريدة التي تحيط بنا جميعًا لا يمكن قصره بدقة على مؤرخي الاقتصاد، وأن الطريقة الوحيدة التي قد يتيسر بها فهم هذا الأصل إنما تتم من خلال دراسة التاريخ كله مجتمعًا.

ونحن نجد في الكتاب كله صدى هذه النظرة « إذا اختبرنا مقدمات الثورة الفكرية المسؤولة عن العالم الصناعي الذي نعيش فيه اليوم نجد قلة من الشواهد تؤيد وجهة

النظر القائلة بأن العلم الحديث نجم عن التقدم الصناعي في شمالي أوربا فيما بين الإصلاح الديني والحرب الأهلية. فخلال هذه الأزمنة التي شهدت التغير الحاسم في الأساليب العقلية كان العقل نفسه، لا النظم الاقتصادية ولا التطور الاقتصادي، هو الذي سمّى النغمات الجديدة، ونظّم غالبية صورها المختلفة التي كان كبار العلماء يرددونها. وأن الاكتشافات العلمية الثورية التي توصل إليها غلبرت وهارفي وغاليليو وكبلر والرياضيات الجديدة عند ديكارت وسارغوس وفرمات وباسكال.. لم تكن ذات منفعة علمية مباشرة. والأحرى أن تكون الحرية لا الضرورة، هي القوة الرئيسة وراء الثورة العلمية »[1].

* * *

١٨ - كما نقرأ للاقتصادي البولندي (أوسكار لانكه)، أحد أكبر مختصّي الدول النامية، وهو يستعرض جهود الكُتَّاب الذين اهتموا بدراسة اقتصاد مجتمعات ما قبل الرأسمالية، منذ عصر ماركس وحتى عصر بورشييف نقرأ ما معناه « ولكن هذه الدراسات جميعها مفككة؛ لذلك فإن الاقتصاد السياسي للنظم الاجتماعية ما قبل الرأسمالية لما يخرج بعد إلى حيز الوجود باعتباره فرعًا منظمًا من فروع الاقتصاد السياسي »[2].

* * *
* *
*

(١) فتحي عثمان: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير (ص٢٣ - ٢٥) عن: جون نيف: الأسس الثقافية للحضارة الصناعية (ترجمة د. محمود زايد) (ص ٩ - ١٢، ١٠٤، ١٠٥).

(٢) انظر كتابه: الاقتصاد السياسي (١/ ١٤٨) ترجمة د. محمد سلمان الحسن، عن مجلة آفاق عربية، سنة (٢) عدد (٦)، محمد علي نصر اللّـه: أضواء على نمط الإنتاج الآسيوي.

التفسير الحضاري: توينبي[١]

مجال الدراسة التاريخية:

يخالف توينبي نهج المورخين الذين يعتبرون الأمم المستقلة أو الدول القومية مجالات للدراسة التاريخية، ويرى: «أن المجتمعات الأعظم اتساعًا في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة، أو أي جماعات سياسية أخرى، هي المجالات المعقولة للدراسة التاريخية. المجتمعات لا الدول هي (الوحدات الاجتماعية) التي يجب أن يُعْنى بها دارسو التاريخ».

هذا ما يراه بعد دراسته النموذجية لتاريخ بريطانيا، واستقراء حقيقته كجزء غير مكتفٍ بذاته، بل مفتقر لاكتمال معناه إلى كلٍّ أوسع منه هو تاريخ الحضارة المسيحية.

يتأمل توينبي - بعد ذلك - التاريخ الحضاري المعروف، ويدرس ما انطوى عليه من المجتمعات دراسة مقارنة، فيقرر وجود عدد محدد من الوحدات الاجتماعية التي تميزها خصائص معينة وتجمعها أطوار حضارية متشابهة، وتصلح وحدها في رأيه للدراسة التاريخية. وهو يفرق بين طائفتين من المجتمعات، الأولى بدائية والثانية حضارية. وليس ما يجمع بين هذين النوعين إلّا أن كلًّا منهما يصلح لأن يكون مجالًا معقولًا للدراسة التاريخية، أما فيما عدا ذلك فتفصلهما فروق أهمها أن عدد الحضارات المعروفة أقل بكثير من عدد المجتمعات البدائية التي وجدت واندثرت منذ فجر التاريخ البشري، وأن الجماعة التي يتكون منها المجتمع البدائي، والرقعة الجغرافية التي تسكنها، ومدى عمرها، كل هذه أصغر وأقل بكثير مما تَبينه المؤرخ في كيان الحضارات المعروفة.

أما المجتمعات الحضارية فهي: المصرية، السومرية، البابلية، الحثية، السريانية، المينوئية (في جزر إيجة وكريت)، الهيلينية، الإيرانية، العربية، الهندوكية، الهندية، الصينية، حضارة الشرق الأقصى (الصينية - والكورية اليابانية)، الأنديانية، اليوقاتيقية، المايانية، المكسيكية، الأرثوذكسية المسيحية البيزنطية، الأرثوذكسية المسيحية الروسية والحضارة الغربية، ويضيف توينبي إلى هذه المجموعة مجموعات أخرى قد توقفت في مرحلة من تاريخها عن النمو الحضاري وهي: البولينيزية، الإسكيمية، البدوية، العثمانية والإسبارطية.

---

(١) ملخص عن: منح خوري: التاريخ الحضاري عند توينبي (ص ١١ - ٤٦).

على أن أكثر مجموع هذه الحضارات قد اندثر ولم يبق منها غير سبع، ست منها تمر الآن بدور الانحلال وتدور كلها في فلك الحضارة الغربية، وهي: الأرثوذكسية المسيحية البيزنطية والأرثوذكسية المسيحية الروسية والإسلامية والهندوكية والصينية والكورية - اليابانية. والسابعة لا يعرف مصيرها بعد، وهي الحضارة الغربية القائمة الآن في أوربا الغربية والكومنولث البريطاني والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.

* * *

١ - **نشوء الحضارات :**

إن السؤال الكبير الذي يطرحه توينبي هو: ما الذي أخرج الإنسان من جمود الدور البدائي الذي قبع فيه فترات طويلة من الزمان، وأطلقه في أجواء الدور الحضاري الزاخر بالحياة والحركة؟ وهل يمكننا اعتبار (العرقية) أو (المناخية) بين الأجناس أو البيئات سببًا في نشوء الحضارات المعروفة؟

رفض لدافعي العرق والبيئة الجغرافية:

الشائع بين عدد من العلماء الأثنولوجيين أو علماء الأجناس أن الإنسان بعد انتشاره منذ التاريخ البشري، ذلك الانتشار الواسع وتعرضه نتيجة لهذا الانتشار لفروق مناخية عظيمة قد تميز، هو وأبناء جنسه، بخصائص فزيولوجية ونفسية خاصة. ويفترض علم النفس الاجتماعي وجود صلة وثيقة بين قيمة الخصائص النفسية، وطبيعة المزايا الفيزيولوجية المتفاوتة في الأجناس البشرية المختلفة.

يتناول توينبي هذا الافتراض الأخير بتحفظ شديد؛ إذ يعتقد أن علم النفس الاجتماعي لم يتجاوز بعد مرحلة الطفولة، ولذلك لا يصح الوثوق المطلق بنتيجة أبحاثه. ثم يستعرض بعد تحفظه هذا عددًا من النظريات العرقية، ويبين على ضوء ما قدمته الأجناس المختلفة من مشاركة في إنتاج الحضارات المتعددة، إخفاق تلك النظريات الإثنولوجية في تفسير عملية النشوء الحضاري. فالقول بتفوق الجنس الأبيض بفروعه الثلاثة: النوردي والألبيني والأيبيري، والادعاء بأن أبناء هذا الجنس هم الذين أنشؤوا الحضارات وأمدوها بالعبقريات في شتى مناحي الإبداع، والقول بامتياز العنصر الجرماني على غيره من العناصر، والزعم البريطاني - الإسرائيلي القائل بتحدر سكان بريطانيا العظمى من أصل القبائل الإسرائيلية العشر (التائهة). هذه الأقوال، وغيرها، تتهافت عند الوقوف على نتائج الدراسة الحضارية المقارنة التي تبين أن جميع الأجناس، الأبيض: بفروعه

الثلاثة، والبولينزي (أي الكوري - الياباني) والأسمر والأصفر والأحمر ما عدا الأسود أسهمت في العمران الحضاري.

يرى توينبي أن نظرية البيئة الجغرافية لا يمكن الأخذ بها كذلك إلّا إذا قامت حضارات مستقلة في بيئات متماثلة جغرافيًّا. إن ثمة حضارتين أو ثلاث على الأكثر (المصرية والسومرية والسندية) من مجموع إحدى وعشرين حضارة نشأت بصورة مستقلة في بيئات متماثلة جغرافيًّا، ولكن نشوءها على هذا الشكل لا يصح اتخاذه قاعدة؛ بل حالة شاذة لا يمكن القياس عليها. وهكذا يستخلص توينبي من هذا أن البيئة الجغرافية وحدها ليست عاملًا أساسيًّا في نشوء الحضارات الأولى، فهناك أحواض أنهار تشابه وديان النيل ودجلة والفرات جغرافيًّا لم تنشأ فيها حضارة مستقلة مطلقًا، ولكن عندما استوطنتها جماعات كالأوربيين المحدثين، وعرفت كيف تستجيب استجابة ناجحة لتحدي البيئة الطبيعية هناك نشأت فيها حضارات لم يتمكن السكان القدماء من إنشائها بدافع البيئة الجغرافية وحدها.

ويلاحظ توينبي فوق ذلك، أن الحضارات قد تنشأ في بيئات مختلفة فقد تكون البيئة الطبيعية التي تساعد على قيام الحضارات بيئة رسوبية كما في مصر والسِّنْد والعراق، أو قد تكون هضبية كما في مواطن الحضارة الحثية والمكسيكية، أو قد تكون أرخبيلية كما في الحضارتين الإغريقية واليابانية.

كل هذا يدل على أن لأي نوع من أنواع المناخ والطوبوغرافية القابلية لأن يكون بيئة طبيعية مساعدة للنشوء الحضاري بشرط أن يتوفر وجود الحافز الأساسي. وهذا ما سيبينه توينبي في نظريته الكبرى: نظرية التحدي والاستجابة.

التحدي والاستجابة:

إذا لم يكن نشوء الحضارات ناتجًا عن تأثير العوامل البايولوجية وحدها، أو تأثير العوامل الجغرافية وحدها، فهو ناتج في استقراء توينبي عن تأثير نوع من التفاعل الخلاق بين هذه العوامل المختلفة « ليس السبب في نشوء الحضارات بسيطًا ولكنه متعدد، وليس وحدة مستقلة ولكنه علاقة مشتركة »[1].

يعرض توينبي لعمليات التحدي والاستجابة وأثرها في نشوء الحضارات؛ حيث يبين

---

(١) وسيعتمده منح خوري باسم (دراسة في التاريخ) A. Toynbee: A Study of History .

أن أصول هذه العلاقة تتجلى في التراث الديني - الميثولوجي - حيث تتعدّد الشواهد على ما كان للتحديات من أثر فعّال في شتى مناحي الإبداع والتكامل. ففي سفر التكوين يشكل تحدي الحية للرب الإله العقدة في قصة سقوط الإنسان الأول وجهاده الخلاق على الأرض.. وفي العهد الجديد يتحدى إبليس يسوع عليه السلام وتكون للإنسانية قصة الخلاص.. وفي سفر أيوب يكون تحدي الشيطان للّه العقدة في قصة الرجل الكامل المستقيم.. وإذا انتقلنا من العهد القديم والجديد إلى أسطورة (الدكتور فاوست) لـ « غيته »، نجد الحوار قائمًا على الرهان بين اللّه والشيطان وزعم الشيطان أنه قادر على إغراء ذلك العالم الجليل وتحويله عن حبه للّه وقوته على الوفاء له.

كما يذكر توينبي رأي الفلكي الكبير السير جيمس جينز في كتابه (الكون العجيب) حيث يفسر نشأة الكرة الأرضية، منذ حوالي ألفي مليون سنة، باصطدام شمسين في الفلك.

في كل هذه الشواهد، وغيرها كثير، اصطراع خلاق، وفيها نشوء متكامل هو نتيجة الاستجابة الظافرة للتحدي المقلق. وهكذا ينتهي توينبي من هذا العرض المثولوجي إلى تصميم نظري يحاول أن يفسر به، وعلى ضوء شواهده المنتزعة من تاريخ المجتمع البشري، عملية النشوء الحضاري.

فالجفاف التدريجي الذي دب، بعد انتهاء عصر الجليد، في منطقة المراعي الإفراسية، جنوبي آسيا وشمالي أفريقيا، كان التحدي الذي قررت الاستجابة له مصائر الجماعات البدائية من صيادي تلك الحقبة (الباليوليتية). فالشراذم البشرية التي لبثت في تلك المناطق الصحراوية واقتصرت في استجابتها على تغيير بعض عاداتها، كوّنت طائفة البداوة وسلكت سبيل الحياة البدوية، والقبائل التي استجابت بنزوحها إلى الجنوب سعيًا وراء المراعي المتقهقرة نحو المناطق الاستوائية حافظت على نمط معيشتها البدائية، وما زالت محافظة عليه إلى اليوم. أما الجماعات التي استجابت لذلك التحدي برحيلها إلى وادي النيل؛ حيث النهر العظيم والدلتا الخصيبة والمناخ الملائم، واستقرارها هناك بعد أن كافحت عوائق البيئة الطبيعية، وتغلبت عليها وسخرتها لأغراضها، فقد أنشأت الحضارة المصرية، والظروف المناسبة والعوامل المصطرعة نفسها التي توفرت لقيام هذه المدنية في وادي النيل قد سببت نشأة الحضارة السومرية فيما بين النهرين، وإن كانت طبيعة الحضارتين مختلفة.

والمعروف أن أحوال البيئة الطبيعية في حوض النهر الأصفر؛ حيث قامت الحضارة

الصينية، كانت مما يحفز على الكفاح لغلبة القسوة عليها، فقد ظل الصينيون الأولون قرونًا طوالًا يكافحون الأدغال والغابات والوحوش والحشرات والجفاف والفيضان وأملاح التربة والصقيع حتى استطاعوا في آخر الأمر أن يحولوا تلك البراري الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة.

كذلك نشأت الحضارة المايانية بعد الجهاد الشاق لتذليل الأدغال الاستوائية، والحضارة الأنديانية عن مغالبة العوائق الطبيعية في منطقة السفوح الباردة، والحضارة المينوئية عن الاستجابة الناجحة لتحدٍّ من نوع آخر، هذه المرة هو السيطرة على البحر وتشييد أزهى المدائن الإيجية فوق الجزائر المنتشرة والشطآن المترامية.

[illegible] أن هناك من الحضارات ما ينشأ من نتيجة تحدٍّ بشري بالدرجة الأولى [illegible]فئة المسيطرة في المدينة المنهارة للبروليتاريا (أي الأكثرية) الداخلية [illegible]ك الفئة بسبب فشلها، وللبروليتاريا الخارجية التي تقع على حدود المواطن الحضارية، والتي تتحفز لتقويض سيطرتها المتداعية، تحدٍّ تزيله الاستجابة الظافرة المؤدية إلى نشأة حضارة جديدة عن الحضارة الزائلة.

هكذا نشأت الحضارة الغربية عن الهيلينية، ونشأت هذه عن المينوئية، وهكذا نشأت سائر الحضارات (المتصلة) عن أسلافها القديمة غير أنه كان أحيانًا على بعض هذه الحضارات أن تتغلب، بالإضافة إلى التحدي البشري، على عقبات ما تستوطنه من المناطق الجغرافية الجديدة التي لم تكن من قبل موطنًا للحضارة الزائلة.

مدى التحدي والاستجابة:

يلاحظ توينبي بعد ذلك أن لهذه التحديات الطبيعية والبشرية مدى معينًا يجب ألّا تتعداه حتى تكون الاستجابة الخلاقة ممكنة، فهي ليست مما يعجز الجهد البشري بصعوبته كل الإعجاز ولا مما ينقاد له بسهولته كل الانقياد، ولكنها مما يثير أقصى طاقاته على الكفاح ويمكنه - بفضل كفاحه هذا - من حقه بالظفر المكتسب. فالرخاء المفرط في البيئة عدو الحضارات اللدود؛ ولذلك ظلت الشراذم البشرية في (نيازالاند) وغيرها من المناطق الاستوائية الدافقة بالخيرات الطبيعية، بدائية في حياتها.

وإذا كان الرخاء المفرط يقتل الحضارات في مهدها، فقسوة العوائق في البيئة قسوة خارقة تشل كذلك النشاط الإنساني وتسقط الأجنة الحضارية قبل تكاملها في بطون الأراضي العاقرة التي تحملها مدة ثم تلفظها عاجزة ضعيفة؛ ولذلك ظل سكان بعض

المناطق القطبية والصحراوية كالإسكيمو والبدو عاجزين عن اللحاق بأدنى المستويات الحضارية؛ ولذلك لم تستطع روما استرداد حيويتها بعد أن أنهكتها حروب هانيبال الطاحنة.

إن الدافع الحيوي إذن في عمليات النشوء الحضاري هو الاستجابة الظافرة لتحدي البيئة المناسبة. ولكن توينبي يرى بعد استعراض مفصل للمنبهات التي واكبت قيام الحضارات المختلفة ودفعتها في مراقي التكامل أن ثمة خمسة دوافع تتصل بطبيعة تلك البيئة المناسبة وتستثير تفاعلها الخلاق وهي (أ) دافع الأراضي الصعبة (ب) دافع الأرض البكر (جـ) دافع النكبات (د) دافع الضغط (هـ) دافع العقوبات.

* * *

٢ - نمو الحضارات:

ليس دور النمو امتدادًا طبيعيًّا ملازمًا لدور النشوء، فبين المجموعة الحضارية عدد من المجتمعات التي نشأت، ولكنها توقفت عن النمو لعجز الأقلية فيها عن مغالبة التحديات القهارة في بيئاتها الطبيعية أو البشرية الصارمة - (كمناطق الإسكيمو والبدو والبولينيزيين سكان بعض المدن المتفرقة في المحيط الباسفيكي) في **الحالة الأولى**، وكالمحيط البشري للمجتمعين العثماني والإسبارطي في **الحالة الثانية** - كذلك لا يكفي أن تكون الاستجابة ناجحة بذاتها، وإنما يجب أن تستثير تحديات جديدة تتبعها استجابات جديدة ناجحة، وهكذا يتكامل النمو « من تحقيق غاية إلى صراع جديد، ومن مشكلة إلى مجابهة أخرى، ومن هدأة مؤقتة إلى حركة راجعة. إن الحركة المحدودة من حالة التزعزع إلى حالة التوازن، لا تكفي بذاتها لكي يتبع النمو النشوء. وحتى تتتابع الحركة وتطرد، يجب أن يكون ثمة دافع حيوي يدفع الفئة المتحدة من التوازن إلى التضعضع، ومن التضعضع إلى التوازن. وهكذا إلى ما لا نهاية له في مجال الممكن »[1].

يتناول توينبي النظريات الشائعة التي تفسر النمو الحضاري ويقيسه بمقياس ما تحققه الأمة المتحضرة من انتصارات على البيئة الخارجية. انتصارات في ميادين الفتوحات الجغرافية، وانتصارات في ميادين الصناعات والعلوم التقنية. ويرى أن هذه النظريات تخلط بين الأعراض والجواهر، وتعتبر التقدم (الكمي) سببًا للازدهار هو في أكثر الأحيان

---

(١) منح خوري: دراسة في التاريخ (٣/ ١١٩).

ظاهرة سقوط وانحلال، فالتوسع الجغرافي يحدث عادة زمان النهضات العسكرية في تاريخ الحضارات وهو زمان (الدول الجامعة) التي تؤسسها الأقليات المسيطرة، للتعويض عن إخفاقها في قيادة المجتمع قيادة خلاقة ترتقي به من انتصار إيجابي إلى انتصار إيجابي في سلسلة لا تنتهي من الانتصارات البناءة. وأما تطور الصناعات والعلوم التقنية فإنما يتم - في استقراء توينبي - لطائفة كبيرة من الأمثلة المختلفة، بمعزل عن سير الحضارات في مجال التقدم أو التأخر.

إن هذا العرض التجريبي (للأمثلة المختلفة) قد أوضح بجلاء أن لا علاقة للتقدم التقني بالتقدم الحضاري، غير أننا نستهدي بتاريخ هذا التقدم التقني للعثور على غرضنا من البحث (أو المقياس الحقيقي للنمو الحضاري). **ثم ما يلبث توينبي أن يعرض للمسائل الأساسية في قضية (النمو الحضاري) وأولها:**

١ - التقدم في مجال التحقّق الذاتي:

فهو يلاحظ، في دراسته لتطور العلوم والفنون التقنية اتجاهًا واضحًا نحو تبسيط المعقد وتيسير المتشابك واختزال المستفيض. تيسير في أنواع الآلة حل بواسطته المحرك الحديث بالوقود المحترق محل المحرك البخاري القديم، وتيسير في وسائل النقل المختلفة حلت بواسطته الشاحنات الحديثة الحرة، محل القطارات القديمة المشدودة إلى الخطوط الحديدية الثابتة، كما حل اللاسلكي محل التلغراف، وتيسير في اللغة حلت بواسطته الألفباء اللاتينية محل ما عرضته المجتمعات الصينية والمصرية القديمة من الرموز الكتابية المعقدة. هذا التيسير في الميادين التقنية المختلفة يعبر في رأي توينبي عن دافع حيوي يعمل في ذات الإنسان - في صميم ذاته - ليحررها من العوائق المادية المسيطرة عليها، واستخدامها في سبيل إطلاق الطاقات البشرية الكامنة في المجتمع، وبالتالي في سبيل التحقّق الذاتي والتكامل الاجتماعي بفعل إرادي حرّ. « النموّ - يقول توينبي - يعني أن الشخصية النامية، أو الحضارة تسعى إلى أن تصير هي نفسها بيئة لنفسها، وتحديًا لنفسها، ومجال عمل لنفسها. وبعبارة أخرى: مقياس النمو أنه تقدم في سبيل التحقّق الذاتي »[1].

٢ - المجتمع والأفراد:

يعني توينبي في بحثه عن حقيقة المجتمع، بتخطئة نظريتين من النظريات الاجتماعية

---

(١) منح خوري: دراسة في التاريخ (٣/ ٢١٦).

الشائعة: **أولها**: تقول: بأن الفرد هو الحقيقة الموجودة المدركة، وأن المجتمع ليس سوى مجموعة من الذرات البشرية، **وثانيتها**: ترى بأن الحقيقة هي المجتمع - ذلك الكل العضوي - وأن الأفراد ليسوا سوى أجزائه ولا يمكن تصورهم غير (خلايا) فيه.

الحق - يقول توينبي بعد دحضه لهاتين النظريتين: « أن المجتمع هو علاقة بين أفراد، وأن هذه العلاقة تقوم على اتفاق مجالات أعمالهم الفردية اتفاقًا يجمعها على صعيد مشترك هو ما نسميه المجتمع »[1]. وعلى هذا يكون المجتمع مجال عمل مشترك بين عدد من الناس، ولكن الأفراد هم (ينبوع العمل). والنمو الحضاري كله لا يكون إلّا بواسطة المبدعين من الأفراد، أو بواسطة الفئة القليلة من هؤلاء القادة الملهمين. أما انقياد الأكثرية لهذه الأقلية الخلاقة في المجتمع فيتم بطريقتين: **أولاهما**: مثالية قوامها معاناة الأكثرية للخبرات نفسها، ومشاركتها في الحالات الوجدانية نفسها التي مرت بها الأقلية. **وثانيتهما**: عملية قوامها اتباع الأكثرية للأقلية بنوع من الاستجابة الجاهزة أو المحاكاة الآلية.

هذه المحاكاة الآلية هي الطريقة الغالبة في عملية الانقياد الاجتماعي، ولقد تميز بها إنسان الجماعات البدائية، كما يتميز بها إنسان المجتمعات المتحضرة، غير أنها في الجماعات البدائية حركة سلفية تقود إلى محاكاة القدماء، بينما هي في المجتمعات الحضارية النامية حركة تقدمية تقود إلى محاكاة الطليعة الخلاقة.

٣ - الاعتكاف والعودة:

يتصف عمل الإنسان الخلاق - في رأي توينبي - بحركة مزدوجة من (الاعتكاف) و(العودة)، الاعتكاف لتحقيق الصفاء الذاتي واستلهام الحق والعودة لهداية الأتباع وتوجيههم. تتجلى هذه الظاهرة في حياة عدد من الأنبياء والرسل وهداة الأمم كموسى ومحمد ﷺ وبوذا وغيرهم. كما تتجلى في تاريخ عدد من المجتمعات الصغرى التي قادت باعتكافها وعودتها ما كانت تنتمي إليه من الحضارات الكبرى في مراقي النمو والازدهار (كإيطاليا وإنكلترا اللتين اعتكفتا - **الأولى** فيما قبل عهود النهضة، **والثانية** في العصور الوسطى - لتعدا عدتهما الكبرى لإنهاض الحضارة الغربية). في هذه الحركة المزدوجة يؤكد توينبي على قيمة العودة بقوله: « الاعتكاف فرصة، وقد يكون شرطًا

---

(١) منح خوري: دراسة في التاريخ (٣/ ٢٣٠).

ضروريًّا لتجلي المتوحد، غير أن هذا التجلي يفقد غايته، ويبطل معناه إذا لم يكن تمهيدًا لعودة الذات المتجلية إلى البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها. و(العودة) هي جوهر الحركة كلها، كما أنها غايتها القصوى »[1].

٤ - التنوع داخل الوحدة خلال دور النمو الحضاري:

الحضارة النامية وحدة متماسكة وعملية النمو حركة منتظمة متناسبة، ولكن تجارب الفئات المتعددة التي تنهض بهذه العملية ليست متماثلة: إنها تختلف باختلاف الكيفية التي يستجيب أو يرد بها الفرد، أو الأقلية الخلاقة، أو المجتمع كله، على التحديات المتتابعة. ومن هنا نجد الفروق - يقول توينبي - بين أنواع المجتمعات الصغرى في كيان الحضارة الواحدة، كما نجد الخصائص المميزة لتاريخ الحضارات المختلفة، فالحضارة الهلينية جمالية الطابع، والحضارة الهندية دينية النزعة، والحضارة الغربية علمية المنحى آلية السمات. غير أن وراء هذا التنوع القائم وحدة جامعة هي من قبله الحقيقة الكبرى. ومثل النمو الحضاري - في تشبيه توينبي - كمثل الزارع يبذر الحب في الحقل. لكل حبة كيان، ولكل مصير. ولكن البذار مع هذا، من النوع الواحد، يبذره زارع واحد في سبيل الحصاد الواحد.

* * *

٣ - سقوط الحضارات وانحلالها:

المشكلة الثالثة الأساسية التي يعالجها توينبي هي: أسباب سقوط الحضارات وكيفية انحلالها وزوالها. وفي استقرائه أن الحضارات تمر بهذه المراحل الأخيرة؛ إذ إن من بين ستة وعشرين حضارة ستة عشر حضارة هي الآن ميتة منطوية (المصرية، الإنديانية، الصينية، المينوئية، السومرية، المايانية، الهندية، الحثية، الهلينية، البابلية، المكسيكية، الإسبارطية والعثمانية). وأما من العشر الباقية على قيد الحياة فإن البولينيزية والمجتمعات البدوية تقاسي الآن دور النزاع الأخير، وسبعًا من مجموع الثماني الأخيرة الباقية تتهدّدها الحضارة الغربية، على نسب متفاوتة، بخطر الإبادة والامتصاص. أضف إلى ذلك أن ست حضارات على الأقل من مجموع هذه السبع تدل القرائن على أنها قد شرعت تسقط وتنحدر نحو الزوال.

---

(١) منح خوري: دراسة في التاريخ (٣/ ٢٤٨).

إن توينبي يدحض - هنا - أهم الآراء التي تردّ السقوط الحضاري إلى أسباب حتمية خارجة عن قدرة الإنسان وإرادته، فينفي السقوط على أساس:

أولًا: المبدأ القائل بصيرورة (الكون) إلى الشيخوخة وانتهائه إلى العدم المحتوم، ويرى مع الطبيعيين أن هذا لن يحدث إلّا في الأبد السحيق؛ ولذلك يستبعد تأثيره الفعلي على سقوط الحضارات.

ثانيًا: الخضوع للمؤثرات البيولوجية ولناموس الكائنات الحية في الولادة والموت مرورًا بأدوار العمر المختلفة (إشبنجلر)، ويرى أن المجتمعات ليست كائنات عضوية؛ ولذلك فهي لا تخضع لنواميسها.

ثالثًا: التقيد بقانون التشابه أو مبدأ الحركة الدورية في التاريخ، ويرى أن التشابه أو التكرار ظاهرة تقع في مجرى الحوادث التاريخية، ولكن الدولاب الذي يحمل عجلة التاريخ، ويدور على نفسه دورة رتيبة، لا يستبقي العربة في إطاره الثابت المحدود؛ بل يدفعها نحو غايتها الكبرى في حركة تقدمية مستمرة.

رابعًا: فقدان السيطرة على المحيط الإنساني، والعجز عن صد الاعتداءات الخارجية على كيان الحضارات، ويرى أن هذه الظاهرة ليست في الواقع سببًا للسقوط ولكنها نتيجة انهيار سابق كان قد حدث في قلب الحضارات نفسها، ويجد الدليل القاطع على هذا الانتحار الحضاري في تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية.

خامسًا: النقص في الميادين العلمية والتقنية، ويرى « أن سقوط الحضارات هو العلة، وأن التأخر في الميادين التقنية ليس سوى النتيجة أو العرض »[1].

بعد أن يدحض توينبي هذه الحلول الحتمية كلها يورد تفسيره الخاص لطبيعة السقوط الحضاري ويردّه إلى أسباب ثلاثة:

أولًا: ضعف القوة الخلاقة في الأقلية الموجهة وانقلابها إلى سلطة تعسفية.

ثانيًا: تخلي الأكثرية عن موالاة الأقلية الجديدة المسيطرة وكفها عن محاكاتها.

ثالثًا: الانشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع كله.

التفسير التوينبي للسقوط:

إن الفارق الأساسي بين مرحلتي النمو والسقوط هو أن الأقلية الخلاقة في المرحلة

---

(١) منح خوري: دراسة في التاريخ (٤/ ٤٠).

الأولى تكون قادرة على القيام بالردود الناجحة المستمرة على سلسلة من التحديات المتجددة، ولكنها في **المرحلة الثانية** تبدو عاجزة عن القيام بهذه المهمة؛ ولذلك نراها تنقلب إلى أقلية مسيطرة تحاول الحفاظ بالقوة على مركز قيادة لم تعد تستحقه. وكنتيجة لهذا الاستكراه على الطاعة يحدث انفصال الأكثرية عن الأقلية ويبدأ ما يسميه توينبي (زمن الاضطرابات)؛ إذ تنشأ الفتن المحلية أو (الحروب الإقليمية) داخل المجتمع الواحد، وتتواتر الحروب بينه وبين واحد أو أكثر من المجتمعات المجاورة له. غير أن أخطر هذه الاضطرابات ما يحدث بين (الدول الإقليمية) داخل الكيان الحضاري الواحد فيكون سببًا في انتحاره كما كانت الحروب التي نشبت بين دول المدن الإغريقية سببًا في انتحار حضارتها الشاملة.

ويرى توينبي فوق ذلك أن زمن الاضطرابات هذا يشكل بدوره هو الآخر تحديًا عنيفًا يحفز الأقلية المسيطرة على قهره واستئصاله، فتعمد إلى خلق (الدولة الجامعة) محاولة أن تسترد بها ما فقدته من سلطان إيجابي، ومن قدرة على تقرير المصير الذاتي. غير أن هذه (الدولة الجامعة) ليست في استقراء توينبي سوى استجابة مستبدة عاجزة لا تلبث - مهما طال عليها الأمد - أن تنهار أمام دفعة الحياة في (الديانة) الجامعة التي تنبعث من موكب الأكثرية المقهورة؛ لتقوض أركان الإمبراطورية الفاسدة وما ساد فيها من عبادة باطلة للمعايير النسبية، وتقديس مهدور للصنميات الفانية في شتى مرافق الحياة الفكرية والاجتماعية، ثم لتهب الحياة بعد ذلك للحضارة الطالعة.

يقول توينبي في وصف هذا الدور: « عندما تنحط الأقلية الخلاقة في تاريخ أي مجتمع من المجتمعات إلى أقلية مسيطرة تحاول أن تحافظ بالقوة على مركز لم تعد تستأهله، هذا التبدل الهدام في طبيعة العنصر الحاكم يحفز البروليتاريا (الأكثرية) على الانفصال عنه والتخلي عن تلقائيتها وحريتها في الانجذاب إليه ومحاكاته، ويدفعها استكراهها على طاعته، والمنزلة الوضيعة الجافية التي أنزلها فيها إلى الارتداد عليه والثورة ضده. وتنشعب هذه البروليتاريا؛ إذ تنتفض لتأكيد وجودها إلى طائفتين (البروليتاريا الداخلية) و(البروليتاريا الخارجية) المكونة من (البرابرة) الذين أخذوا يقاومون الآن عبر الحدود الانضمام إلى الحضارة المنهارة مقاومةً عنيفة، وهكذا يشكل سقوط الحضارة طبقة محاربة داخل مجتمع واحد لم يكن كيانه في دور النمو الحضاري منقسمًا على ذاته

انقسامات حادة ولا منفصلًا عن جيرانه بأبعاد لا يمكن عبورها »[1].

- الأقلية المسيطرة:

ويفيض توينبي الحديث عن (سلوك) الأقلية المسيطرة للحفاظ على مركزها القيادي بالقوة، وردود الفعل التي تبديها كل من الأكثرية الداخلية والخارجية، فيبين كيف أن الأقلية المسيطرة تسعى إلى تغطية إخفاقها والتعويض عن فعاليتها المفقودة بفاعلية مصطنعة، فتنشئ الدول الجامعة التي تعجّل نهايتها الفاجعة. ويلاحظ توينبي أن خمس عشرة حضارة على الأقل من مجموع عشرين حضارة منحلة قد أسست مثل هذه الدول ومرت بها في طريقها إلى الزوال، فكانت الإمبراطورية الرومانية الدولة الجامعة للحضارة الهيلينية، ومملكة (سومر واكد) الدولة الجامعة للحضارة السومرية، و(الدولة الوسطى) في عهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة الدولة الجامعة للحضارة المصرية، والخلافة العباسية في بغداد الدولة الجامعة للحضارة الإسلامية. إلى غير ذلك من الشواهد. ويظهر في هذا الدور من بين الأقلية المسيطرة كبار العسكريين والاستغلاليين والمشرعين والإداريين لحكم الدولة الجامعة وتصريف أمورها، ويظهر الفلاسفة كالذين نجدهم في عهد انحلال الحضارة الهلينية من سقراط إلى أفلاطون.

- البروليتاريا الداخلية:

يعرفها توينبي بأنها ذلك العنصر الاجتماعي أو تلك الجماعة التي تكون (في) مجتمع معين، ولكنها لا تكون (منه) في أي دور من أدوار تاريخه. ينطبق هذا التعريف على البروليتاريا الداخلية التي انشقت عن جسم الحضارة الهلينية أيام انحلالها، والتي يمكن اتخاذها نمطًا عامًّا لما قام من أشباهها في الحضارات المختلفة. فقد كانت هذه البروليتاريا مؤلفة من مواطني المدن الهلينية التي نكبتها الفتن السياسية والأزمات الاقتصادية، ومن جموع الرقيق ومن أبناء الأمم المغلوبة. هؤلاء جميعًا كانوا بروليتاريين لشعورهم الحاد بأنهم ليسوا في الواقع جزءًا من كيان المجتمع الهليني. ولقد كانت مقاومتهم بادئ الأمر عنيفة، ثم لانت بعد ذلك وبلغت أسمى حالاتها بانبثاق المسيحية عنها ديانة عليا. هكذا انبثقت اليهودية والزرادشتية عن استجابة البروليتاريا الداخلية لتحدي الطغيان الآشوري في عهد الدولة الجامعة للحضارة البابلية، وبتأثير العوامل

(١) منح خوري: دراسة في التاريخ (٤/ ٦).

نفسها تقريبًا تحولت الفلسفة البوذية على أيدي البروليتاريا الداخلية في الحضارة الصينية إلى ديانة (الماهايانا) الرفيعة. وفي ظروف مشابهة نشأ الإسلام على يد الرسول ﷺ وجماعته - رضوان اللّٰه عليهم - في المجتمع العربي المتفرع مع شقيقه المجتمع الإيراني عن الحضارة السريانية الزائلة. أما البروليتاريا الداخلية في الحضارة الغربية (إذا أخذنا بافتراض سقوطها) فتمثلها جماعة (الإنتلجنسيا)، ولكنها لم تستطع حتى الآن إبداع ديانة جديدة (إلا إذا كانت المذهبية الشيوعية هي هذه الديانة، ويشك توينبي في ذلك) لما في المسيحية التي قامت عليها الحضارة الغربية من عناصر الحيوية والبقاء.

- **البروليتاريا الخارجية:**

يمتد إشعاع الحضارة النامية إلى أمداء بعيدة، وتنفذ تأثيراتها الاقتصادية والسياسية والثقافية إلى مطارح القبائل البدائية المجاورة لها، فتجذبها إلى موكب الأغلبية السائرة وراء الأقلية الخلاقة فيها. وتظل هذه فعاليتها إلى أن يعروها الضعف والانحلال، فتفقد جاذبيتها وتخسر طاعة القبائل المجاورة لها ومحاكاتها وتغريها بالإغارة عليها؛ لاقتطاع أطرافها السائبة والتمركز فيها، وجعلها جبهات حرب متواصلة، ومناطق حدود معينة بعد أن كانت بالأمس في عهد النمو الحضاري مداخل طليقة وأبوابًا حرة. يتم هذا كله لصالح القبائل المرابطة على التخوم أو البروليتاريا الخارجية المنشقة عن كيان الحضارة المنهارة وسلطانها، بدليل وجود هذه الخطوط الحربية الفاصلة بين الجانبين.

للتدليل على وجود هذه الأعراض كلها في مواقف البروليتاريا الخارجية المنشقة عن الحضارة المنحلة ينتزع توينبي شواهده النموذجية من تاريخ الحضارة الهلينية في دور انحلالها، ويذكر سقوط المدن الإغريقية واحدة تلو الأخرى بأيدي البروليتاريين الخارجيين في حرب بدأت عام (٤٣١ ق. م) وأدت بالتالي إلى زوالها كلها.

ويبين توينبي في هذا القسم من دراسته كيف أن انحلال الحضارات يرافقه فساد يدبُّ في أرواح الناس، وتغيير جذري يطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها، ويحل محل الصفات الباهرة والقوى المبدعة التي كانت تزخر بها ذواتهم في دور النمو الحضاري، ثنائية من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة. وفي هذا الدور يتعرى الفساد الروحي أيضًا عن فوضوية تعم الأخلاق والعادات، وانحطاط يسود الآداب والفنون واللغات، ومحاولات عقيمة للتوفيق بين الديانات المختلفة. وتسعى الأقلية المسيطرة في حالات معينة إلى أن تفرض بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة أو دينًا مختارًا ولكنها

تخفق في محاولتها هذه باستثناء حالة شاذة تتمثل في الكيفية (طريق القوة أو التساهل) التي انتشرت بها الدعوة الإسلامية بين الأمم المغلوبة.

النقد

وجّه عدد من الباحثين نقداتهم لنظرية توينبي في تفسير التاريخ وأشهرهم (بترم سوروكن) و(بيتر جيل)[(١)]. فأما سوروكن فيرى النظرية متهافتة في مبدأين أساسيين، **أولهما**: اعتبار (الحضارة) وحدة معقولة للدراسة التاريخية، **وثانيهما** اعتبار الأدوار الحضارية من النشوء إلى النمو ثم السقوط والانحلال أساسًا لفلسفته التاريخية.

يقول سوروكن: أن توينبي لا يعني بالحضارة مجرد (مجال للدراسة التاريخية)، وإنما يعني نظامًا موحدًا أو كيانًا كليًّا مرتبطة أجزاؤه بعضها ببعض ارتباطًا سببيًّا بحيث يستتبع التغير في الجزء الواحد تغيرًا في الكل وبالعكس: « إن الحضارات - يقول توينبي - هي كيانات كلية، جميع أجزائها ملتحمة بعضها بالبعض الآخر، وجميعها مؤثرة بعضها في البعض الآخر. ومن خصائص هذه الحضارات في دور النشوء أن تكون جميع نشاطات حياتها الاجتماعية ومظاهرها المختلفة منسقة في كيان اجتماعي واحد، كيان تنسجم فيه العناصر الاقتصادية والسياسية والثقافية بعضها مع البعض الآخر في حياة الجسم الاجتماعي النامي »[(٢)].

وهكذا نرى توينبي - يقول سوروكن - يفترض أن الحضارات كيانات حقيقية لا مجرد أكوام أو تكتلات لعدد من الظواهر الاجتماعية والثقافية المختلفة - الظاهرات المتجاورة في الزمان والمكان من غير أن يكون بينها ترابط سببي موحد. فلو صح افتراضه أن الحضارات كيانات حقيقية إذن لاستلزم التغير في أحد مقوماتها تغيرًا في مجموع المقوّمات الأخرى؛ ذلك أنه إذا كانت (ألف) مرتبطة (بباء) ارتباطًا سببيًّا فإن تغير (ألف) يستتبع حتمًا تغير (باء) في سياق معين ومطرد، وإلا لما كان بين (ألف) و(باء) ترابط سببي ينتج عنه وجود الكيان الواحد، ولتعيّن كونهما كتلتين متجاورتين فحسب. والحق إن حضارات توينبي ليست كيانات حقيقية بدليل ما يذكره هو نفسه، في مناسبات

---

(١) منح خوري: التاريخ الحضاري (ص ١٠٧ - ١١٢) عن:
Geyl. Toynbee and Sorokin: The Pattern of the past ,1949 (p. 107 - 126).

(٢) منح خوري: دراسة في التاريخ (٣/ ٢٨٠).

عديدة، من أن الظواهر الاقتصادية والتقنية كثيرًا ما تتغير في الحضارة الواحدة وتبقى الظواهر الأخرى ثابتة، أو أن العكس هو الذي يحدث أحيانًا، أو أن الظواهر الاقتصادية في حالات أخرى تتغير في اتجاه، بينما تتغير العناصر الباقية في اتجاه مقابل.

ويذكر توينبي فوق ذلك أنه كثيرًا ما يبدو العنصر الديني أو الفني أو السياسي مستقلًّا عن غيره من العناصر في ذلك الكل الحضاري. وهكذا يعتقد سوروكن أن توينبي يقوض هو نفسه أساس نظريته القائلة أن الحضارات وحدات حقيقية ملتحمة الأجزاء بعضها مع البعض الآخر. ويمضي الناقد في تهديمه للمبدأ التوينبي محاولًا أن يبين انتفاء وجود مثل هذه الوحدة الحضارية حتى في ذلك الإنسان الواحد، فكيف يمكن وجودها في أمداء (مجالات - ثقافية) كالحضارة الهلينية أو الصينية أو السريانية أو غيرها ؟ وأن ما يسميه توينبي وحدة حضارية ليس في الواقع سوى مجال ثقافي تنوجد فيه معًا عناصر من الأنظمة والتكتلات (الاجتماعية - الثقافية) الكبيرة والصغيرة - تنوجد منسجمة في جوانب منها ومتجاورة أو متباينة في الجانب الآخر.

وهكذا إذ لم تكن الحضارات غير مجالات اجتماعية - ثقافية لتلك التكتلات والأنظمة المنوجدة فيها معًا على غير ترابط سببي معقول، فإن مبدأ الأدوار الحضارية في التفسير التوينبي يصبح فاسدًا هو الآخر من أساسه. فما ليس في أصله بنية حية كاملة لا يمكن أن يولد وينمو ويموت. وعلى هذا الأساس لا يصح اعتبار التفسير التوينبي نظرية في التطور الحضاري بقدر ما هي نظرات تقييمية لأعراض التقدم أو التأخر الحضاري.

يفرع سوروكن من هذين المبدأين الفاسدين في التفسير التوينبي أخطاء أخرى أهمها:

أولًا: أن تقسيم توينبي الحضارات إلى دنيا وعليا، وإلى مجهضة ومتوقفة ومتحجّرة، يصبح تقسيمًا اعتباطيًّا لا يمكن الاعتداد به.

ثانيًا: تفاوت مدد الأدوار المختلفة التي تمر بها الحضارات يصبح هو الآخر تفاوتًا مصطنعًا لا تقرّه حقيقة الظاهرات التاريخية. ولقد ظلت عملية (الحياة) الحضارية نفسها (متى) و(كيف) نشأت، سرًّا مغلقًا كان على توينبي أن يعني به قبل أن يعنى بدراسة أعراض المرض والانحلال والموت.

ثالثًا: أن اعتباره دور النشوء الحضاري فترة سلام دائم، لا يؤيده واقع الأحداث التاريخية، وهو مردود بأكثر من شاهد، فالحضارة الغربية - مثلًا - كانت في نظر توينبي

نفسه تنعم قبل القرن الخامس عشر بدور النمو، مع أنه من المحقق أن القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانا من أخصب القرون بالفتن والقلاقل في تاريخ أوربا كلها. أضف إلى ذلك أن أدوار الانحلال في عدد من الحضارات كانت في أحوال كثيرة أعمر بالسلام من أدوار النشوء والازدهار.

رابعـاً: أن ما يسنده توينبي إلى الحضارات - بتأثير فلسفة إشبنجلر على تفسيره للتاريخ - من الخصائص الغالبة المميزة (جمالية عند الإغريق، دينية عند اليهود، آلية - تقنية عند الغربيين) يدحضه كذلك الواقع التاريخي، فقد كانت الحضارة الغربية متميزة بطابع ديني، ولم تكن آلية تقنية على الإطلاق. وكانت الحضارة الإسلامية من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر الميلادي متميزة بطابع علمي لا تدانيها فيه الحضارة الغربية يومها. وهكذا فإن ما يسميه توينبي خصائص مميزة لطابع الحضارات ليس في الواقع سوى أحوال حضارية متبدلة تتناوبها الحضارات المختلفة وليست وقفًا على واحدة منها دون الأخرى.

خامسًا: ينتزع توينبي أكثر شواهده من تاريخ (الدول القومية) مع أنه لا يعترف بها وحدات للدراسة التاريخية، وكان عليه أن ينتزعها من تاريخ الحضارات لو صح وجودها كوحدات مستقلة، ففي عمله هذا إذن تناقض صريح.

ويأخذ سوروكن على توينبي بالإضافة إلى هذه الانتقادات كلها تطويل (دراسته) التاريخية دون مبرر، فقد كان يمكنه تركيزها دون أن تفقد شيئًا من روعتها، كما يأخذ عليه تفاوت اطلاعه على أحوال الحضارات المختلفة التي تناولها في أبحاثه، وانهماكه في تقرير مبادئ كان بعض علماء الاجتماع كتارد ودوركايم [وماكس وبر] قد فرغوا من بحثها قبله: كمبدأ المحاكاة وقوانينه، وصلة العوامل العرقية والجغرافية بموضوع النشوء الحضاري مما تجاهله توينبي أو فاته الاطلاع عليه. ولكن سوروكن يعود فيعترف أن دراسة توينبي في التاريخ هي من أعظم الآثار الفكرية في مجال الأبحاث التاريخية لهذا الجيل.

* * *

أما على مستوى (المنهج) فإن توينبي يعلن في مواضع عديدة من دراسته أنه يتبع في بحثه المنهج التجريبي. وهو منهج يعتمد على ثلاث خطوات يقوم بها الباحث في تحريه عن الحقيقة العلمية:

الأولى: تكوين فكرة عامة عن (الكلّ) المراد اكتناه حقيقته والخروج من تلك الفكرة (بفرض) عام يصلح لتفسير الظواهر المشاهدة.

والخطوة الثانية: هي محاولة تحقيق هذا (الفرض) بالتجربة.

فإذا أثبتته التجربة فقد أصبح الفرض (نظرية) وبذلك **تتم الخطوة الثالثة والأخيرة**.

وقد أخذ عدد من النقاد وفي طليعتهم (بيتر جيل)[1] على توينبي سوء تطبيقه لهذا المنهج العلمي في أبحاثه التاريخية. فقد (انتخب) من مجموع الظاهرات ما يناسب (فرضه)، وعرض شواهده المختارة بالطريقة التي تلائمه، وفسرها تفسيرًا مؤاتيًا للفكرة العامة الجاهزة التي بدأ منها. إن اختبار (الفرض) عنده لم تحققه (التجربة الحاسمة). ثم إن عملية (انتخاب) الشواهد التي لجأ إليها قد حملته على التبسيط، وبالتالي التشويه لحقيقة الظاهرات التاريخية، فضلًا عن النظر إلى (أجزاء) الكل على أنها وحدات منفصلة قائمة بذاتها. فأدلته مثلًا على صحة نظرية التحدي والاستجابة، أو نظرية الاعتكاف والعودة، منتزعة انتزاعًا من إطارها الكلي وظروفها الشاملة في حياة هذه أو تلك من الحضارات التي وقع عليها اختياره. ولما كانت (حياة) الحضارات (كلًّا) ديناميًّا كما يقرر هو نفسه، أي أنها عملية وليست شيئًا ثابتًا جامدًا، فقد كان ينبغي أن ينظر في (أعضاء) ذلك (الكل) على أنها أحداث داخل تلك العملية الكلية، أحداث متجهة باتجاهها ومكيفة وفقًا لظروفها وليس لها كيان مستقل بذاتها. وهكذا فإن إخفاق توينبي في تحقيق (الفرض) بالتجربة الحاسمة وعزله (الأجزاء) بحيث لم تعد ذات دلالة معينة في بناء (الكل) يقوضان دعائم المنهج التجريبي الذي حاول أن يعتمده في تفسيره. وعلى هذا الأساس فإن ما استنتجه توينبي من القوانين العامة لا يصح اعتباره كذلك، وإنما هو نظرات في تفسير الأحداث قد تكون صائبة وقد لا تكون.

* * *
* *
*

(١) Geyl, Toynbee and Sorokin, op. Cit, (pp. 16 - 32).

الفَصْلُ الثَّانِي

الواقعة التاريخية

الواقعة التاريخية (١)

يعتمد القرآن الكريم في عرض الواقعة التاريخية على أكثر من أسلوب وليست الحبكة القصصية سوى واحد منها فحسب. وعليه فلا يَقَعَنَّ في الظن أن كل معطيات القرآن التاريخية تحمل طابعها القصصي وتطغى فيها النزعة الجمالية على المضامين، كما سيطر على الأذهان في عصر كانت فيه (قصص أهل الكتاب) مثلًا يطمح إليه. إننا إذا ما وضعنا في الحسبان كافة المكونات التكتيكية للقصة وسائر شروطها، استطعنا أن نتبين أن عددًا كبيرًا من عروض القرآن التاريخية - وإن جاءت تسميتها أحيانًا بالقصص، أي الحديث عن الماضي - تخرج عن الإطار الفني للقصة، وبهذا تكتسب بُعْدَها التاريخي المجرد.

ومهما يكن من أمر فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية، وحدثنا عن الماضي في جُلِّ مساحاته لكي ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان (الحكمة) من وراء هذه العروض وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري، مستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلك المبادئ التي سماها (سُنَنًا)، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلي. ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقي المتعة في نفوس المؤمنين، كما هو الحال في أي نشاط فني، قبل أن تبرز للعيان الاتجاهات التعليمية في ميادين الفنون، إنما جاءت لكي (تعلمهم) من خلال تجاربهم الماضية و(تحركهم) عبر الأضواء الحمراء والخضراء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزدحم الطويل.

وإذا كانت هذه العروض التاريخية قد حملها إلى الناس أسلوب أخَّاذ وحبكة فنية تصل في بعض السور حد التكنيك القصصي الكامل، فما ذلك إلّا بسبب الارتباط العضوي العميق في القرآن بين الأسلوب والمضمون. حتى في أشد الآيات (علمية) و(تشريعية)، وكأنه - بهذا - كان يريد أن يطرح إعجازًا مزدوجًا، وأن يقول للعربي إنه لم يأتِ بمضامين ومعطيات جديدة فحسب، بل إنه قدمها لهم (بلغة) هي لغتهم نفسها، ولكن شتان !! يبدأ القرآن الكريم في سورة البقرة بتقديم الحدث (الواعي) الأول في تاريخ الإنسان، فيعرض لنا (مشهد) خلقه كإنسان، بما هو تركيب متكامل من عقل

وجسد وروح وعاطفة. وسيتكرر عرض هذا المشهد، ومن زوايا مختلفة ومتكاملة في سور ومقاطع أخرى من القرآن الكريم. ولا يتطرق القرآن في مشاهده التاريخية هذه إلى تفاصيل وجزئيات هذا الخلق الأولي، ولا إلى الفترة الزمنية التي تمَّ فيها بعثه لأداء مهمته في العالم. ومن ثم لا داعي هنا لأن ندخل في مناقشات حول (مسألة النشوء والارتقاء) ومدى انسجامها مع الطروح القرآنية؛ إذ لا نجد خلال هذه الطروح التي تجاوزت الجزئيات والتفاصيل أيَّ تناقض إزاء احتمالين أساسيين لا ثالث لهما: هما الخلق المباشر المستقل، أو النشوئي الارتقائي[1].

نجتزىء من هذه الطروح شاهدًا واحدًا، ذلك الذي ورد في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٩].

إن هذا العرض يضع حجر الزاوية لكافة العروض القرآنية التالية في الزمن، فضلًا عن أنه على المستوى الحضاري يقدم عددًا من المبادئ الأساسية الخطيرة حول تركيب الإنسان ودوره في العالم، والصراع بين الخير والشر، والعلاقة بين السماء والأرض، والمصير الذي ستؤول إليه هذه المسائل جميعًا، مما سنعود إليه بالتحليل في فصل آخر.

هنا في هذا المشهد نكاد نلتقي بصيغة متكاملة للعرض التاريخي لواقعة من أشهر

---

(١) انظر بالتفاصيل مقال (ملاحظة في التقليد الحضاري). للمؤلف، مجلة الوعي الإسلامي، السنة (٨)، العدد (٩٥).

الوقائع خطورة في تاريخ الإنسان. ورغم تجاوز القرآن للتفاصيل والجزئيات، إلّا أنه يحيط من جهة أخرى بكافة القضايا والمساحات الأساسية لهذه الواقعة، بحيث إنه لا يترك ثغرة يمكن أن يتسرب منها سؤال لا يجد الإجابة عنه، ابتداء من لحظة خلق آدم بشروطه التي لا زالت تصوغ بشريتنا، وانتهاء باستقراره على الأرض لكي يكافح - وذريته - ويصارع، متلقيًا عن السماء، حينًا بعد حين، إشارات إلهية تعينهم على تبين ملامح الطريق وتقودهم في قلب العالم، ثانية إلى السماء، ثم يستكمل العرض جوانبه بالتحدث عن المصير الذي سيبعث إليه الإنسان بعد رحلته الشاقة المجهدة في الأرض.

ثم ما تلبث عروض القرآن التاريخية، أن تترى بعد ذلك، مغطية مساحة زمنية طويلة تبدأ بآدم وتنتهي بالرسول ﷺ؛ لكي تقف عنده طويلًا متحدثة وملامسة ومعلقة وموازية معظم أحداث سيرته الغنية، فيما يمكن أن نتلمس أبعادها في الدراسات والتفاسير الخاصة بأسباب النزول. وما تلبث العروض أن تتجاوز عصر الرسول ﷺ لكي تقدم لنا عن المستقبل القريب والبعيد بعض نبوءاتها التاريخية. ونحن نلمح فضلًا عن هذه التغطية العمودية لتاريخ البشرية - متمثلة بالدرجة الأولى بالحديث عن تجارب الحوار بين السماء والأرض - تغطية أخرى أفقية لكل واقعة من الوقائع، على حدة، الأمر الذي يفسر لنا ورودها في أكثر من موضع من القرآن؛ حيث أريد لها أن تستكمل كافة جوانبها، وأن تسلط الأضواء على سائر مساحاتها وتكويناتها، فلا يتبقى منها أيما جانب لا يصل إليه الشعاع. **وفيما يأتي بيان لأهم هذه العروض والقصص القرآني التاريخي على حسب تسلسلها في القرآن نفسه** دون أن نشير إلى أي عرض خاص بسيرة الرسول ﷺ مما يخرج بنا عن الموضوع، ومما يمكن أن نجده في أية دراسة خاصة بالسيرة(١):

- آدم (البقرة: ٣٠ - ٣٩).
- بنو إسرائيل (البقرة: ٤٩ - ٧٤).
- إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبناء الكعبة (البقرة: ١٢٤ - ١٣٤).
- بنو إسرائيل وطالوت وجالوت (البقرة: ٢٤٦ - ٢٥٢).
- إبراهيم (البقرة: ٢٥٨، ٢٦٠).
- رجل القرية (البقرة: ٢٥٩).
- مريم وعيسى (آل عمران: ٣٣ - ٦٢).
- اليهود وموسى وعيسى (النساء: ١٥٣ - ١٦٠).

(١) انظر على سبيل المثال: صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب (جـ١)، ومحمد عزة دروزة: سيرة الرسول (جـ١، جـ٢)، والمؤلف: دراسة في السيرة.

- مقاطع عن اليهود والنصارى (المائدة: ١٢ - ١٤).
- موسى ودخول فلسطين والتيه (المائدة: ٢٠ - ٢٦).
- هابيل وقابيل (المائدة: ٢٧ - ٣٢).
- المسيح والحواريون (المائدة: ١١٠ - ١١٩).
- إبراهيم (الأنعام: ٧٤ - ٨١).
- آدم والشيطان (الأعراف: ١١ - ٢٥).
- نوح وآخرون (الأعراف: ٥٩ - ٩٣).
- موسى (الأعراف: ١٠٣ - ١٧١).
- نوح وموسى (يونس: ٧١ - ٩٣).
- نوح (هود: ٢٥ - ٤٩).
- هود (هود: ٥٠ - ٦٠).
- صالح (هود: ٦٠ - ٦٨).
- إبراهيم (هود: ٦٩ - ٨٣).
- شعيب (هود: ٨٤ - ٩٥).
- موسى (هود: ٩٦ - ٩٩).
- يوسف (سورة يوسف بكاملها).
- إبراهيم (إبراهيم: ٣٥ - ٤١).
- الخليقة والشيطان (الحجر: ٢٨ - ٤٤).
- إبراهيم (الحجر: ٥١ - ٧٦).
- أصحاب الحجر (الحجر: ٨٠ - ٨٤).
- آدم والشيطان (الإسراء: ٦١ - ٦٥).
- موسى (الإسراء: ١٠١ - ١٠٤).
- أهل الكهف (الكهف: ٩ - ٢٦).
- أصحاب الجنتين (الكهف: ٣٢ - ٤٤).
- موسى والخضر (الكهف: ٦٠ - ٦٢).
- ذو القرنين (الكهف: ٨٣ - ٩٨).
- مريم (مريم: ١ - ٣٣).
- إبراهيم (مريم: ٤١ - ٥٠).
- طه (طه: ١ - ٨).
- موسى (طه: ٩ - ٩٨).
- آدم (طه: ١١٥ - ١٢٧).
- إبراهيم (الأنبياء: ٥١ - ٧٣).
- داود وسليمان وآخرون (الأنبياء: ٧٨ - ٨٢).
- نوح (المؤمنون: ٢٣ - ٢٩).
- موسى وآخرون (الفرقان: ٣٥ - ٣٩).

- موسى (الشعراء: ١٠ - ٦٨).
- إبراهيم (الشعراء: ٦٩ - ٨٩).
- نوح (الشعراء: ١٠٥ - ١٢٢).
- عاد (الشعراء: ١٠٥ - ١٢٢).
- ثمود (الشعراء: ١٤١ - ١٥٩).
- لوط (الشعراء: ١٦٠ - ١٧٥).
- شعيب (الشعراء: ١٧٦ - ١٩١).
- موسى (النمل: ٧ - ١٤).
- سليمان (النمل: ١٥ - ٤٤).
- ثمود (النمل: ٤٥ - ٥٣).
- لوط (النمل: ٥٤ - ٥٨).
- موسى (القصص: ٣ - ٤٤).
- قارون (القصص: ٧٦ - ٨٣).
- نوح وإبراهيم ولوط وآخرون (العنكبوت: ١٤ - ٤٠).
- نوح وإبراهيم وموسى وإلياس ولوط ويونس (الصافات: ٧٥ - ١٤٨).
- داود (ص: ١٧ - ٢٦).
- سليمان (ص ٣٠ - ٤٠).
- أيوب وآخرون (ص: ٤١ - ٤٨).
- آدم والخليقة (ص: ٦٩ - ٨٥).
- موسى (غافر: ٢٣ - ٤٥).
- موسى (الزخرف: ٤٦ - ٥٦).
- موسى (الدخان: ١٧ - ٣٣).
- عاد (الدخان: ٢١ - ٢٦).
- نوح وآخرون (ق: ١٢ - ١٤).
- إبراهيم وآخرون (الذاريات: ٢٤ - ٤٦).
- عاد وآخرون (النجم: ٥٠ - ٥٤).
- نوح (الفجر: ٩ - ١٦).
- عاد (القمر: ١٨ - ٢١).
- ثمود (القمر: ٢٣ - ٣١).
- لوط (القمر: ٣٣ - ٣٩).
- فرعون (القمر: ٤١ - ٤٢).
- موسى وعيسى (الصف: ٥ - ٧).
- ثمود وعاد والمؤتفكات (الحاقة: ١ - ١٠).
- أصحاب الجنة (القلم: ١٧ - ٣٣).
- نوح (نوح: ١ - ٢٨).
- فرعون (المزمل: ١٥، ١٦).
- موسى وفرعون (النازعات: ١٥ - ٢٦).
- الأخدود (البروج: ٤ - ١٠).
- عاد وثمود وفرعون (الفجر: ٦ - ١٤).
- ثمود (الشمس: ١١ - ١٥).
- أصحاب الفيل (الفيل: ١ - ٥).

ونلاحظ من خلال هذا العرض أن أكثر الأنبياء ورودًا هما (إبراهيم) و(موسى)، وأغلب الظن أن كون أولهما (أبا الأنبياء)، وثانيهما: رائد سلسلة أنبياء وملوك بني إسرائيل الطويلة والدور الواسع المعقد المتشعب الذي لعبه كل منهما في ميدان الدعوة إلى اللَّه الواحد، والمساحة الزمانية والمكانية التي شغلها، والتي تؤكد معطيات الآثار المعاصرة على امتدادها وشمولها وخطورتها، كانت الأسباب الحقيقية وراء هذا التأكيد في المواضع المختلفة على تجربة هذين المبعوثين الإلهيين مع عدد من الجماعات والأقوام. ونلاحظ أيضًا أن عروض القرآن التاريخية لم تنصب على الأنبياء (كأفراد) فحسب، بل اتجهت إلى الأقوام المختلفة (كجماعات) تلعب دورها الحاسم في حركة التاريخ كذلك.

وبين هذا وذاك نلمح تنوعًا في العروض القرآنية، وهي تحدثنا عن مواقف الأفراد والجماعات إزاء عدد من الأحداث والقيم التاريخية، يمتد بعضها إلى خلق آدم، وردود الفعل التي أثارتها هذه الخطوة الإلهية الحاسمة، ويصل بعضها إلى عدد من التجارب التي مارسها أفراد عاديون سلبًا (انظر وقائع: أصحاب الجنّتين، أصحاب الحجر، وقوم لوط) أو إيجابًا (انظر أهل الكهف وأصحاب الأخدود) أو نفذها قادة وملوك وزعماء كبار (انظر الوقائع الخاصة بفرعون وقارون وذي القرنين وأصحاب الفيل)، مرورًا بسلسلة الأنبياء الطويلة التي بعثت لكي تجدد الحوار الموعود، منذ عهد آدم بين السماء والأرض، وتسعى بأقوامها إلى صياغة حركة التاريخ بما ينسجم ومركز الإنسان في الكون، ومن ثم كانت المساحة الواسعة المخصصة لهؤلاء الزعماء الهداة - عليهم السلام - مكافئة وموازية لحجم الدور الذي بعثوا لكي يقوموا بتنفيذه في العالم.

وتتجاوز بعض آيات القرآن، الماضي والحاضر، لكي تمد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية، يحيطها علم اللَّه تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية. ولقد نفذ بعض هذه التنبؤات في عهد الرسول نفسه وظل بعضها الآخر ينتظر التنفيذ إذ لم يحدد له زمن بالذات:

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٧].

ولقد شهد العصر المكي نفسه تنفيذ هذه النبوءة بعد سنوات قلائل من نزولها، الأمر الذي أحدث هزة فرح مزدوج في نفوس المؤمنين، فرح بانتصار الكتاب على الوثنية، وفرح باليقين العميق الذي ألقاه في نفوسهم هذا التنفيذ الصادق لوعد اللَّه !!: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ٢٧]. وسواء كان هذا الفتح عقد صلح الحديبية مع قريش زعيمة الوثنية، أم فتح خيبر آخر القلاع اليهودية الخطيرة في جزيرة العرب، فإن الوعد قد صدق وشهد المسلمون فتحًا من أخطر فتوحهم في تاريخ دعوتهم الطويل.

- ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨].

- ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧].

ولقد رأى الرسول ﷺ بأم عينه كثيرًا من هذا الذي وعد اللَّه به المشركين ابتداء من انتصار بدر الحاسم وحتى دخوله مكة وعام الوفود وإعلان (براءة) الحاسم الذي صفى الوجود الوثني نهائيًا[1].

- ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤ - ٨].

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ

(١) انظر للمؤلف: دراسة في السيرة.

ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

- ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢].

- ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٣].

ومن عجبٍ أن القرآن الكريم، المنبثق عن علم اللّه الكامل ورؤيته المحيطة بمجريات الزمان ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، لم يسرف في نبوءاته التاريخية واكتفى منها بما يعد على أصابع اليدين؛ لأنه لم يجئ لكي يكون كتاب تنبؤات. هذا بينما مارس عدد من كبار الوضعيين كهيغل وشبنجلر وماركس، في تفسيرهم للتاريخ، إسرافًا خياليًّا، ومدوا أبصارهم صوب المستقبل المجهول يرسمون على صفحاته اللانهائية نبوءاتهم التي يعقب بعضها بعضًا، وهم الذين يملكون عقولًا بشرية مهما بلغ من مقدرتها ونفاذها، فإن معطياتها لا تعدو أن تكون انعكاسًا منظمًا لما تقدمه منافذ الحس المحدودة من أوليات. ومن عجب كذلك أن يطلق بعضهم على نبوءاته تلك سمة (العلمية)، الأمر الذي يتناقض أساسًا والمنهج التجريبي الذي يرفض الظن والتخمين وتجاوز الوقائع إلى ما وراءها.

ولقد أشارت الآية الثامنة والسبعون من سورة غافر، تعقيبًا على موقف القرآن من العروض والأحداث التاريخية إلى أن كتاب اللّه ما جاء ليكون (بحثًا تاريخيًّا) يستقصي كافة نشاطات الأنبياء ويحصيهم عدًّا، وأن ما قدمه كان لإدراك الخطوط العريضة لمسيرة التاريخ البشري ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر: ٧٨].

إن القرآن الكريم يبين لنا في حشد آخر من الآيات الهدف من إيراد القصص والعروض التاريخية، وهو الهدف نفسه الذي يمكن أن يتمخض عن أية مطالعة جادة ذكية واعية ملتزمة للتاريخ: إثارة الفكر البشري، ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث عن الحق، تقديم خلاصات التجارب البشرية عبرًا يسير على هديها أولو الألباب. إزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان، وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة لكي تظل في مقدمة قواه الفعالة التي هو بأمسِّ الحاجة إلى تفجير طاقتها دومًا، وهو يواصل الكفاح

في عالم يرفض الذين يعانون الغفلة والكسل الذهني والتواكل واليأس والنسيان. تقديم الدليل على علم اللّه الواسع الذي أحاط بحركة التاريخ ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا. ثم تأكيد البرهان على الحق الواحد الذي جاء به الأنبياء السابقون جميعًا وسعوا إلى أن يقودوا أممهم إلى مصدره الواحد الذي لا إله إلّا هو[1].

- ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦٢].

- ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

- ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

- ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠].

- ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

- ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

- ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

- ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه: ٩٩].

- ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ١٣٣].

- ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

- ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٧].

- ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢].

- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ

---

(١) عن الآيات الخاصة بوحدة الديانات السماوية انظر: (البقرة: ١٣٦، ١٣٨ – ٢٨٥)، (آل عمران: ٣، ٣٣، ٣٤، ٥٠، ٨٤)، (النساء: ١٣٦، ٤٧، ١٥٠ – ١٥٢، ١٦٣ – ١٦٥)، (المائدة: ١٤، ٤٦، ٤٨، ٥٩) (الأنعام: ٨٣ – ٨٧، ٩٢)، (العنكبوت: ٤٦، ٤٧)، (الأحزاب: ٧)، (الشورى: ١٣)، (الأحقاف: ١٢ – ٣٠)، (الذاريات: ٣٦ – ٥٤)، (الصف: ٦، ٧).

وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

- ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦].

* * *

هذا عن الأسباب الأساسية لإيراد القصص والوقائع التاريخية في هذه المساحات الواسعة من القرآن.

ولكن، ماذا عن النتائج النهائية المتمخضة عن دراسة حركة التاريخ البشري والتمعن في وقائعه وأحداثه؟

إن القرآن يطرح علينا لأول مرة مسألة (السنن) و(النواميس) التي تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ، وعبر مسالكها (المقننة) التي ليس إلى الخروج عليها سبيل؛ لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقًا وفكرًا وعواطف ووجدانًا، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادي؛ لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلبًا وإيجابًا.

ومن ثَمَّ فإن حكمها على هذه (الحركة) يجيء منطقيًّا تمامًا؛ لأنه أشبه (بالجزاء) الذي هو من جنس (العمل)، ومن خامه الأصيل، وعادلًا تمامًا لأنه يكافئ الإنسان، فردًا وجماعة، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية، سلفًا، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها العضوي بمقدماتها اعتمادًا على استمرارية السنن التاريخية ودوامها.

وعلى العكس، فإن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن، سوف يؤول إلى تميع الحركة التاريخية وعدم انضباطها جزائيًّا، وبالتالي سيؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل. ومن أجل أن نطمئن يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها أو تحولها، إنها موجودة أساسًا في صميم التركيب الكوني وفي قلب

العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم. ولم يفعل القرآن سوى أن كشف عنها النقاب وأكد وجودها وثقلها في حركة التاريخ. هذا في وقت ظل فيه المؤرخون والمفكرون عامة يتخبطون في دراساتهم ومعطياتهم التاريخية؛ لأنهم - حتى القرن الماضي - لم يقدروا أن يصلوا إلى هذه السنن التي تحكم حركة التاريخ ويطمئنوا إليها، ويجروا تحليلاتهم وتفاسيرهم وفق مؤشراتها ودلالاتها.

ولم يحدث إلا أخيرًا، وفي القرن الماضي، أن اكتشف كبار رجالات الفكر الأوربي ناموسية الحركة التاريخية، هذا إذا استثنينا بطبيعة الحال (ابن خلدون) الذي سبقهم بخمسة قرون، ولكنهم سلطوا عليها معاييرهم النسبية ومقاييسهم الجزئية، فجاءت انعكاسًا صارمًا لفكرة ما أو اعتقاد مذهبي محدد.

في القرآن الكريم لا تتحدد هذه السنن والنواميس، ولا تأسر نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة؛ بل تمتد وتمتد مرنة منفتحة شاملة؛ لكي تضم أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى دائمًا الحصيلة النهائية، والرموز المكثفة، والدلالات الكبرى لحركة التاريخ. إنها تريد أن تقول لنا - باختصار وتركيز بالغين - إن حركة أي جماعة بشرية في التاريخ ليست اعتباطية، وإنها بما قد ركب فيها من قوى العقل والروح والإرادة - خلافًا لما هو سائد في العوالم غير البشرية - مسؤولة مسؤولية كاملة خلال حركتها تلك؛ حيث ينتفي العبث واللا جدوى، وحيث تتحرك الحرية من شكلها المهوش المتميع الغامض، إلى عمل مدرك مخطط يقف به الإنسان بمواجهة اللَّه والعالم؛ لكي يحقق إعماره ورقيه وتقدمه، وفق ما يجيء به أنبياء اللَّه، حينًا بعد حين، من تعاليم وخطط تأخذ بيد الجماعة البشرية في هذا الطريق. وحيثما انتفت هذه العلاقة الإيجابية بين الإنسان واللَّه والعالم، وأسيء استخدام (الحرية)، وضاعت المسؤولية، وانعدم التخطيط المدرك الواعي، وتميعت القيم الأخلاقية المنبثقة عن قوى العقل والروح والإرادة. جاء الجزاء الموازي لجنس العمل، وآل الأمر بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار:

- ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

- ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

- ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧].

- ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ [الكهف: ٥٥].

- ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي (دايناميي) يفرض على الجماعة (المدركة الملتزمة) أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار، وأن (تحسن) التعامل مع قوى الكون والطبيعة، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه، وهكذا يتجاوز التاريخ في القرآن أطره النظرية أو القصصية الفنية، أو الأكاديمية، إلى حركة وبحث وجهد وإبداع تجيء دائمًا لخدمة (المعاصرة) وللسير نحو (المستقبل) بفهم أعمق وإلمام أكبر بسنن التاريخ. ومن ثم نلتقي بآيات اللَّه، وهي تطلب من أية جماعة معاصرة أن (تسير في الأرض) لكي (تنظر) لا أن تنظر فحسب، وأن (تتعلم) من هذا السير (السنن) التي (حاقت بالذين خلوا من قبل) من أجل بناء عالم لا تدمره تجارب الخطأ والصواب التي دمرت أممًا وجماعات وشعوبًا:

- ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٤١].

- ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠].

- ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٤٢].

- ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦].

- ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٦ - ١٣٨].

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

- ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

- ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ﴾ [الرعد: ٦].

- ﴿ ... وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر: ١٣].

- ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠].

وفي أكثر من موضع يؤكد القرآن الكريم على أن النظر والبحث والتجوال في تاريخ البشرية، إنما هو جهد إيجابي لن يكون مردوده إلا على الحاضر والمستقبل، ولن يفيد منه إلا الذين يشحذون كافة حواسهم وقدراتهم العقلية لكي يستخلصوا المغزى والمعنى على هداهما:

- ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢].

- ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

- ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: ٣٤].

- ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥].

- ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٤، ٥].

- ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

- ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

- ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

ويبلغ من تأكيد القرآن الكريم على إيجابية البحث التاريخي واتساعه وشموله أن يسعى إلى مداه إلى ما وراء العصور التاريخية المعروفة؛ بل إلى ما وراء التجارب البشرية الأولى على الأرض، إلى بدء الخلق، وحجر الزاوية على المستويين الجيولوجي والبيولوجي بما يتيح للإنسان رؤية أنفذ لقدرة اللّه المبدعة، ولسننه الدائمة التي رافقت مجرى التاريخ منذ تكويناته الأولى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

وفي أكثر من موضع يؤكد لنا القرآن الكريم أن سنن اللّه في التاريخ، ثابتة ماضية إزاء الجماعات البشرية التي تتنكب عن الطريق، بغض النظر عن حجم هذه الجماعة وعن مدى دورها الحضاري ومقدار منجزاتها المادية والأدبية في مقاييس الكم ومعايير المساحات والأحجام؛ فدائمًا يكمن وراء هذه المعايير والمساحات، المقياس الحقيقي والمؤشر النهائي اللذان نستطيع بالتمعن فيهما أن نحكم على مسيرة الجماعة وعلى مصيرها السعيد أو المفجع. إن وراء العطاء والتعامل الحضاري شيئًا أكبر وأخطر وأشد تأثيرًا على المصير: إنه (نفسية) الأمة، أفرادًا وجماعات (وأخلاقياتها) ونظرتها الشاملة إلى الحياة، وطبيعة علاقاتها الإنسانية، والمواقع التي تتخذها بمواجهة اللّه والعالم:

- ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٢، ٨٣].

- ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٥ - ٨].

- ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣].

- ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

- ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

- ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

- ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ [مريم: ٧٤].

- ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥].

- ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧].

- ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: ٤٥].

- ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

ونلحظ في تتبعنا لهذه الآيات تكرار كلمتي (القوة) و(البطش) وأنهما غير قادرتين على الصمود بمواجهة سنن اللّه في التاريخ، التي هي جزء من قدرة اللّه وتنظيمه الكوني للمصير. ويبدو أن القوة والبطش كانتا – في نظر كثير من الجماعات البشرية، وما تزالان – مقياس تقدم الأمة ورقيها وازدهارها واتساع حجم دورها في العالم، بغضّ النظر عن مدى التوازن والانسجام في مساحات العمل الحضاري بين قوى السلم والحرب وبين طاقات الإبداع والبطش.

إلّا أن القرآن يجيء كي يعلمنا شيئًا آخر، أنه ليس بالقوة والبطش تحيا الأمم وتزدهر وتواصل الطريق، إنهما جانب فحسب في المسيرة الحضارية وفي فاعلية الجماعة البشرية في قلب العالم، وأن أي طغيان لأي منهما على حساب الجوانب الأخرى سوف يعرض (الجماعة) إلى أن تفقد قدرتها الخلاقة على مجابهة متطلبات مسيرتها وتحدياتها الدائمة

المستمرة، وسيدفعها دفعًا إلى أن تقصر هذه الاستجابة على نطاق القوة والبطش، الأمر الذي يؤول بها حتمًا إلى الاستنزاف فالدمار. وما قيمة (القوة العسكرية) و(البطش المسلح) إذا لم تكن وراءهما نفسية متماسكة وأخلاقية عالية ونظرة إلى الحياة شاملة، وعلاقات إنسانية، وموقع متقدم مسؤول أمام اللَّه ؟

إننا في العصر الحديث نلتقي بتجربة (العسكرية الألمانية) المتفوقة التي دفعت الحزب النازي إلى أن يقود ألمانيا صوب الانتحار، وهي ما هي عليه من قدرات في ميادين القوة والبطش، وفي أقل من عقد أصبح الرايخ الثالث خبرًا من الأخبار. ترى كم من تجارب البطش والقوة في تاريخ البشرية اجتازت نفس التجربة ولاقت نفس المصير؟ إن القرآن الكريم يعطينا المفتاح، ويبين لنا أن سنة اللَّه في التاريخ، ماضية لا تتوقف، ثابتة لا تتحول أو تتبدل حتى لو وقفت قبالتها جدران هائلة من البارود؛ لأنها - آنذاك - سوف تفجر هذا البارود من الداخل، وتمضي كلمتها التي لا رادَّ لها..

* * *
* *
*

الواقعة التاريخية (٢)

إن أي حدث تاريخي – يجيبنا القرآن الكريم من خلال حشد كبير من آياته – إنما يجيء تعبيرًا عن إرادة اللَّه التي تصوغه من خلال إرادة الإنسان، أو مباشرة عن طريق اتصالها بالزمن والتراب. ولا يمكن دراسة تاريخ الكون، وتاريخ الأحياء، وتاريخ البشرية إلّا من هذا المنطلق. إن الفعل الإلهي يتخذ شكلين لخلق الحدث وصياغته، **أولهما مباشرة الفعل التاريخي**، تلك (المباشرة) التي تتراوح بين التساوق مع نواميس الطبيعة واعتمادها في (التنفيذ)، وبين تجاوز مقاييسها ورفض نسبياتها فيما يعرف بالمعجزات، وفي كل مرة كان الفعل الإلهي المباشر يجيء لكي (يذكر) الناس بخالقهم، وبكلمته النافذة في الكون والعالم، وبقدرته اللانهائية على (الفعل)، ويجعلهم حاضرين دومًا بمواجهة ربّهم تلقيًا عنه، وتعبدًا له، وشكرًا على نعمائه التي لا تكف عن التمخض والتدفق والإبداع. اللَّه الذي ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

إن هذه (المباشرة) التي لا ندري بدايتها أبدًا؛ لأنها موازية لوجود اللَّه الأبدي، ومتفجرة عن قدرته السرمدية على الفعل، هي التي خلقت الكون في ستة أيام، واقتطعت الأرض من كتلة السموات الدنيا؛ لكي تصوغها بما يتيح لها استقبال الحياة بأشكالها المختلفة التي تتدرج من البدائية في عوالم النبات والحيوان وتنتهي بالإنسان الذي انبثق عن فعل إلهي مباشر، لا ندري الزمن الذي استغرقه، سيما وأن مقاييسنا الزمنية لا تعد شيئًا إزاء المقاييس الكونية الشاسعة البعيدة، ومن ثم فلا داعي لأن نقف فنجري مقارنة بين معطيات القرآن الكريم عن خلق آدم (الأول) وبين نظريات النشوء والارتقاء والاختيار الطبيعي التي قال بها (دارون) وغيره من (الطبيعيين)، ما دام الأمر لا يعدو أن يكون تطورًا في عملية خلق آدم بإرادة اللَّه، أو خلقه مباشرة بما هو عليه من تكوين نحن ثماره المحمولة في مجريات القوانين الوراثية المعروفة. إن اللَّه قد خلق آدم كفعل مباشر لا نملك مقاييسه الزمنية الكافية، وهو خلق يجيء متممًا لخلق الأرض وتهيئتها ومساحات واسعة من السماء الدنيا؛ لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي أتيح له أن يتخذ مكانه في الأرض خليفة فيها وسيدًا للعالمين.

ولا بد أن نقف هنا قليلًا لتلمس أبعاد المسألة الزمنية في القرآن. ذلك أننا نلتقي في القرآن – بين حين وآخر – بإشارات ولمحات عن البعد الزمني في الكون، يبدو إعجازها

بمجرد مقارنتها بنسبية (أينشتاين) التي أدخلت الزمن كبعد جديد ثالث في دراسة الكتلة الكونية، نقتطف منها هذه الآيات ذات الدلالة العميقة :

- ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].
- ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس: ٤٥].
- ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢].
- ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٣].
- ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥].
- ﴿ ... ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].
- ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩].
- ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦].
- ﴿ ... إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٤].
- ﴿ ... وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].
- ﴿ ... ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩].
- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إن بين هذه الآيات المنبثة في حنايا القرآن - وغيرها كثير - ترابطًا وانسجامًا رياضيًّا دقيقًا، وإن فيها تأكيدًا مستمرًّا على الحقيقة (الطبيعية) الكبرى التي لم تتكشف بعض جوانبها للعلم إلّا أخيرًا، تلك هي أن الزمن في الأرض والزمن في أمداء الكون ليسا سواء؛ لأن هناك فرقًا شاسعًا بين الوحدة الزمنية الأرضية، والوحدة الزمنية الكونية، تبلغ تارة وعلى سبيل المثال (٣٦٥,٠٠٠) ضعفًا، وتبلغ تارة أخرى (١٨,٢٥٠,٠٠٠) ضعفًا بحساب القرآن الكريم نفسه، الأمر الذي يفسر لنا ظن الناس يوم القيامة أن حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار، كما يعطينا - على المستوى التاريخي - مفتاح هذا التأجيل المتطاول لمصائر الأمم والقيادات الظالمة حتى لنتصور أحيانًا أنه قد غض الطرف عنها، وأنها لن تبلغ مرحلة سقوطها أبدًا.

إن الرسول ﷺ يحدثنا، مزيلًا هذه الهواجس من النفوس، القلقة المتسرعة ذات

التجارب النسبية المحدودة (إن اللّه يمهل ولا يهمل) وأنه (يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته). وهذا الإمهال يبدو في حسابنا الأرضي طويلًا قد يتجاوز السنوات وقد يمتد إلى عقود السنين وربما قرونها، لكي تحقّ كلمة اللّه على الظالمين، أفرادًا وجماعات، ولكي يأخذ العدل الإلهي مجراه. ولكن هذه الأيام والسنين والعقود والقرون لا تعدو في زمن اللّه يومًا أو بعض يوم، ومن ثم كان تمهل اللّه بطيئًا في حسابنا، سريعًا سرعة مذهلة في حساب الملأ الأعلى. وإذا كنا نحن نستبطئ عقاب اللّه حينًا فربما كان الملأ الأعلى يتسرعه أحيانًا. وما كان لنا إذن إلّا أن نذعن لأمر اللّه، وتتيقن نفوسنا عدله الأزلي الشامل الذي يتجاوز نسبيات الزمان والمكان إلى القيم المطلقة التي لا ينحرف بها ميزان ولا يطيش عندها جزاء أو عقاب ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

أما على مستوى الخلق الكوني فإن لنا أن نتصور - لا بحسابنا الأرضي ولكن بحساب المطلقات القرآنية - الأمداء الزمانية للأيام (الستة) التي يحدثنا عنها القرآن والتي صمّم اللّه سبحانه وتعالى فيها بناء السموات والأرض، وأعد كرتنا الأرضية لاستقبال الحياة وإنمائها وتطويرها على يد الإنسان، خليفة اللّه في الأرض وسيد مخلوقاتها، وكيف تم هذا التصميم والإعداد المعجزين القائمين على قوانين وسنن ونواميس غاية في الدقة والانضباط والإتقان ليس أقلها قوانين الجاذبية وتصريف الرياح وحركة الليل والنهار، وإنبات النخل والعنب والرمان من قلب التربة، وتوازن نسب مكونات الغلاف الغازي، وتحديد بُعد الأرض عن الشمس والقمر، وخلق الأرض. وإرساء الجبال وتكثيف الدخان والغاز إلى كتلة صلدة صالحة للحركة والبناء، وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح الزرقاء وإمداد الأرض كلها بما تحتاجه من ماء، وتفجير الحياة في الطين اللازب. ولنا أن نتصور - بعد هذا كله - ماذا تريد هذه الآية أن تقول لنا: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾؟ [الرحمن: ٢٩] ولكن أي يوم هذا ؟ إنه الذي قلنا: إنه ربما يبلغ (١٨,٢٥٠,٠٠٠) يومًا من أيامنا الأرضية !!

إننا - حتى على مستوى خلق الإنسان - نجد في المسألة الزمنية كما يطرحها القرآن، حلًّا مقنعًا للتناقض القائم، منذ بدايات الداروينية الأولى، بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعي والارتقاء التدريجي. ففي لحظة كونية واحدة، تبلغ بحسابنا ملايين الوحدات الزمنية، يصدر الأمر النهائي الإلهي بخلق آدم من الطين اللازب الممزوج

بالماء. ولنتمعن في هاتين الآيتين: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

وهكذا، فسواء قلنا بأن عملية الخلق هذه تمت مباشرة، أم عبر سلسلة طويلة من التطورات والتغيرات الطبيعية المتمخضة عن لقاء الحياة بالطين اللازب في فجر الإبداع الإلهي على الأرض، فإننا لن نخرج عن الإطار الزمني الذي يطرحه القرآن نفسه، ولن نكتشف أبدًا (سر الروح) الذي أبدع الحياة والذي عجز عنه الطبيعيون كافة وقال عنه القرآن، ردًّا على تساؤلات المشركين: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. هذا مع رفضنا القاطع لأية محاولة تسعى إلى قسر الآيات العلمية في القرآن؛ لكي تساير معطيات العلم الحديث القلقة المتغيرة. إلّا إذا قادتنا لغة القرآن الواضحة نفسه إلى الحقيقة مباشرة دونما تعسف أو تكلف أو التواء.

وقبل أن نمضي في بحثنا هذا، نقف قليلًا عند هذه الآيات التي اعتمدناها في استخراج اليوم القرآني البالغ (١٨,٢٥٠,٠٠٠) يومًا أرضيًّا ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج: ١ - ٧] .

إن الملائكة والروح، وقد تجردت من عوائق الجسد والتراب التي تقيد الإنسان، وتجاوزت قوانين الزمان والمكان الأرضية النسبية، تصعد الآن في طريقها إلى بارئها عبر معارج وأمداء لا يحيطها قط خيال إنسان، مهما امتد به الخيال؛ لأنها ستجتاز هذه الأمداء التي انتشرت فيها مائة ألف مليون مجرة في كل منها مائة ألف مليون شمس، تحيط بكل منها كواكب وسيارات كمجموعتنا وأكبر. ستجتاز هذه كلها في يوم واحد، لكنه يوم كوني ليس كأيامنا، بين القرآن بعض أطواله، وأشار إليه أينشتاين في نسبيّته التي قادته إلى آفاق جديدة رحبة في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية. حتى إنه ليقال - على سبيل المثال - إن وصول الإنسان إلى إحدى المجرات القريبة يحتاج إلى خمسمائة سنة ضوئية، وأن هذا الإنسان نفسه إذا تيسر له جهاز ينقله عبر الفضاء بسرعة الضوء فإنه سيختزل هذه المدة إلى ما يقرب من خمسين سنة فحسب !!

إن الملائكة والروح المتخفف من أعباء الجسد وشد الأعضاء وكثافة التراب لا يعجزها أن تفوق في حركتها سرعة الضوء، ومن ثم فهي تعرج الكون كله في طريقها

إلى خالق الكون جلّ وعلا في يوم واحد في حساب حركتها الزمنية عبر الكون، لكنه في حسابنا؟ ومن ثم ينادي اللَّه في علاه، رسوله الكريم، وهو يشقى بدعوة أناس يرون يوم الحساب بعيدًا كبعد السراب: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾[1].

إلّا أن القرآن في نطاق تجربتنا الأرضية، يستخدم - لواقعيته - المقاييس التي تصلح لهذه التجربة، أنه - بصدد المسألة الزمنية - يذكر بوضوح: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [التوبة: ٣٦]. ويتحدث عن تسخير الريح لسليمان عليه السلام: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ ﴾ [سبأ: ١٢].

وهذا التأكيد المستمر في فكرة (الزمن) وتقسيماته التي رسمت من أجل تمكين الإنسان من تاريخ أيامه في الأرض، كان من بين الأسباب العديدة التي دفع الإسلام بها العرب إلى الاهتمام المتزايد بالدراسات التاريخية، ومكنهم - بعد عقود قليلة - من تحويلها إلى علم له منهجه وأساليب بحثه، بعد أن لم يكن في العصر الجاهلي سوى أقاصيص تغلب عليها الخرافة، وأسمار يسودها طابع المبالغة، وأيام ينظر فيها الراوي إلى الأحداث بمنظار القبيلة التي ينتمي إليها.

* * *

ولم ينقطع فعل اللَّه المباشر في الأرض بظهور آدم وذريته الذين منحهم اللَّه العقل والروح والإرادة، وعلمهم الأسماء كلها، وحملهم مسؤولية السمع والبصر والفؤاد؛ بل استمرت مباشرة الفعل، أو من خلال الإنسان نفسه مما سنطلق عليه (الفعل الإلهي غير المباشر). وهل للإنسان ذي القدرات النسبية أن يعتمد فعله الخالص لمجابهة العالم؟ إن آدم عليه السلام منذ لحظة هبوطه الأولى كان بأمسِّ الحاجة إلى فعل اللَّه وهدايته. قبل أن يضيع وذريته إلى الأبد. وسرعان ما استجاب له اللَّه سبحانه ذو القدرة الفعّالة المريدة المطلقة التي لا تكف عن الفعل والإبداع إزاء عجز الإنسان ونسبية معطياته الحسية، وتقطع فعله واتكائه الدائم على إرادة فوق إرادته، ورؤية أوسع من رؤيته: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٧ - ٣٩].

---

(١) انظر التفاصيل في بحث (القرآن والبعد الزمني). للمؤلف، مجلة الوعي الإسلامي، سنة (٨)، عدد (٩١) (١٩٧٢م).

ومنذ ذلك الوعد بالهداية واللَّه سبحانه يختار أنبياءه ورسله من قلب العالم بفعل مباشر لكي يؤدوا دورهم التاريخي المناسب للمرحلة التي بعثوا فيها. ثم جاءت رسالة محمد ﷺ آخر حلقة في عملية الإرسال هذه، من أجل منح بني آدم الطريق المستقيم في حياتهم الدنيا، وهي الحلقة التي حبكت بشكل نهائي، واستكملت كل أسبابها في كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ؛ لكي تبقى إلى يوم البعث صوتًا واضحًا يقود بني آدم إلى الصراط المستقيم. وقد أعلن القرآن بنفسه، في حجة الوداع، هذا الاكتمال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. وهكذا كانت جميع النبوات فعلًا إلهيًّا مباشرًا يتمثل في اختيار الرجل الذي سيحمل الأمانة، وفي تهيئته - قبل هذا - على عين اللَّه، ثم في إرساله نبيًّا إلى قومه أو إلى العالم كله، وفي الاتصال الدائم به عن طريق الوحي الذي يجيء على مكث حينًا بعد حين، أو بواسطة لقاء ما يتم عن طريق استلام (الكتاب) الذي سيقود الإنسان إلى الطريق.

وكان يرافق هذه النبوات سلسلة من الأفعال المباشرة الأخرى تجيء حينًا منسجمة مع نواميس الطبيعة وسننها، وتنصب حينًا آخر بمعزل عن هذه النواميس أو مخترقة إياها، فيما سمي بالمعجزات، التي كانت تجيء بمثابة (هزة) تحرك الإنسان وتسقط عن قلبه وعقله وأحاسيسه جدار (الرين) الذي أحاط بها فصده عن الإيمان الواضح باللَّه واتباع أنبيائه المرسلين.

فقصّة بني إسرائيل والبقرة الصفراء[١]، والعزيز[٢]، وإبراهيم والطير[٣]، ومريم والطعام[٤]، وزكريا وابنه[٥]، وصالح وناقته[٦]، ومطاردة فرعون بني إسرائيل[٧]، وممارسات المسيح الخارقة[٨]، وغيرها من المعجزات التي يمكن أن يرجع إليها القارئ في جدول البيان الذي أوردناه عن قصص الأنبياء وتواريخهم في أول هذا الفصل .. كلها جاءت تمثل فعلاً مباشرًا خارقًا للنواميس الطبيعية، في مراحل مبكرة من التاريخ، كانت النبوات خلالها بأمسِّ الحاجة إلى إسناد (ميتافيزيقي) وإلى (هزات) تتميز بالتحدي والتخويف والغرابة؛ لتحريك أفئدة أقوامهم المتجمدة، ولفت أنظارهم الكسولة إلى قدرة اللَّه. لكن

---

(١) البقرة (٦٧ - ٧٣).
(٢) البقرة (٢٥٩).
(٣) البقرة (٢٦٠)
(٤) آل عمران (٣٧).
(٥) آل عمران (٣٨ - ٤٠).
(٦) الأعراف (٧٣).
(٧) يونس (٩٠ - ٩٣).
(٨) آل عمران (٤٥ - ٤٩)، المائدة (١١٠ - ١١٥).

القرآن الكريم ما يلبث أن يحدثنا بواقعيته الصادقة أن هذا (الأسلوب) لم يُجْدِ مع كثير من الأقوام السابقة، وأنه أجدر ألّا يجدي مع الأقوام اللاحقة، ومن ضمنهم العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ. ومن ثم كانت معجزة القرآن المنسجمة مع النواميس وحدها كافية لحمل أجيال البشرية إلى طريق الإسلام على مرِّ القرون :

- ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

- ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦].

- ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ [القصص: ٤٨].

- ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

* * *

أما الفعل المباشر المتساوق مع النواميس الطبيعية والمسخر لها لخدمة الجماعة المؤمنة، وضرب العوائق التي تصدها عن تأدية مهماتها، وإنزال العقاب بالذين يصدون عن سبيل اللَّه ويكفرون بنعمائه؛ فهي تحتل مساحة أكبر في القرآن الكريم. ونحن نستطيع أن نتلمسها على وجه الخصوص في الآيات الكثيرة المتعلقة بحركة الدعوة في عهد الرسول ﷺ، والتي أشبعها المفسرون بحثًا فيما أسموه بـ (أسباب النزول). ولنا الآن أن نستعرض نماذج من هذا الفعل في القرآن:

- ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩].

- ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم

مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

- ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٨، ٥٩].

- ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

- ﴿ ... وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [الرعد: ١٣].

- ﴿ ... وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١].

- ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦].

- ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[الأعراف:١٣٠].

- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

- ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

- ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت: ١٦ - ١٨].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

ويبلغ التهديد باعتماد المشيئة الإلهية للقوى الطبيعية لمواجهة الكفر والغرور البشريين حدًّا كبيرًا من الوضوح والقوة في عدد من الآيات وتزداد نبرته ارتفاعًا:

- ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩].

- ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

- ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠].

وفي هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، في معارك بدر والخندق وحنين وغيرها، تتجاوز المشيئة الإلهية اعتماد السنن والنواميس الطبيعية (المادية) وتصدر أمرها إلى الملائكة، وإلى جند اللّه التي لا ترى من قوى الكون الروحية أن تنزل إلى (الساحة) لكي تقف إلى جانب المؤمنين ورسولهم وهم يجاهدون من أجل (تنفيذ) حكم اللّه في الأرض:

- ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال: ٧ - ١٤].

- ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٦].

- ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ

أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

- ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

إننا إذن - ونحن نتكلم على الفعل الإلهي المباشر - أمام قوتين كونيتين يسخرهما اللَّه لتحقيق كلمته: قوة الطبيعة المادية المنظورة، وقوة الروح غير المنظورة. في الأولى نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة الصلف والكفر والغرور البشري: السيل، الجفاف، الحاصب، الصيحة، الخسف أو الزلزال أو الرجفة، الغرق، الصاعقة، الطوفان، الحشرات، المطر العنيف، الأوبئة، الريح العاتية، الإماتة الجماعية، تمزيق المجتمعات، الخوف، الجوع ثم الدمار الشامل دون إشارة إلى وسيلة بالذات.

وفي الثانية نلتقي بجند اللَّه الذين لا يرون، بحشود الملائكة، وبالطاقات الروحية التي لا تحدها حدود، والتي تستطيع في لحظات أن تقلب الهزيمة إلى نصر وأن تمنح القلة المجاهدة مقدرة هائلة على المقاومة والثبات ... ودائمًا تكون قوى الغيب التي لا ترى، والتي لا تعمل فيها مقاييسنا النسبية التجريبية الظاهرة؛ أكثر قدرة وأسرع عملًا ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] !!

* * *

إن إحدى الملامح الأساسية التي تميز التفسير الإسلامي عن سائر التفاسير أنه يفرد للبعد الغيبي، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا، مساحات واسعة. ويجعله أحد الشروط الأساسية للإيمان، بل أهمها على الإطلاق؛ إذ بدونه لن تتحقق أية تجربة إيمانية، إيمان بم؟ باللَّه الذي لا تدركه الأبصار، وبعملية خلقه الدائمة التي تند عن إحاطة الإنسان ذي المنافذ الحسية المحدودة والقدرات العقلية النسبية، وبوحيه الذي ينقل للبشرية تعاليم السماء بواسطة أنبياء اللَّه ورسله، ومعطيات هذا الوحي البعدية من إيمان بالبعث والحساب

والجزاء، ومن ثم كان أي تردد إزاء اليقينيات الغيبية التي يطرحها القرآن، أو التي تنبثق من أعماق البداهات الفطرية إنما هو رفض للقاعدة التي لا يقوم بدونها إيمان.

إننا نلتقي في أول مقطع من كتاب اللّٰه بهذه البديهية، وتتوالى بعد هذا فيما يزيد على الخمسين موضعًا: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

ومن ثم فإن لنا - على مستوى الحركة التاريخية - أن نتصور مدى المساحة التي يشغلها الغيب في صياغة الأحداث وتوجيهها. ابتداء من خلق الأشياء والأحداث بقوة الكلمة (كن) والتي لا ندري بمقاييسنا النسبية المحدودة كنهها وأبعادها. وانتهاء بمصائرنا اليومية، الفردية والجماعية، والتي يختم عليها الموت الذي يجيء على حين غفلة، متخطيًا أي تحديد مسبق، ومتحديًا أية قدرة طبيعية على صده عن أداء مهمته :

- ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

- ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وبين هذا وذاك كل أحداث التاريخ ووقائعه التي أخذت هذا الاتجاه أو ذاك أو اكتسبت هذه السمة أو تلك، والتي لم يكن الإنسان والطبيعة فيها سوى استمرار، حر أو مقدّر، لما يدور في ساحة الغيب وفق مقاييس الحق والعدل الأبديين.

إن تاريخ البشرية، منذ فجره وحتى تقوم الساعة، يشهدنا على امتداد مطامح الإنسان ورؤاه ومنازعه صوب عالم الغيب، وتجاوز الملموس والمنظور. وهذه الرغبة في الامتداد إلى ما وراء النسبيات والحواجز المادية، مركزة في جبلتنا الآدمية، محفورة في ثنايا فطرتنا كحفر الخطوط المتعرجة الثابتة على إبهام كل إنسان، وإننا برفضنا هذا البعد الغيبي نمارس عملية تزييف وتزوير في تفسيرنا للتاريخ البشري، ونلغي في حسابنا مساحات أساسية واسعة من فاعلياته ومعطياته، لا لشيء إلا لأنها تخضع لمقاييس الحس وموازين التجريب المادي المباشر، ولكن من قال أن وجدان الناس وعواطفهم وتكوينهم الفطري الأصيل وبداهاتهم اليقينية ومنازع نفوسهم، بما تعكس جميعًا من

معطيات، إنما هي خارجة عن نطاق التاريخ؟ أليس هو تاريخ الإنسان؟ فكيف نستبعد من حركته وننفي من ساحته أشد تجاربه ومعطياته التصاقًا بالوجود البشري ؟

إنه ما دام هناك (موت) يجيء فيحسم حياة الإنسان على الأرض، ويكفها عن البقاء والامتداد؛ فإن معنى هذا أن يتوق الإنسان للتعويض عن هذا الانقطاع بالخلود في عالم آخر باقٍ ممتد لا تقطع فيه ولا غياب. وإن الأديان جاءت لكي تمنح الإنسان معادلة منطقية متوازنة تمكنه من مجابهة تحديات الموت، وفق موازين إلهية عادلة، وقيم فوقية شاملة، يتجاوز بها الإنسان التخبط والارتجال في تجربته الدينية إزاء الغيب. أن الموت الذي لا يستثنى من واقعته أحد، والذي يحدثنا القرآن عنه في أكثر من موضع:

- ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨].

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

- ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠].

- ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

الموت؛ هذه الواقعة القائمة التي لن يفلت من نزولها أحد، لا يجيء - في التصور القرآني - بمثابة نقمة أو عقاب ينزل على رؤوس الناس، كما هو الحال في التصور الكلاسيكي الذي يبرز واضحًا في (التراجيديا) اليونانية، إنّما هو (واحد) من تحديات كثيرة في عالم الإنسان من أجل أن تبعث فيه التوتر الدائم والطموح الأبدي للتغلب والتفوق والانتصار، وتمنعه من أن يسلم نفسه للكسل والتراخي والاتكالية التي تقف على النقيض تمامًا، مما يتطلبه التاريخ البشري من حركة وفاعلية وردود مستمرة على التحديات القائمة. ومن ثم فإن لنا أن نتصور المساحات الواسعة في التاريخ، تلك التي شكلتها هذه الردود الدائمة على تحديات الموت ابتداءً من طموح الإنسان إلى الخلود الكامل وتشبثه بالأديان التي يصنعها على هواه أو يتلقاها عن السماء لكي تمنحه هذا الأمل الكبير. وانتهاءً بكثير من فاعلياته في ميادين الفكر والفن والاجتماع والإبداع لتحقيق بعض من هذا الأمل في الخلود الذي يطمح إليه.

إن نزوح الإنسان إلى الخلود ، وامتداده إلى عالم الغيب، وتشبثه - بالتالي - بالأديان التي تتجاوز به دوائر المنظور والملموس وحواجز الغرائز والشهوات. مركوزة جميعًا

في فطرتنا محفورة في تكويننا، وليس كما يرى (ماركس) من أنها محاولة بورجوازية لإسكات الجائعين وتخديرهم بالوعد بجنة أخرى موهومة غير جنة الأرض التي يتنعم بها المالكون؛ لأن هذا النزوع الغيبي - الديني- سبق في التاريخ ظهور الطبقات وتحكم المالكين بالذين لا يملكون. وليس كذلك ما يراه (فرويد) من أنها محاولة يغطي بها الإنسان على عقدة (أوديب) التي تدفعه إلى كراهية أبيه، فيتحول بهذه التغطية إلى عبادة أبيه، وإلّا كانت عقدة (الكترا) تسوق النساء إلى عبادة إلهات مؤنثة، وليس (إلهًا) يند عن هذا التقسيم البشري النسبي الزائل !!

إن النزوع الديني ليس هذا أو ذاك، إنه أسبق وأعمق وأشمل من أي تفسير يريد أن يرده إلى مقولة نسبية مسبقة لكي يرغمه على الانسجام ومعطياتها، الأمر الذي نجده بارزًا في مناهج الغربيين التي تتضخم في انفعاليتها وتعميميتها إلى حدود الورم والغثيان.

إن القرآن الكريم يحدثنا بشموليته وواقعيته المعهودة عن هذه المسألة ويردها إلى لحظة الخلق الأولى؛ حيث هذا التقابل الفعال بين الموت والخلود، بين الفناء والبقاء ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠]. ونحن نعرف جميعًا ماذا كانت النتيجة، ألا يحصل آدم على الخلود إلا بعد اجتياز تجربة العمل والاختبار وإثبات الوجود في الأرض، والتي لا بد لها من نهاية، وإلا فقدت مبرراتها أساسًا، ويجيء الموت بمثابة إنهاء للتجربة؛ كي يهيأ الإنسان بعدها للحساب العادل على ما قدمت يداه هناك.

وهكذا يبرز الموت مرة أخرى، قيمة إيجابية فاعلة في تاريخ البشرية، وتحد خطير يضع الإنسان دائمًا في مواقع التوتر والرد والفعل والإبداع. أكثر من هذا، إنه يعيده إلى فطرته الأصلية وتكوينه الذاتي لكي لا يركن إلى حواسه وغرائزه وحدها فيطفو على السطح ولكي يتذكر دائمًا أن هنالك قوى أخرى، وامتدادًا يتجاوز القريب الملموس إلى آفاق الغيب. وهو (التذكر) الذي كان بمثابة (التذكرة) لركوب قطارات الأديان، وهي تشق الطريق الطويل إلى الأمل الإنساني العميق البعيد: الخلود !! تلك المسيرة التي تغطي مساحات شاسعة في تاريخ البشرية، والتي يمثل إنكارها وتجاهلها أخطر تزييف في محاولات تحليل الوقائع التاريخية وفحص مكوناتها الأساسية.

والقرآن الكريم الذي يسعى دائمًا إلى طرح (المواقف) من كافة زواياها وأبعادها يبين لنا في أكثر من موضع أنه ليس الموت وحده، هذا الخوف الأكبر، هو الذي يعيد

الإنسان الذكي البصير إلى فطرته، ويمنحه التذكرة، إنما هناك مخاوف أخرى عديدة وتحديات طبيعية واجتماعية متنوعة، تساعد في خلق هذا التوتر الديني الفعال الذي يستمر ويزداد تألّقًا لدى الذين يقدرون على تفتيت رين قلوبهم وكسر قشرة الصدأ المحيطة بعقولهم وأفئدتهم. بينما يغور ويختفي مرة أخرى، بمجرد زوال الخطر القريب لدى الذين لا يزالون يتحركون ببطء عند حدود الملموس والمنظور، وتمنعهم غرائزهم وشهواتهم الهابطة عن رؤية فطرتهم - على حقيقتها - ومد موقفهم النسبية إلى كليات الإيمان الشاملة التي جاء بها الدين؛ لكي يتجاوز بالإنسان الواقع إلى ما وراءه، والطبيعة إلى الغيب :

- ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

- ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء: ٦٧ - ٦٩].

- ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٣].

ومهما يكن من أمر فإن الحس الديني كامن في نفوسنا، تفجره لحظة الصفاء والتأمل والانسجام، تمامًا كما تبرزه واضحًا لحظات المخاوف والمخاطر والأحزان. وهو حس يمكن أن نرده إلى حاجة الإنسان الأبدية العميقة إلى قوة أكبر من قوته المحدودة الزائلة. ينتمي إليها ويحتمي بها في مواجهته للعالم والطبيعة والتاريخ. وما أكبر المساحة التاريخية التي يغطيها هذا (الحس) في امتداده وارتداده على السواء !!

* * *
* *
*

الواقعة التاريخية (٣)

أما الفعل الإلهي غير المباشر في التاريخ، فيجيء عن طريق الحرية الإنسانية ذاتها، والتي هي في مداها البعيد جزء من إرادة اللّٰه في خلق الأفعال والأحداث. لقد منح اللّٰه الحرية للإنسان ابتداء لكي يصنع تاريخه الفردي والجماعي ولكي يشكل مصيرهما معًا، اعتمادًا على ما ركب في وجوده من قوى العقل والإرادة والانفعال والحس والحركة.

والإنسان - بدوره - عندما يستخدم حريته لصياغة الحدث وتوجيه المصير، إنما يعتمد على مقدمات لا يمكنه - بحال - الاستغناء عنها : الزمن، التراب، ثم التعاليم والنظم والقيم والأعراف والتقاليد، وضعية كانت أم دينية. ويبلغ من التناغم والتداخل والتشابك بين إرادة اللّٰه وإرادة الإنسان - على خلاف النظرة الغربية - حدًّا يصعب علينا معه التفريق والفصل والقول بأن هذا من عمل اللّٰه وهذا من عمل الإنسان، وإن كانت القاعدة الأساسية التي يجب ألا تغيب عن أذهاننا لحظة، أن (الكل) من عمل اللّٰه (قل: كل من عند اللّٰه) !! إلّا أن عمل الإنسان من خلال العلاقات الكونية الشاملة، يمتلك حريته الكاملة في الصياغة والتخطيط والتنفيذ واستغلال النتائج، الأمر الذي لا يضعنا أمام ما يسميه الغربيون (معضلة القدر والحرية) التي سنعود للحديث عنها بعد عرض نماذج من الفعل الإلهي من خلال الإنسان، أو الفعل الإنساني الحر في إطار المشيئة الإلهية الشاملة والعلم الرباني الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء:

- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

- ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

- ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [النحل: ٣٤].

- ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦، ١٧].

- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

- ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣].

- ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

- ﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

- ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤].

- ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

- ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦].

- ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

- ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

وهكذا.. ففي الفعل الإلهي عن طريق الإنسان يمارس الإنسان حريته الكاملة في حدود قدرته وخبراته وإمكاناته الذاتية والمؤثرات البيئية التي تعمل عملها فيه. والنتيجة التاريخية - التي ترتبها المشيئة الإلهية على التجربة الفردية أو الجماعية - إنما تجيء منبثقة عن طبيعة التجربة، متشكلة بشكلها، حاملة بصماتها، مستمدة غذاءها ودماءها من عجينتها وشرايينها، وهذا هو العدل بمفهومه الدقيق الكامل.

إنه بدون (الحرية) لن يكون هناك أبدًا معنى (للموقف الإنساني) أو مغزًى للخير والشر، كما إنه لن يكون هناك هذا المعنى أو المغزى ليوم (الحساب) الذي يترتب بداهة على اختبارات الناس الحرة. إن هذه الحرية - فضلًا عن ذلك - هي بمثابة تحدٍّ فعال للإرادة البشرية تحفظ توترها الدائم، وتضعها دائمًا في موقف الفعل والانفعال إزاء الأحداث والأشياء، ومن ثَمَّ تجيء بمثابة الخلفية الأساسية لحركة التاريخ البشري، صعودًا وهبوطًا، وبدون حرية لن يكون هناك تحدٍّ ولا توتر ولا مقاومة ولا حركة، وسيجد الناس أنفسهم ساكنين أو مساقين، دونما تقرير إرادي ذاتي مسبق، إلى مصائرهم، ودونما مقاومة أو عناء. إن الحرية في القرآن هي (المسؤولية)، وبدونها لن تكون هنالك مسؤولية أبدًا، ولن يكون هنالك معنى لدعوات الأنبياء - عليهم السلام - جميعًا.

ولقد مرت بنا قبل قليل آيات ومقاطع، بينت لنا، أكثر من مرة، أن الدمار التاريخي - بأبعاده المختلفة - ما كان ليحيق بجماعة ما، إلّا أن يمارس في نطاقها، قواعد وقيادة، ظلمًا وفجورًا وترفًا وإجرامًا. ولقد كانت مشيئة اللّه تمنح الجماعة البشرية الفرصة الكاملة للحياة الطيبة العادلة السعيدة المؤمنة، ولكنها كانت تضيع هذه الفرصة فتضيع. وكثيرًا ما أعلن القرآن أن أبواب السماء وبركاتها مشرعة لمن يريد الاستزادة، فقط أن يعرف كيف يسير وأين يضع خطاه، وإلى أي هدف يسعى. وأن أية نتيجة تاريخية خارجية ما كانت لتنفذ إلّا على ضوء (التغييرات) الذاتية التي يمارسها الإنسان على المستويين النفسي والأخلاقي، وفي نطاقي الفرد والمجتمع.

ونلتقي من خلال العرض آنف الذكر، بعبارات قرآنية تصل بنا إلى منتهى الإيجابية والتناسق بين إرادة الإنسان وقدر اللّه ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾، ﴿ .. فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾. ويبلغ من هذا التناسق والتناغم والتكامل أن يعرض لنا القرآن أحيانًا لوحات فذة يفجر فيها اللّه - سبحانه - طاقات الطبيعة الهائلة لخدمة الإنسان (المؤمن) الذي يعرف كيف يقف، والقوى التي سخرت له من ورائه أمام اللّه حامدًا شاكرًا مسبحًا، كما يعرف كيف يبني بهذه الطاقات، وبأمر اللّه، عالمًا متقدمًا معمورًا:

- ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا

شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٣].

- ﴿ ... وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[ص:١٧ - ٢٠].

- ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

- ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٣٥ - ٤٠].

والحق أن التقسيم الذي يشهده هذا الفصل بين مصادر الفعل التاريخي لغرض التوضيح فحسب، يكاد يكون معتسفًا؛ لأن الآيات القرآنية نفسها - إلّا قليلًا منها - لا تسمح بهذا، وبإمكان أي قارئ أن يرجع لكي يتمعن في النماذج السالفة المختارة من بين مئات غيرها لكي يرى هذا التداخل العضوي الحيوي، والتشابك الصميم في الجزئيات والكليات بين مصادر الفعل. ونحن دائمًا ننسى - بسبب تضخم شعورنا الإنساني وتحوله إلى ما يشبه الورم الذي يمنع الرؤية الحقيقية - ننسى أننا لا نعدو أن نكون جزءًا من خلق اللّه، وأن إنسانيتنا جاءت منة وتفضلًا من اللّه، وأن علمنا وخبراتنا ومقدرتنا على العمل، لا تقاس - لا بالنوع ولا بالكم - بعلم اللّه الشامل المحيط، وقدرته الخلاقة التي لن يعجزها شيء.

ومع ذلك، فقد منحتنا الرؤية القرآنية أفضل مركز في الكون، وأعطتنا مكان السيادة على العالمين وفضلتنا على كثير من خلق اللّه تفضيلًا، وهي المسألة التي سنوضحها فيما بعد. ومن خلال هذا المركز والمكانة والتفضيل منحنا حرية للاختيار والفعل لم تمنح لأحد من العالمين، وجاءت على درجة من الامتداد والتوغل والانتشار بحيث تغطي تغطية كاملة الوجود البشري الحر لأي واحد منا كإنسان فرد ولأية جماعة في التاريخ كوحدة تشدّها قيم ومبادئ وأعراف وأهداف.

ولقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع، هذه الحرية، وقدم عشرات النماذج الواقعية لمجالها الواسع على المستويين الفردي والجماعي. ولكنه كان ينبهنا دائمًا، كي لا يفلت

الخيط من أيدينا وتتحول مواقفنا التاريخية إلى درامات كلاسيكية مصطنعة وصراع (دون كيشوتي) لا مبرر له، كان ينبهنا دائمًا إلى أن حريتنا الكاملة المنطبقة انطباقًا هندسيًّا باهرًا مع وجودنا أفرادًا وجماعات ما هي إلّا دوائر تعمل بتوازن وتناغم وتداخل، ضمن الدائرة الأكبر التي يرسمها علم اللّه الشامل وتحيط بها إرادته التي لا يقفها شيء. ويعود فيؤكد لنا مرارًا أن النتائج النهائية للفعل البشري - الفردي والجماعي - تجيء منبثقة، بمنطق عادل لا يعرف زيفًا أو التواءً، عن أفعالنا، تحمل طبيعتها وتكوينها وملامحها وتتغذى بعجينتها التي جبلناها نحن، وتشرب من شرايينها التي سهرنا على مدها بالدماء النقية الحمراء أو الكالحة الزرقاء التي تسود وتسود حتى لتكاد تحترق فتكون دخانًا !!

ولا يتصورَنَّ أحد أن القرآن الكريم يبقي مسألة القدر والحرية في نطاق الإنسان الفرد ولا يخرج بها عن دائرة التأويلات والزوايا الفلسفية والنفسية والأخلاقية؛ ذلك إننا نلتقي - إلى جانب الآيات التي تحكي عن المستوى الفردي - بعشرات من الآيات والمقاطع القرآنية التي تنتقل إلى المستوى الجماعي وتعرض المسألة في صيغها التاريخية والحضارية. وهي - كعادة المنهج القرآني الذي يرفض التجزئة والانفصالية - تربط دومًا بين الأرض والسماء وتتخذهما مسرحًا ذا خشبة واحدة عريضة تتحرك عليها الجماعات البشرية؛ لتؤدي دورها ولتكافأ على هذا الدور بما يوازي حجمه ويتلاءم مع جنسه، هنا في الأرض أولًا، ثم هناك في السماء فيما بعد.

ولنا بعد ذلك أن نتمعن في عدد من النماذج القرآنية التي تطرح علينا المسألة وفق أكثر الزوايا موضوعية وأشد المواقف عدلًا وتماسكًا وأوسع الرؤى توغلًا في صميم التجربة البشرية :

- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤ - ١٤١].

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٧].

- ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٥٥].

- ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

- ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

- ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ٩٣].

- ﴿ ... وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

- ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤].

- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الاعراف: ٩٦].

- ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

- ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨].

- ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

- ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١].

- ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

- ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

- ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

- ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٦ - ١٠٨].

- ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦].

- ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

- ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

- ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

- ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

هذا على المستوى الجماعي لمسألة القدر والحرية. إننا نرى بوضوح من خلال هذه النماذج القرآنية كيف أن أية جماعة أو أمة إنما هي مسؤولة عن فعلها فحسب؛ إذ ليس من العدل أن تحمل نتائج أفعال غيرها من الجماعات، يفصلها عنها الزمن أو المكان،

كما نرى كيف تكافأ الجماعة الواحدة بجزاء يستمد عجينته من بنية التجربة التي تمارسها هذه الجماعة إن خيرًا أو شرًّا. ومن ثم تجيء رحمة اللَّه، أو يجيء (ختمه) على القلوب والأسماع والأبصار.

إن اللَّه - سبحانه - يمنح نعمه التي تنزل وفق النواميس، بالقسطاس، على الأمم والشعوب، إلّا أن الجماعة التي تسيء التصرف، وتطغى وتتجبر، ويسوقها الطغيان والجبروت إلى الكفر والمروق والتمرد على النظام الكوني ومبدعه، فإن العقاب في الانتظار. وإننا لنلمح في الآية (٢٨٦) من سورة البقرة موقفًا مغايرًا تمامًا لما عودتنا عليه الرؤى الغربية منذ عهد (اسخليوس) حتى (يونسكو) و (بكت). موقف التعاطف بين اللَّه والإنسان وغفران اللَّه لكل ما من شأنه أن يصدر عن ضعف الإنسان وعجلته وأخطائه غير المتعمدة، ونسيانه. ودعوة الإنسان لخالقه ألّا يحمله في حياته الدنيا أكثر من طاقته !!.

وتتدفق الصور والمواقف بعد هذا. فنجد في آية (الجاثية ٣٨) الأمم والجماعات تجثو عند بارئها، فيعرض عليها كتابها الذي هو حصيلة فعلها التاريخي في الأرض، ثم يكون الجزاء وفق خامة الفعل نفسه. ويتقدم الشهود (النساء ٤١) أنبياء وزعماء؛ لكي يدلوا بكشف كامل وشهادة عادلة عن الدور الذي لعبته أمتهم في التاريخ. وفي آية (التوبة: ٥١) يمتد قدر الإنسان لكي يلتقي بإرادة اللَّه، فيتعانق معها بانسجام وتوافق لا يدع مجالًا لتردد أو خوف أو حزن.

وفي آيات أخرى نجد تأكيدًا دائمًا على استمرارية الجزاء على الفعل وتواصله في الأرض والسماء. وثمة آيات أخرى تبين لنا أن من يرد (لاحظ فعل الإرادة) ثواب الدنيا فله ذلك، ومن يرد ثواب الآخرة فلن يصده عن هدفه شيء. وفي آية (النحل: ٤١) دعوة للجماعة المؤمنة لأن تتحرك وألا تقف ساكنة إزاء الظلم والطغيان، ومن أجل أن تحقق (بإرادتها) (الأحسن) و (الأفضل) في دنياها وآخرتها.

وكثيرًا ما تنتهي الآيات القرآنية في هذا المجال بعبارة ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ تعقيبًا على الجزاء الذي يلحق بأمة أو جماعة. وفي آية (الأحقاف: ٢٠) نلتقي بالأفعال البشرية ﴿ أَذْهَبْتُمْ ﴾، ﴿ وَاسْتَمْتَعْتُم ﴾ واضحة في نسبتها إلى الإرادة الحرة، الأمر الذي يجعل الجزاء عادلًا إزاء جماعة أذهبت بإرادتها طيباتها واستمتعت بها بغير الحق. وما أكثر ما كانت دعوات الأنبياء والمرسلين للجماعات البشرية تجيء لكي تناديهم أن

(يختاروا) طريق الايمان؛ لكي يحظوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة. وما كان لأي من هؤلاء المرسلين أن يلزمهم إلزامًا بالانتماء إلى دعوته !!

ثم تجيء الآيات الأخيرة في هذا العرض إشارة حاسمة إلى أن اللَّه - سبحانه وتعالى - ما كان ليضرب جماعة ما، أو أحدًا من عباده، قبل أن يبعث إليهم بالنذير، ويدلهم على الطريق، ويعطيهم الفرصة لكي يختاروا بملء إرادتهم أن ينتموا للحق كجزء من خطة العدل الإلهي الشاملة في سياسة الكون كله. إن الصور القرآنية هنا تبدو مغايرة في جوهرها للصيغ التي طرحها الغربيون منذ عهد اليونان وحتى القرن العشرين عن العلاقة بين اللَّه وعباده.

إن (القدر) في تصورهم ضربة مفاجئة تجيء على حين غفلة لكي تقصم ظهر الإنسان، ودعابة درامية ثقيلة ومحزنة تصور الآلهة، وهم يرسمون الخطط الخبيثة لإيقاع العباد في الشباك التي نصبت بمهارة. إن الصورة القرآنية تكنس في طريقها هذا الغثاء؛ لكي تعيد صيغة العلاقة بين الناس وأقدارهم إلى موقعها الإنساني، المنطقي، العادل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٨].

أكثر من هذا، أن القرآن الكريم يبين لنا بوضوح أن اللَّه سبحانه وضع الحجة والبرهان في قلب كل واحد منا، وركز الدلالة إليه في فطرة كل إنسان لحظة بعثه إلى الحياة، ومن ثم حمله المسؤولية، وفق هذا الامتداد الباطني، في أن يختار - بإرادته - الطريق الذي يقوده إلى اللَّه، انسجامًا مع تكوينه الذاتي ومعطياته الفطرية الأساسية. وبهذا يؤكد الإسلام موقفه الإنساني المفتوح، ورفضه الكلي للقدرية التراجيدية القائمة على الغشم والمفاجأة. هذا التاكيد الذي يجيء وفق تحذيرات وإشارات تنبثق من داخل كل إنسان كشهادة حرة - ابتداء - ثم تصدر إليه مرة أخرى من الخارج عن طريق رسل اللَّه.

- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

- ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

هذا على النطاق الجماعي لمسألة القدر والحرية، فأما على النطاق الفردي فهنالك آيات كثيرة تضرب على نفس الوتر، وتطرح علينا ذات القيم والمعاني:

- ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

- ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤].

- ﴿ ... وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

- ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

- ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

- ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

- ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

- ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٧٠]. هم أعلم بما يفعلون!! وذلك مفتاح القضية كلها !![1].

---

(١) وانظر كذلك: (البقرة: ٢٧٢)، (آل عمران: ٧٣، ٧٤، ٨٦، ١١٧، ١٤٥، ١٧٦)، (النساء: ٦٤، ٧٨، ٧٩، ١١٨، ١١٩) (المائدة: ٤١)، (الأنعام: ١٧، ٢٥، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٥٣، ٦٣، ٦٤، ١٠٤، ١٠٧، ١١١، ١١٢، ١١٧، ١٢٣، ١٢٥، ١٣١، ١٤٤، ١٤٨، ١٤٩)، (الأعراف: ٢٧، ١٣١، ١٤٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٦)، (الأنفال: ١٧، ٢٣، ٢٤)، (التوبة: ٢٤، ٤٦، ٥١، ٧٧، ٧٨، ١١٥)، (يونس: ١٣، ٢٢، ٢٣، ٧٤، ٩٦، ٩٧، ١٠٠، ١٠٧)، (الرعد: ٢٧، ٣١، ٣٣)، (إبراهيم: ٤)، (النحل: ٣٥، ٣٧، ٥٣، ٥٤، ١٠٤، ١٠٨)، (الإسراء: ٤٦، ٤٧، ٩٧)، (الكهف: ٢٨، ٢٩، ٥٧، ١٠١)، (مريم: ٧٦)، (طه: ١٢٤، ١٢٥)، (الحج: ١٦، ٥٣، ٥٤)، (النور: ٤٦)، (الفرقان: ٣١)، (الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١)، (النمل: ٨١)، (القصص: ٥٦، ٦٨، ٦٩، ٨٥)، (العنكبوت: ٦٢، ٦٩)، (الروم: ٩، ٢٩، ٣٧، ٥٩)، (السجدة: ٣، ١٣) (الأحزاب: ٢٨)، (سبأ: ١٧، ٣٦، ٣٩)، (فاطر: ٨، ١١، ٢٤)، =

إن معظم الآيات التي تتناول الموضوع تؤكد على (الموقف) التالي: إن اللّه - سبحانه وتعالى - لا يطبع على قلب الإنسان ويختم على مصيره بالكفر أو الإيمان إلّا بعد علم مسبق بتكوين هذا القلب وطبيعة نبضه كمًّا ونوعًا. وهذا التكوين المسبق ليس أمرًا (مجبرًا) عليه الإنسان، بل هو ثمرة اختياره الحر المتأثر بظروف البيئة والوراثة التي هي بدورها حصيلة البيئة على مر الزمن. ومن ثم فإن إصرار القرآن على أن يكون المجتمع المسلم خاصة، أو أي مجتمع مؤمن عامة، ملتزمًا إيجابيته (الأيدولوجية) وموقفه الإيماني الحركي الصحيح، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإقامة لحكم اللّه في الأرض، معناه السعي الجاد لإيجاد البيئة (والأرضية) والمناخ التي تتيح لأكبر عدد ممكن من الناس والجماعات أن تتفتح قلوبهم للحب والإيمان والخير، وأن تمتلك أفئدتهم القدرة على التعامل الفعال مع شريعة اللّه؛ لكي يصوغوا وجودهم ومصيرهم، بما يطمح إليه ويتمناه كل إنسان.

* * *
* *
*

=(يس: ٤، ١١)، (الزمر ٣، ٩، ١٩، ٢٢)، (غافر: ٦٧)، (فصلت: ٥، ٦، ٤٤)، (الشورى: ٨، ١٣، ٢٦، ٣٠، ٤٤، ٥٢)، (الزخرف: ٢٠، ٣٦، ٤٠)، (الجاثية: ٢١، ٢٣)، (محمد: ١، ٨، ٩، ١٧، ٢٣، ٢٤، ٢٩)، (الفتح: ١٨)، (الحجرات: ٧، ١٧)، (ق: ١٦، ٢٧)، (الحديد: ٢٢، ٢٣)، (الحشر: ١، ٦)، (الصف: ٥)، (المنافقون: ٣)، (التغابن: ٢، ١١)، (الإنسان: ٣٠، ٣١)، (التكوير: ٢٩)، (المطففين: ١٤)، (الأعلى: ٣، ١٠، ١١)، (البلد: ١٠)، (الليل: ١، ٢١).

الواقعة التاريخية (٤)

إن مسألة الحرية الإنسانية تقودنا - بالضرورة - **إلى طبيعة العلاقة بين الإنسان وبين عملية تكوين الحدث التاريخي**. وإذا كان القرآن قد حدثنا - بصدد الفعل الإلهي المباشر - أن اللَّه سبحانه يخلق بالكلمة الوقائع والأشياء والموجودات والأحداث بأن يقول لها: كن فتكون، فإن لنا هنا أن نتمعن في طبيعة العلاقة المتبادلة بين الإنسان وبين الحدث، فعلًا وردّ فعل، في عملية الخلق، وفي المؤثرات التي تنعكس في أعقاب هذه العملية على سلوكية الإنسان.

إن القرآن يتوغل بعيدًا في هذه المسألة، إنه يتجاوز منطق التسطيح الذي سلكته بعض مذاهب التفسير، وبخاصة المادية التاريخية، في رد كل تصرفات الإنسان إلى الانعكاسات المادية التحتية، أو (المثالية الهيغلية) في جعلها كل تصرفاته تخضع لمسيرة العقل المنظم الكلّي. إن القرآن يتيح -منذ البدء - من خلال عروضه لمسألة الحرية الإنسانية، مركزًا ممتازًا للدور البشري في الأرض. فهو من جهة مستخلف في الأرض والذي قدّر له أن يصنع أحداث تاريخه بإرادته واختياره، سلبًا وإيجابًا:

- ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

- ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

- ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهو من جهة أخرى يجد أن كتلة السموات والأرض قد سخرت له لأداء مهمته هذه. ومن ثم تجيء إرادته الحرة في صياغة الأحداث، صدورًا فوقيًّا عاقلًا مريدًا يخضع التحتيات ويشكلها كما يشاء هو، مع تأثره بطبيعة الحال بنواميسها وعلاقاتها المادية وأبعادها وأحجامها ومساحاتها. لكن الكلمة الأخيرة في الصياغة تجيء دائمًا على يد الإنسان الفاعلة المتفننة القديرة. أكثر من هذا، إن القرآن يصعّد الموقف، ويتجاوز به كل ما من شأنه أن يحيطه بالغموض وعدم الوضوح، بل إنه يحسم المسألة بهذه الآية القاطعة: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهكذا يتبوأ الإنسان مركزه المنطقي العادل في الأرض كسيّد للعالمين، فهو يخضع ولا يخضع، يصوغ ولا يصاغ، يخطط وينفذ ولا يتخذ مجرد أداة لتنفيذ خطط الطبيعة ومتطلبات العلاقات المادية. مع هذا التحفظ الدائم الذي نطرحه مرارًا كيلا نخرج عن حدود العلم الذي يغرسه القرآن في نفوس الباحثين، وهو أن الإنسان، كما أنه يفعل في المادة خلال صياغة الواقعة التاريخية، فإنه ينفعل بها أيضًا، وهذه بديهية لا تحتاج إلى تأكيد بطبيعة الحال. والمهم هو الإجابة عن هذا السؤال : لمن الكلمة النهائية في صياغة التاريخ ؟!

ومهما يكن من أمر فإن علاقة الإنسان بالتاريخ من خلال المعطيات القرآنية تضعه في المصاف الذي أنزلته منه المذاهب الوضعية درجات ودرجات. فأخضعه بعضها لإرادة العقل الباطني للعالم يفعل به ما يشاء كأداة لصياغة الأحداث المتلاحقة ووسيلة لتمرير الصيرورة الدائمة صوب مرحلة التجلّي. وألصقه بعضها الآخر بالأرض، مجردًا إياه من حريته، جاعلًا منه عبدًا ذليلًا مطيعًا لعلاقات الكتل المادية وأحجامها وأوضاعها الديناميكية المتغيرة. إنه في النظرة القرآنية يتخذ موقفه (الفوقي) العادل الذي ينسجم وقدراته المتنوعة المعقدة المتشابكة، ويمكنه من التغيير والتبديل بما يشاء هو لا بما تشاء قواعد المادة تحت قدميه.

ولم تكن حركة الوقائع التاريخية يومًا سوى نتاج هذا التقابل الفعال بين الإنسان وبين المادة، فعلًا وانفعالًا. لكن الذي يمسك بالفعل ويعطيه ملامحه النهائية هو الإنسان وليست الكتلة المادية. وهذا يشبه إلى حد كبير طبيعة العلاقة المتبادلة بين (النحّات) وبين الكتلة التي يعمل إزميله فيها لإخراج (صيغة) كان قد رسمها في ذهنه سلفًا، وها هو يعمل يديه لتنفيذ هذه (الخطة) المسبقة، فإذا ما صادف أن استعصت الكتلة عليه، فإن له أن يستخدم أزاميل أخرى أشد نفاذًا في قلب الصخر والمرمر أو النحاس، وإن له أن يتركها إلى غيرها من الكتل الأكثر طواعية وليونة، أو أن يعدّل في خطته ويبدّل من أجل أن يتمكن من كتلته ويقدر على تنفيذ الخطة.

وهكذا .. فإن الواقعية التاريخية تجيء وفق هذه المدرجات الثلاثة في العلاقة بين الإنسان والعالم التي يبدو الإنسان فيها جميعًا سيّد (الموقف): أن يخضع خامات الواقعة لإرادته كلية، أو أن يتحول عنها إلى خامات أخرى أكثر طواعية لصياغة ما يريد، أو أن يبدّل ويعدّل في جوانب نشاطه وخططه؛ لكي يقدر على صياغة الواقعة مما تحت يديه من خامات.

وسنتكلم في فصل لاحق على ضرورة أن يكون للعالم مقاومة، وأن تمارس كتلة المادية نوعًا من التمرد أو الاستعصاء على الإرادة البشرية داخل إطار التسخير الشامل؛ لأن تلك المقاومة وهذا التمرد أو الاستعصاء هو الذي يستفز رد الفعل البشري ويمكنه من الحركة والمضي إلى غاياته، ويتجاوز بالإنسان مرحلة الكسل والاتكال والسلبية.

فالمسألة في صميمها إذن: تبادل أفعال وردود أفعال بين الإنسان وخامة العالم. إلا أن بدء هذه الحالة الاهتزازية الدافعة، ومفتاحها، يكمن في الإنسان، هذا إذا استثنينا بطبيعة الأمر حالات الطبيعة الشاذة التي تفوق مقدرة الإنسان والتي تجيء عنيفة كاسحة: زلازل وبراكين وفيضانات وجفاف. ولكن حتى هذه، فإن التقنية أعطت للإنسان مقدرة أمضى على تطويعها والسيادة عليها أكثر من هذا، إنها مكنته من تحويلها لصالحه وصالح تطوره الحضاري المتنوع.

من أجل ذلك كان الإنسان عامة، والإنسان المؤمن على وجه الخصوص، غاليًا عزيزًا عند اللّٰه؛ لأنه كلمته الفاعلة في الأرض، وإرادته النافذة في العالم، ومن أجل ذلك كان قتل الإنسان وصده عن أداء دوره (خطأً كبيرًا). أكثر من هذا أنه قتل للناس جميعًا؛ لأن جريمة القتل تجيء هنا موجهة ضد بني آدم، سواء حصدت منهم واحدًا أم مئات أم ألوفًا: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢].

ومن أجل ذلك نادى القرآن بني آدم: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]. وأعلن ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ [النساء: ٩٢]، ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]. هذا بينما يضيع (الإنسان) ويزداد تفاهة ورخصًا في عدد من المذاهب الوضعية التي تجعله مجرد أداة للفعل التاريخي، سواء في عالم الفكر أم في عالم المادة. بل إنها تبيح قتله فردًا وجماعة ما دامت مصلحة (التجلّي) الفكري للعالم أو (مشيئة) التبدل المادي لوسائل الإنتاج قد أمرت بذلك !!

* * *

إن القرآن الكريم يخطو بنا خطوات أخرى، من خلال معطياته عن طبيعة العلاقة بين الإنسان والواقعة التاريخية. ونحن نلمس في هذه المعطيات حفاظه المعجز على الواقعية، والنفاذ، والتوازن، ورفض التوتر على الموقف الواحد أو الرؤية من خلال الزاوية الواحدة، الأمر الذي يكاد يتحكم في مناهج الوضعيين. إنه كلمات اللّٰه. وهي تجيء دائمًا شاملة محيطة، تتعامل مع (الموقف) تعاملًا موضوعيًّا خالصًا فتتفحصه من كافة أطرافه وتتمعن في علاقاته ومكوناته من كل زوايا الرؤية التي تقود إليه.

صحيح أن القرآن يعلن بوضوح - على المستوى الأفقي - تفضيل الإنسان على سائر خلق اللّٰه، وسيادته على العالمين. إلا أنه لا يترك مسألة التوغل (العمودي) في أعماق الإنسان وتكوينه الذاتي المتشكل عن نفخة الروح العلوية في قبضة الطين السفلية. إن هذا التشكل الثنائي، كما أنه يمنح الإنسان الحرية والمقدرة، ويخلق في نفسه مطامح النزوع إلى الاستعلاء، فإنه - من جهة أخرى - يشده إلى الأرض، وإلى المادة، ويقيم بينه وبين غرائزه وشهواته علاقات متشابكة، ومراكز ثقل تسحبه دائمًا إلى أسفل مهما سعى للنزوع إلى فوق. إن طبيعة علاقة الإنسان بالواقعة التاريخية، وهو على هذا المستوى من التعقيد والتداخل والتشابك الناتج عن لقاء الروح بالتراب، تجيء هي الأخرى - وبالضرورة - معقدة، متداخلة، متشابكة، ليست أبدًا على ذلك المستوى من التبسيط والتسطح اللذين نجدهما في عدد من المذاهب الوضعية التي تسعى إلى قولبة العلاقة بين الإنسان والتاريخ وفق صيغة ثابتة واضحة لا تقبل تغيرًا ولا تبدلًا.

إن القرآن بتوغله العمودي العليم بأعماق الإنسان وتكوينه الذاتي، يحدثنا في أكثر من موضع، وبمواجهة إعلانه الأول عن تفضيل بني آدم وسيادتهم. عن نقاط الضعف والسلبية في سلوكية الإنسان. **أولًا**: لكي يوقفه على حقيقته فلا يشذ ولا يطغى معتقدًا أنه قادر على صياغة أي شيء والتحكم في أية واقعة، وصنع تاريخه ناجزًا كما يريد. **وثانيًا**: لكي يستفز فيه قوى التحدي والمقاومة والاجتياز للتفوق على ضعفه وعجزه والتوغل - أكثر - في قلب العالم وهو أشد قوة وأمضى عزيمة وأعمق توحدًا في نسيجه الروحي - المادي على السواء. **وثالثًا**: لأن الإنسان - وبموضوعية تامة - هكذا خلق، يحمل في اللحظة الواحدة والموقف الواحد عناصر قوته وضعفه، ما دام قد ركب وفق هذا الأسلوب وما دام قد أراده اللّٰه أن يكون بشرًا يصارع ويقاوم في الداخل (الجهاد الأكبر) وفي الخارج (الجهاد الأصغر)، لا مجرد ملك يتلقى ويطيع !!

- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].
- ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١].
- ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧].
- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].
- ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١].
- ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].
- ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٣].
- ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠].
- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤].
- ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].
- ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠].
- ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨].
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].
- ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨].

وفي سورة (التين) يطرح القرآن المعادلة البشرية بطرفيها ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [التين: ٤ - ٦]. لكي يبين لنا أن هذا الضعف ليس أبديًّا فينا وأن بإمكاننا أن نتجاوزه ونتفوق عليه. ولئن جاءت المعادلة في هذه السورة على مستوى النشاط البشري كله، فإن القرآن في سورة الأنفال يعرضها محددة في إطار الصراع والقتال، ضاربًا بها التفسير المادي لتقابل القوى مؤكدًا في الوقت نفسه على قوة الإنسان وعلى ضعفه اللذين ينبثقان عن تركيبه الداخلي وإيمانه الذاتي، لا عن أية فرضية خارجية ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن

مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

إن القرآن يسلط أضواءه الكاشفة على كل دوافع الإنسان ونوازعه الباطنية، الشعورية واللاشعورية، ويشير إلى كل مساحات تركيبه الداخلي قوة وضعفًا، صبرًا وتعجلًا، إقدامًا وإحجامًا، أملًا ويأسًا، استقامة وطغيانًا، التزامًا للقيم العليا أو خضوعًا للمال، تصعيدًا للتجربة الروحية أو ارتكاسًا في الشهوات. ليس هذا فحسب؛ بل إنه يدور مع الإنسان، في شتى مراحل عمره التي يتعاقب فيها الضعف والقوة، وكأنه يريد أن يذكرنا بطبيعة الموقف البشري على الأرض عامة، ذلك الذي ينهزم مرة وينتصر أخرى، يضعف حينًا ويقوى حينًا. ولن يجيء ذلك - في الحالتين - إلا انبثاقًا عفويًّا عن طبيعة التجربة التي يعانيها الإنسان أولًا، وعن مدى تأثره بالبيئة المحيطة به ثانيًا.

إن القرآن، بتسليطه الأضواء الكاشفة على هذه النقاط جميعًا، يقدم لنا الإيضاحات النفسية لوقائع التاريخ البشري وأحداثه، ويفسر أسباب الهزيمة والانتصار فيها جميعًا. ويتجاوز (التبسيط) و(الواحدية) اللذين يسطحان الموقف البشري إزاء الواقعة التاريخية ويردانه إلى علاقة رياضية آلية متبادلة بين الإنسان والمادة، وكأن الإنسان صنو للمادة، إن لم نقل تابعًا لها في تغيراتها الداينامية، وكأنه في مقابلته أو خضوعه هذا للتغيرات المادية (ماركس) أو الفكرية (هيغل) لا يعدو أن يكون هو الآخر (وصلة) ميكانيكية، وقطعة آلية لا تنطوي جوانبها على نسيج معقد متشابك صعب من العواطف والأحاسيس والمنازع الروحية والاهتزازات الوجدانية والدوافع والغرائز. والشهوات، والعقد ومركبات النقص والأزمات النفسية، والتخيل والتذكر والتأمل، والشعور واللاشعور، والوعي واللاوعي، والقدرة على الإبداع والتنفيذ أو السلبية والانعزال، والإرادة الذاتية في الرفض أو القبول.

إن رد كل المواقف البشرية إزاء حركة التاريخ إلى انفعال بسيط، لا إرادي، بالمتغيرات الخارجية (الحتمية)؛ يذكرنا بما قاله (ماكيفر) و (جارلس بيج) عن علم النفس الماركسي من أنه « يفتقر إلى الكفاءة » وأن هذا « ربما كان الضعف القتال للحتمية كلها. فقد زعم ماركس أن الإنسان يستجيب للتغيرات التي تدخل في نظام الإنتاج. أما كيف ندخل، فهو لا يقول لنا لأنه يتكلم كما لو كان الأسلوب الفني المتغير في الإنتاج هو نفسه يوضح

نفسه، وهو السبب الأول في صيرورة هي - ببساطة - محتومة. إنه يتجاهل تعقيدات التعوّد من جهة والنفور من جهة أخرى. إنه يبسط النظرات التي تتجمع حول الأنظمة، فالتماسك والإخلاص بالنسبة للعائلة والمهنة والأمة كلها خاضعة للطبقة الاقتصادية. ما يحتمه الاقتصاد، أي بكلمات أخرى لا تحل المشاكل الكبرى للمؤثرات الاجتماعية. وأن الحل الذي استهدفته هذه المحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جدًّا »[1].

ما الذي دفع (نيرون) إلى إحراق روما؟ ما الذي دفع (كيلوباترا) إلى الانتحار؟ ما الذي دفع (تيمورلنك) الأعرج !! إلى إقامة المجازر البشرية في طريقه أو بناء المنائر من جماجم الموتى؟ ما الذي دفع (قمبيز) الإمبراطور الفارسي إلى أن يقتل نفسه؟ ما الذي دفع (روبسبير) إلى حصد رؤوس رفاقه في الفكر والثورة؟ ما الذي جعل (خالد بن الوليد) ينتصر في المعارك التي خاضها جميعًا؟ ما الذي دفع (نابليون) إلى أن يضحي بما يقرب من نصف مليون من خيرة جنده في ثلوج روسيا؟ ما الذي دفع (هتلر) إلى مجازفاته الحربية التي لم يلتفت فيها إلى نصائح وتحذيرات رجالات أركان حربه؟ ما الذي دفعه وأقطاب حزبه إلى الانتحار؟ ما الذي دفع المسلمين إلى تجاوز الأراضي الخصبة في فتوحهم، والتوغل في صحار شاسعة وجبال رهيبة كانت قبورهم تنتظرهم فيها؟ ما الذي مكنهم - وهم الأقل غالبًا عدة وعددًا - من الانتصار على أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم في مقاييس المادة والقوى المنظورة؟ ما الذي دفع السلطان العثماني (عبد الحميد الثاني) إلى أن يرفض منح اليهود أرضًا في فلسطين لقاء تسليف دولته المتعبة قرضًا ضخمًا والتبرع ببناء أسطول بحري لها وتسديد ديونها؟ ما الذي دفعه إلى أن يضحي بعرشه - كما تبين وثيقة هامة بخط يده وجهها إلى رئيسه في الطريقة التي ينتمي إليها - في سبيل أن تبقى فلسطين بأيدي أصحابها الشرعيين؟ !

وعشرات غيرها من المواقف التاريخية الحاسمة، بل مئات، يمكن أن يقدمها سجل التاريخ البشري الحافل. والتي لن تفسرها أبدًا مسألة التبدل في وسائل الإنتاج، بل لن يفسرها أبدًا المنطق المادي في عمومه؛ لأن هنالك من وراء المادة، وفي تكوين كل واحد منا، ذلك المزيج المعقد المتشابك والنسيج الفذ المركب من قوى العقل والروح والعاطفة والوجدان، والغرائز والأعصاب، والدوافع والشهوات، والذي عجز العلم التجريبي حتى الآن - على تقدمه الهائل في ميادين الطبيعة والرياضة - أن يكشف عن

---

(١) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

واحد بالمائة من بواطن هذا الكائن المتفرد (المجهول)، كما يقول ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة، وكأن تحليله العلمي الدقيق هذا يجيء مصداقًا لما طرحه القرآن الكريم، بتركيز بالغ، عن الروح البشري ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

* * *

ولقد انعكس موقف القرآن الموضوعي المتشعب من الإنسان، على المعطيات العقائدية والتشريعية للإسلام نفسه؛ لكي يكون أكثر واقعية وانسجامًا مع التكوين البشري... فبينما نجد عددًا من المذاهب الوضعية تنطلق من نظرتها (الواحدية) و(التبسيطية) لحركة التاريخ إلى صب الناس جميعًا في قالب واحد، شاؤوا أم أبوا، وطمس تفردهم وتميزهم الذي يجعل كلًّا منهم (عالمًا قائمًا بذاته)، مع ارتباطه الفعال ببني جلدته، ووضعهم في خط تشابهي واحد، وقسرهم على أن يعيشوا تجربة واحدة، ويروا رؤية واحدة، وكأنهم أرقام متشابهة صمّاء، أو كتل حشرية تعمل في مستعمرات للنحل أو للنمل؛ نجد الإسلام – من خلال قرآنه وسنة نبيه ﷺ – يضع أسسًا مرنة لحركة التاريخ البشري وتشكيل المصير، فهو يرسم الخطوط الأساسية العريضة للنظام والفكر الذي يلزم به أفراد المجتمع الإسلامي من المنتمين للإسلام، عن طواعية واختيار بطبيعة الحال، كي يغدو كل واحد منهم متجانسًا مع الآخرين، متسقة تجربته مع تجربة الأمة الأكبر والأشمل، وقادرًا – من ثم – على الإسهام – بشكل أو بآخر – في حركة تاريخها.

إلا أن الإسلام – من جهة أخرى – يفتح الطريق أمام (المتفوقين) الذين تجاوزوا مواقع ضعفهم، وانتصروا على قوى الشر التي تشدهم إلى أسفل للوصول بجهدهم الدائب وعطائهم المبدع إلى القمم التي لا يستطيع بلوغها، إلا القلة الطليعية الفذة. وهؤلاء هم الذين تقع على عواتقهم مسؤولية توجيه التاريخ وتشكيل حركته، شرط أن يضمنوا مسيرة الجماهير وراءهم، وإلا فإنهم سيصعدون وحدهم، وسوف تتسم تجربتهم بالفردية ولا تنعكس بشكلٍ كافٍ على مسيرة الأمة كلها في إطار النظام والفكر الإسلامي.

ومن ثم يلزم القرآن، هذه الطليعة المؤمنة، المبدعة، المتقدمة، أن تندمج في موكب الجماهير، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، ويحذرها من الانعزال (الرهباني) السالب في إطار تجربتها الذاتية؛ لأن هذا لا يعدو أن يكون تجميدًا للطاقات الإبداعية وتجريدًا للمجتمع من قدراته الخلاقة. إن هذا التأكيد على لقاء الفرد بالجماعة، والقيادات

بالجماهير، والقلة المبدعة بالكثرة المتّبعة، والذي يغطي مساحات واسعة من معطيات القرآن الكريم يقودنا إلى مسألة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها في نطاق معالجتنا للواقعة التاريخية والقوى التي تصوغها، تلك هي مسألة الدور الذي يلعبه كل من الفرد والمجتمع، أو البطل والجمهور، في عملية الصياغة التاريخية هذه.

* * *

وفي كل المواقف، وإزاء سائر القضايا الأساسية، يصدر القرآن عن قاعدته الشمولية، المتوازنة، المحيطة، التي لا تغفل ولا تتطرف ولا تهمل ولا تتوتر، فتضيع الحقيقة - كما هو الحال في المناهج الوضعية - وسط هذا الإغفال والتطرف والإهمال والتوتر؛ لأنها تصدر عن قواعد جزئية، قلقة، نسبية.

إننا حيثما تلفتنا، وجدنا كتاب اللَّه يحدثنا عن الواقعة التاريخية التي يصوغها قطباها الأساسيان : الفرد والجماعة، البطل والجمهور، النبي والأمة، القلة المبدعة والكثرة المتبعة؛ لأن هذا هو الذي يحدث فعلًا، والتفسير المنطقي العادل هو الذي يتحدث من خلال (ما يحدث فعلًا) !!

تُرى. لو لم يبرز (نابليون) بعد عقدين من قيام الثورة الفرنسية، أكان يمكن أن يشهد التاريخ الأوربي ذلك الصراع الخطير، السريع، المتمخض، الذي غطى على عقدين آخرين من تاريخها؟! ولو لم تتحرك الجماهير الباريسية أكان يمكن أن تقوم الثورة الفرنسية أساسًا؟ إنه حتى أشد المذاهب إنكارًا لدور الفرد في صياغة الواقعة التاريخية، كالمادية الجدلية، لم تكن لتشهد انتصارها الفعلي في التاريخ، وقيام الاتحاد السوفيتي أو الصين الشعبية لولا القيادات الذكية، المخلصة، البارعة، التي مكنتها من الانتصار. لكن هذه القيادات ما كانت لتستطيع المضي في أداء دورها بدون أداة الجماهير ورغبتها الأساسية في الثورة والتغيير. وفي الجهة المقابلة لم تكن الثورة الأمريكية التي بعثت الولايات المتحدة إلى الوجود لتنجز أهدافها لولا الجهد المشترك الذي بذلته قياداتها المخلصة وقواعدها الواعية. وهكذا بالنسبة لأي حدث في تاريخ البشرية؛ حيث نجد هذا التعاضد والتكامل والتقابل بين دوري الفرد والجمهور في صياغة الأحداث.

إلا أن الفكر الأوربي الذي اعتاد التأرجح المتطرف بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ما كان له إلا أن يمارس منهجيته الخاطئة هنا أيضًا، فيبسط الأمور، وينطلق من الرؤية (الواحدية) التي تردّ الفعل النهائي في صياغة الوقائع التاريخية إلى الفرد وحده

(البطل)، أو الجماعة وحدها، (الجماهير)، سواء عملت في إطار (الطبقة) كما يرى ماركس أو في نطاق (الدولة) القومية كما يرى (هيغل). ونحن نجد بين كتاب (البطل في التاريخ) لسدني هوك الأميركي و(المادية التاريخية) لستالين الروسي، بونًا شاسعًا، وهوّة عميقة، تفصل بين الفرد والجماعة، ولا تتيح - على المستوى النظري - أي لقاء بين الطرفين، رغم أنه على المستوى العملي ووفق ما يحدث (فعلًا) لا تجيء الأحداث إلّا تمخضًا عن إرادة الطرفين.

إننا نلمح هذا التوازن الواقعي في توزيع مساحات الفعل الذي يصوغ الواقعة التاريخية، على الفرد والجماعة، في خطابات القرآن الموجهة للطرفين على السواء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ... ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ... ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ... ﴾ سواء في التكاليف العقائدية والأخلاقية والتشريعية التي أنيطت بهما، أو في العروض التاريخية التي يبرز فيها دور الأفراد (الأمر الذي يبدو واضحًا في التأكيد على أدوار الأنبياء - عليهم السلام) أو دور الجماعات سلبًا وإيجابًا: الأمم والشعوب والجماعات والقرى التي آثرت الإيمان أو التي ظلت على كفرها.

إن الإنسان (فردًا) يرد في القرآن في حوالي خمسة وستين موضعًا، والنفس (المفردة) في حوالي مائة وأربعين موضعًا، والأنفس (جمعًا) في حوالي مائة وستين موضعًا، والمؤمنون، بتصريفاتها وضمائرها (جمعًا) في حوالي أربعمائة وسبعين موضعًا، والقرية (كوحدة اجتماعية) في حوالي خمسة وخمسين موضعًا.

وهكذا.. فحيثما تمعنًا في استخدامات القرآن اللغوية المتعلقة بالفرد والجماعة، على مستوى (التكليف) أو (الأخبار) و (التحذير)، فإننا سنلتقي بتعابير عديدة تدلنا على الأهمية الكبيرة التي يوليها القرآن للفرد والجماعة على السواء. إننا بمجرد أن نجري مقارنة شاملة، من خلال العروض القرآنية، بين أدوار الأنبياء - عليهم السلام - كأفراد أو أبطال وبين الأمم أو الجماعات التي آمنت بدعوتهم أو وقفت في الخطوط المضادة[1]؛ فإننا سنضع أيدينا على الصيغة المتوازنة التي يطرح بها كتاب اللّه موقف الإنسان فردًا وجماعة من حركة التاريخ وصياغة وقائعه الدائمة.

إن هذا التوازن ليس أمرًا مقصورًا على نظرة القرآن التفسيرية لأحداث التاريخ، إنما

---

(١) انظر بيان العروض التاريخية في أول هذا الفصل.

هو جزء أساسي في صميم بنيته العقائدية والتشريعية. وبينما تنحرف المفاهيم الوضعية باتجاه الفردية، حتى تصل بالفرد إلى مرتبة الألوهية، تاركة الجماهير تحت رحمة الطغيان الفردي هذا، أو باتجاه الجماعية؛ حيث تصل بالطبقة مرحلة الألوهية، تاركة الفرد، كوحدة ذاتية متميزة مستقلة، تحت رحمة الطغيان الجماعي. نجد الإسلام يحفظ التوازن ويحميه، عبر سلسلة طويلة من التوجيهات والتشريعات والآداب والممارسات الأخلاقية التي لا مجال لذكرها هنا بطبيعة الحال.

في التفسير المادي يضيع الفرد، وتتحول الجماعة إلى مجال حيوي لتنفيذ مشيئة التبدلات الديناميكية في عالم المادة، والتغيرات الدورية في وسائل الإنتاج وظروفه، وفي التفسير المثالي يغدو (البطل) أداة طيّعة يعتمدها العقل الكلي لتمرير صيرورته إلى غايتها. وتبرز الأمة، أو القومية، كصيغة (حقيقية) معبرة عن مشيئة هذا العقل في السلم والحرب، ويصبح الأفراد ظلالًا باهتة، غير حقيقية على الإطلاق.

أما (توينبي) فإنه يسعى إلى تعديل هذه الصيغة المتطرفة ومنح القلة القيادية المبدعة دورًا كبيرًا في صياغة الأحداث، اعتمادًا على اتباع الأكثريات في الداخل (البروليتارية الداخلية) والخارج (البروليتارية الخارجية) ومحاكاتها لمعطيات هذه القلة. وهو يبدو في هذا تكرارًا لمقولات (ابن خلدون) في (المقدمة). ولكن (توينبي) ما يلبث أن يطعم نظريته، سيما في الأجزاء الأخيرة، بقيم مسيحية تمنح الإنسان والجماعة يقينًا غير مسؤول بنظرية الخطيئة والخلاص، وتجرد الفرد، بشكل أو بآخر، من مسؤوليته الكاملة في صياغة مصيره من خلال إسهامه في الحدث التاريخي.

أما القرآن، فإنه يتجاوز هذا كله لكي يعطي الدور لطرفي المسألة ويعلّق المسؤولية الكاملة، في صياغة الواقعة، على الإنسان الفرد وعلى الجماعة:

- ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣ ، ١٤].

- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤١].

ويطرح - بوضوح كامل - قضية التميز البشري على مستوى الإنسان الفرد.

- ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤]. وهو التميز الذي تقوم به حركة التاريخ، وتتغاير وتتنوع وقائعه وأحداثه.

إن مسألة موقف الإسلام من الحرية الإنسانية، ومن المساحة التي قدر للإنسان - فردًا وجماعة - أن يتحرك عليها في عملية صياغة الحدث أو الواقعة التاريخية.. تقودنا إلى الدائرة الأوسع، دائرة (المهمة) التي خلق الإنسان - أساسًا - لممارستها في العالم، والمركز الذي يحتله في الكون. وهنا، بمجرد مقارنة النظرية الإسلامية بسائر النظريات الوضعية، سيبدو الفرق النوعي شاسعًا بعيدًا بين النظريتين. إن هذه القضية تقودنا - بالضرورة - إلى القسم الثاني من هذا البحث نظرًا لارتباطها الأساسي (بالمسألة الحضارية).

* * *
* *
*

الفَصِلُ الثَّالِثُ

المسألة الحضارية

المسألة الحضارية (١)

تزداد أهمية (المسألة الحضارية) في التفسير التاريخي يومًا بعد يوم، بحيث إنها تغطي مساحة واسعة في أي مذهب للتفسير مهما كانت بنيته، وتشكل (القاسم المشترك) بين المذاهب جميعًا. وأما في (التفسير الحضاري) لتوينبي فتغدو المسألة سدى مذهبه ولحمته، وتشكل مضامينه وأطره. وما من شك في أن الحصيلة النهائية لدور الجماعة التاريخي تقاس بمدى دورها الحضاري، حماية ونقلًا أو ابتكارًا وإبداعًا. وتختلف - بعد ذلك - المواقف والاتجاهات.

فابن خلدون - مثلًا - يرى في التحضر مسألة محتمة تجيء دائمًا في أعقاب توطن العناصر البدوية في الأمصار، وتجاوزها مرحلة التنقل والرعي. وهيغل يراها مسألة دابنامية شاملة تنبثق عن صراع النقيضين في عالم الأفكار في تسلسل طويل ينتهي إلى مرحلة تجلي المتوحد حين يصل العقل الكلي قمة تعبيره وكامل انطباقه على حضارة العالم ومؤسساته، ومن خلالهما. وأما ماركس فإنه يأخذ عن هيغل دابنامية الحركة الحضارية المتولدة عن صراع النقائض إلا أنه يقصرها في نطاق المادة ووسائل الإنتاج و(الظروف) التي تعمل فيها، ويرى في هذا المثلث القاعدة التحتية التي تنبثق عنها سائر الفعاليات والمنجزات الحضارية (الفوقية)، متأثرة بها متلونة بلونها، حاملة دماءها، متكونة بخلاياها، حتى لو كانت قيمًا خلقية وممارسات دينية ومنازع عاطفية وعلاقات جمالية. أما توينبي المتأثر بسلفه شبنجلر إلى حد كبير، فيراها وليدة مقدرة الجماعة الإنسانية على الاستجابة للتحديات البيئية، الجغرافية والبشرية، المحيطة بها ويتناسب حجم العطاء الحضاري كمًّا ونوعًا تناسبًا طرديًّا مع حجم الاستجابة وأمدائها بمقاييس الكم والنوع كذلك.

ما الذي يقوله لنا كتاب اللَّه في هذه المسألة؟ إن كلمة (حضارة) و(تحضر) لم تكن شائعة في استعمالات العربية اللغوية أول مرة، وطيلة القرون التي أعقبت مرحلة الفتوحات الإسلامية، ويكاد ابن خلدون أن يكون أول من نبه إليها واستخدمها في (مقدمته)، إلّا أن اصطلاحه الأثير الذي كان يستغني به معظم الأحيان عن هذه الكلمة هو (العمران البشري) الذي يقابل (الحضارة البشرية).. ومهما يكن من أمر فإن المصطلح الحضاري - بتصريفاته المختلفة - قد فرض نفسه في القرن الأخير،

بعد الاحتكاك الثقافي الشامل بين الشرق والغرب، وتقدم الأخير في حقول التفسير التاريخي والدراسات الحضارية. وبدلًا من هذا فإننا سنلتقي من خلال القرآن الكريم بصيغ ومفردات عديدة أخرى تعتمد للتعبير عن المسألة الحضارية؛ لأن القرآن ما جاء إلا لكي يخاطب العرب بلغتهم (الراهنة) ومن خلال مفرداتهم الشائعة.

نستطيع أن نتلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع إلى حادثة (خلق آدم) كرة أخرى، باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري. ولكن أليس من حقنا أن نتساءل أنه ما دامت الحضارة فعلًا وإبداعًا ومجابهة لكتلة العالم الطبيعية، واستجابة للتحديات الدائمة، وتهيئة وإعمارًا وتمهيدًا وتطورًا، وما دامت الواقعة التاريخية - عمومًا - تجيء بأمر اللَّه الذي لا رادّ لأمره وإرادته التي تعلو على الإرادات؛ فهل لنا أن نرجع بالمسألة إلى ما وراء خلق آدم، إلى سائر العمليات التي أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات، بل إلى ما قبل ذلك، إلى اليوم الذي قال فيه اللَّه للسموات والأرض: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾؟ إن آدم عليه السلام، وذريته من بعده، ما داموا حلقة من حلقات الإبداع الإلهي في الكون فإن لنا أن نصل معطياتهم الحضارية بما هو أشمل وأرحب، وبما يعطيها مساحتها الحقيقية في حركة الكون دونما إفراط أو تفريط؟

إن التاريخ الحضاري - في القرآن - إذن يمتد إلى ما قبل آدم. إنه كل فعل تمتزج فيه إرادة اللَّه وروحه وكلمته بالمادة، فتصوغها كتلًا كونية أو نظمًا طبيعية أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان. أو تخلقها بشرًا سويًّا. ويجيء الإنسان - من ثم - خليفة اللَّه، كما يؤكد القرآن في أكثر من موضع؛ لإعمار الأرض التي (أنزل) إليها وهو يحمل العدة لهذا العمل، ويمتلك الشروط الأساسية لمجابهة العالم وتحويره وتغييره وتطويره، سواء بما ركب اللَّه في ذاته من عقل وروح وإرادة وتكييف جسدي فذ، ليس المشي على قدمين، وتحرر اليدين، ومطاوعة الأصابع بأقلها خطورة. أو بما هيأه اللَّه في الأرض وما حولها من إمكانيات التعامل الحيوي معها، والاستمرار في أطرافها، والتحاور المبدع الخلاق بينها وبين الإنسان الذي جعل بهذا التمهيد المزدوج لأداء مهمته الحضارية سيدًا للعالمين، وفضل على كثير من خلق اللَّه تفضيلًا؟ !

وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا اللَّه، وما دامت المقاييس الآدمية تجيء دائمًا نسبية قاصرة

محدودة إزاء خلق اللَّه.. فليس لنا أن نطمح للإحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية (التكوين) هذه، وليس لنا - كذلك - أن نفترض نظريات لا جدوى من ورائها. إن هذا فوق طاقتنا، وإن أية محاولة في سبيله لا تعدو أن تكون عبثًا (ميتافيزيقيًّا) يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين والإسلاميين المتأثرين بهم، والذين أفنوا أعمارهم في هذا السبيل. وهذا لا يعني أبدًا التشكيك بالمحاولات العلمية - التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم (فعلًا) من الكون والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم؛ لأن هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات. إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق والبحث عن (العلة) و(المعلول) و(متناهي الأول). إلى آخره.

وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة، أن الكون ماضٍ في حركته الدينامية نحو الاتساع الدائم بإرادة اللَّه: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وأن هذه الهدفية على المستوى الكوني، الكلي وهذه الحركة صوب الاتساع، لا بد وأن تنعكس في التصور الإسلامي، على حركة التاريخ البشري نفسه، ومصير الإنسان في العالم، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مرارًا؛ حيث تطوى السموات كطي السجل للكتب، وتكف الحياة والتاريخ البشري عن (الاستمرار) تمهيدًا ليوم الحساب، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلهي الدائم: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إننا، حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض ، وتمعَّنا فيها، وجدناها ترتبط ارتباطًا عضويًّا أصيلًا بالدور المنتظر الذي بعث الإنسان لكي يلعبه، وبالقصد والجدوى والنظام والأعمار والغاية التي بعث من أجلها، وهي كلها قواعد أساسية لأي نشاط حضاري فعال هادف منظم متطور على الأرض :

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٣ - ٥].

- ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢].

- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩].

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾
وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ
اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ٢٠].

- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم
مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ
كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ
كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٤ - ٧].

- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤].

- ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ
سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

- ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

- ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

- ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ - ٣].

فنحن - من خلال هذه الآيات وغيرها كثير - إزاء تجربة اختبار وابتلاء، تتطلب منا أفرادًا وجماعات، عملًا وإبداعًا. ولكن أي عمل وإبداع يتوجبان على الإنسان في الفرصة التي ستنتهي إلى (أجلها المسمى)؟ إنه ليس ارتجالًا كيفيًّا، ولا مواقف جزئية مفككة، كما أنه ليس فوضى لا يحدها نظام ولا يسلكها هدف. إنما العمل والإبداع اللذان ينبثقان عن تخطيط مرسوم، وينطلقان من مواقف كليّة شاملة، ويصدران عن نظام مبرمج يهدف إلى غاية دابنامية لا حدود لها أبدًا تلك هي (عبادة اللّه).

إن (عبادة اللّه) وحده، بالمفهوم الإبداعي الشامل الذي سنتحدث عنه عمّا قليل، هي الهدف الذي يتوجب على الإنسان، فردًا وجماعة، أن يصعد إليه كافة أوجه نشاطاته الحضارية، وبينما ترسم المذاهب الوضعية - هي الأخرى - أهدافًا لحركتها الحضارية، تتميز حينًا بالغموض والمثالية كما هو الحال عند هيغل، وتتميز حينًا آخر بالتحديدات الصارمة والمادية كما هو الحال عند ماركس وإنكلز، وتتميز حينًا ثالثًا بصبغة مسيحية باهتة، غير مبررة عقليًّا، كما هو الحال عند توينبي، الأمر الذي قاد **الأول** - وهو يتحدث عن تجلي المتوحد من خلال (الدولة) - إلى أن يعطيها كافة المبررات الفلسفية لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب إلى الدمار الحضاري والظلم البشري. وقاد **الثاني** إلى إعلان دكتاتورية الطبقة العاملة كهدف للحركة التاريخية، وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج، الأمر الذي قادها - ويقودها - إلى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه كافة القوى المعارضة، والتي لا تنسجم وبداهات التحضر البشري الحر. وقاد **الثالث**، وهو بصدد حقن الحضارة الغربية المعاصرة بالأمل، إلى عملية ترقيع غير منطقية بين القيم الروحية المسيحية وبين بعض معطيات الديانات العالمية الكبرى؛ كاليهودية والبوذية والإسلام فيما سماه (الديانة الرباعية الجامعة). الأمر الذي يتناقض أساسًا مع طبيعة التجربة (الدينية) القائمة على التلقي عن المصدر الواحد والتوجه المتوحد صوب هذا المصدر دون سواه، وفق عقيدة تتميز بالوحدة والترابط.

ثم ماذا بعد هذه الأهداف التي تؤكد المذاهب الوضعية أنها آتية لا ريب فيها ؟ وهي في

تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع (الداينامية) التي أقرتها كأساس لحركة التاريخ البشري ونمو الحضارات؟ ماذا بعد دكتاتورية الطبقة العاملة وتجلي المتوحد ؟ إن التجربة البشرية أوسع دائمًا، وأغنى، وأشمل، من أن تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر، ومجابهة كل تفرد أو تميز إنساني، ولا يعدو مصيرها في نهاية الأمر أن يكون إنشاء مجتمعات لا تزيد في نشاطاتها ومعطياتها، عمّا نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة، وعمل دائب، وإنتاج متزايد.. أو أن تحصر هذه التجربة البشرية الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة الشاملة، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيكلي، ويسوسها عرق ممتاز، مقرّرة سلفًا كل ممارساته العدوانية ونزعاته الشوفينية.

بينما ترسم المذاهب الوضعية أهدافًا كهذه تتميز بالغموض أو الطغيان أو التناقض أو الانغلاق، نجد القرآن الكريم يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله كافة الفعاليات والمعطيات: عبادة اللّٰه، والتلقي عنه، والتوجه إليه. ويطلب من القوى المؤمنة أن تتحرك على مدار التاريخ، وفق كل الأساليب الإنسانية الشريفة الممكنة لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعًا مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الإلهي الملزم في مداه البعيد، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان، إلا لكي يعتمدها باختيار، في التساوق مع هذا النظام والاندماج في المجرى العام لخلائق اللّٰه جميعًا، تمييزًا له - بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة، ومكانته كسيد للعالمين - عن سائر خلق اللّٰه. وفرق شاسع، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان وهو متساوق مع نواميس الكون، متناغم مع مصيره ومسيره، أو وهو منشق على هذه النواميس، متنافر معها بدءًا ومصيرًا.

والواقع أن الإنسان - فردًا وجماعة - ينسى في معظم الأحيان أن دائرة حريته محدودة فيما يقدمه من أفعال، وما يتخذه من مواقف ويلتزمه من أهداف، وأنه فيما وراء ذلك، محكوم بسنن ونواميس إلهية تفوق طاقاته وقدراته جميعًا، وبدونها لا يمضي حق وعدل، ولا يستقيم نظام كوني ولا وجود بشري، ولا تتحقق حكمة اللّٰه سبحانه من تسيير الكون والخلائق جميعًا، وفق طرائق محددة منضبطة تؤول بهم جميعًا إلى الأهداف التي رسمها علم اللّٰه المطلق، ودفعتهم إليها إرادته التي لا رادّ لها. والآيات التالية تعرض علينا المسألة في أبعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة:

- ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾ [الرعد: ١٥].

- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥][(١)].

- ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩].

- ﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥٢].

- ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾ [الحج: ١٨][(٢)].

- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

- ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨][(٣)].

- ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣].

- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

- ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

- ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦].

- ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ولو تمعّنا قليلًا في موقفنا عبر الكون لرأينا أننا مجبرون – بالحق والعدل والنواميس،

---

(١) وانظر (النحل: ٣)، (العنكبوت: ٤٤)، (الزمر: ٥).

(٢) وانظر (النور: ٤١، ٤٢).

(٣) وانظر (الأحقاف: ٣).

وباعتبارنا جزءًا من خليقة اللّٰه شئنا أم أبينا - في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا: إننا مجبرون على أن نولد ومجبرون على أن نموت. إننا مجبرون على أن نبعث وأن نحاسب على أعمالنا، وأن نساق إلى جنة أو إلى نار وفق هذا الحساب العادل المحفز. إننا مجبرون على أن ننتمي إلى هذا الإقليم أو ذاك، وإلى هذه القبيلة أو تلك الأمة، وإلى هذا الجنس أو ذاك، وإلى هذا اللون أو ذاك. ومجبرون كذلك إلى أن نخضع لمتطلبات حياتنا البايولوجية والحسية، وعلى أن نتقلب في تجاربنا النفسية بين الحزن والفرح والغم والانشراح والخوف والطمأنينة، والتمزق والتوحد. وفوق هذا وذاك فإننا مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة، وسماتنا الخاصة، وبصمات أصابعنا. وبدون هذه الالتزامات الحتمية تتبدّد الحياة وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها. بدون هذا (الجبر) تضيع البشرية، ويحدث تناقض في النواميس وتختفي قيم الحق والعدل الأزلية. والمساحة المتبقية لممارسة حرّيتنا إنما منحت لنا لتمييزنا عن سائر خلق اللّٰه وتفضيلنا على العالمين.

إن هذه المساحة تمتد هي الأخرى إلى أمداء واسعة: الموقف الذي نتخذه من العالم. الأعمال والأهداف والمعطيات التي نقدمها في الحياة. هذه الحرية التي تقف بالإنسان والأمم والحضارات على مفترق طريقين: فإما أن تكون مواقفنا وأعمالنا وأهدافنا منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة، متوافقة معها، مما يترتب عليها إنجاز حضاري أغنى، وتوحد بشري أشمل، وسعادة نفسية أكثر عمقًا، ومصير في الأرض والسماء أشد توافقًا مع مهمة الوجود البشري في الأرض.(١) وهذا ما سعت الأديان لتحقيقه في العالم، وما يسعى الإسلام، وسيظل، من أجل تحويل البشرية إليه ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ .

وإما أن تجيء هذه المواقف والأعمال والأهداف منشقة، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال، عن نواميس الكون وسنن الحياة، مرتطمة بهما، الأمر الذي يترتب عليه إنجاز حضاري متفكك، وتمزق بشري شامل، وشقاء نفسي عميق، ومصير سيئ في الدنيا والآخرة، يند عن طبيعة الدور الذي بعث الإنسان إلى العالم لأدائه، ويجيء مكافئًا لعصيانه وتمرده ورفضه أداء المهمة. وهذا ما سعت المذاهب الوضعية، وتسعى، لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها إليه.

---

(١) انظر مقال (الإنسان والكون في المسرح الغربي المعاصر) للمؤلف ، (مجلة حضارة الإسلام)، عدد (٨) سنة (٢٠١٣م) وعدد (٥) سنة (٢٠١٤م).

ومن ثم، فإن القرآن في تفسيره لأدوار الأمم والشعوب والحضارات، إنما يتخذ هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس أو ارتطامها بها، ويدعونا إلى مواقع الانسجام والتوافق، نافخًا فينا روح العمل والإبداع، مستقطبًا ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه اللّه سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾. ولا بد أن نقف هنا لتلمس الملامح الأساسية الشاملة لمفهوم التعبد في الإسلام.

إن القرآن يؤكد، هنا وفي أماكن أخرى، أن اللّه سبحانه ما خلق (معشر الجن والإنس) إلّا (ليعبدوه)، وليس مفهوم العبادة هنا، مساحة ضيقة لا تتجاوز دائرة (الشعائرية) و(الاتصال الروحي) باللّه. إنه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فعاليات الجماعة البشرية في الأرض، ويمنحها معنًى، ويسير بها إلى هدف واضح مرسوم. إنه يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص، ويعطيها الدافع والمبرر، وينفخ فيها روح الإبداع والابتكار والتطور الدائم الفعّال، كما أنه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري، إلى القمم التي تليق بمكانة البشرية في ساحة العالم. وبهذا تسقط، ابتداءً، كافة السلبيات التي يمكن أن تعلق بأي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجًا شاملًا، أو لا يسعى إلى هدف واضح، ولا يلتزم أخلاقية الإنسان في حواره مع خالقه.

وتبرز من بين هذه السلبيات مسألتا (العبث) و(اللاجدوى) اللتان تسيطران على مساحات واسعة من أنشطتنا الحضارية المعاصرة على مستوى الواقع والفكر[1]، في وقت تنتفيان فيه أساسًا، من خلال الموقف القرآني، الذي بين لنا مرارًا أن خلق السموات والأرض ما جاء عبثًا، وأن سعي الإنسان في العالم ليس أمرًا محكومًا باللاجدوى:

- ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].
- ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].
- ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

---

(١) انظر مقال (الإنسان والكون في المسرح الغربي المعاصر) للمؤلف (مجلة حضارة الإسلام)، عدد (٨) سنة (٢٠١٣م)، وعدد (٥) سنة (٢٠١٤م).

- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٨].

ويعلن أن وراء هذا النشاط والجهد البشري غايات أساسية يتمحور حولها وتنشد جميعًا إلى غاية الغايات، والمركز الذي تتجه إليه الخلائق جميعًا في نشاطاتها المختلفة لتحقق به وجودها وتجد مصيرها،.. تلك هي عبادة اللّٰه والتلقي عنه والتوجه إليه.

« إن ثمة ظاهرة أساسية يتميز بها النشاط التعبدي في الإسلام؛ ذلك أنه لا يقتصر على فترات متقطعة من الزمن، أو أماكن محددة من العالم، وإنما ينساح لكي يشمل كل الأماكن والأزمان. ليس هذا فحسب، بل إنه في جوهره تذكر للوجود الإلهي في الكون، وإدراك لأبعاده الشاملة : قدرة وإرادة وإحاطة ورقابة وعلمًا، واتصال دائم باللّٰه سبحانه في كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال ظاهرة مرئية، أو إرادات لم تتشكل في أفعالها بعد، أو نيات وخواطر وتأملات وهواجس تدور في أعماق النفس، وتقدير لعظمة اللّٰه الذي خلق الكون والحياة والإنسان على أروع وأدق نظام. واعتراف جميل بالخلاق المبدع الذي هيّأ للبشرية ظروفًا تمكنها في كل وقت من تحقيق السعادة الكاملة في الأرض والسماء. إن التعبد - بهذا المعنى - يمتد إلى كل مساحات الحياة البشرية الظاهرة والخفية، الخاصة والعامة، الفردية والجماعية، المادية والروحية، تمامًا كما تمتد الدماء وتسري في أوصال الجسد البشري وخلاياه ».

وتنبثق عن هذه الحقيقة ضرورة التفريق بين هذه القاعدة التعبدية الشاملة، وبين بعض صور العبادة التي حددها الإسلام على شكل شعائر وطقوس ذات أشكال ومضامين معينة كالصلاة والصيام والحج والزكاة؛ ففي الحالة الأولى يبدو أن كل ممارسة، باطنية أم ظاهرية، يمكن أن تكون تعبدًا إذا كمنت وراءها نية مؤمنة تسعى إلى أن تجعل من كل فاعلية في الحياة وسيلة يتقرب بها الإنسان من اللّٰه، ويتعبد إليه، ويتذكر وجوده الشامل القادر المريد. هذه القاعدة الشاملة التي تضم - فيما تضم - الشعائر الإسلامية الخمس نفسها مضافًا إليها كل الفعاليات الأخرى، ابتداءً من أشدّها مادية وكثافة (كالتجربة الجنسية وتجارب الطعام والشراب) وانتهاء بسهر الليالي الطوال تقرّبًا إلى اللّٰه وتأملًا في ملكه.

« والحق أن من الصعوبة بمكان الفصل بين الشعائر الإسلامية وبين القاعدة التعبدية

نظرًا للارتباط الدقيق بينهما، فضلًا عن أن هذه الشعائر نفسها لا تنصب على الجانب الروحي التأملي، فحسب، بل تنساح إلى كل جوانب النشاط الإنساني الحركي، جسدًا وعاطفة وروحًا وعقلًا وفسلجة ووجدانًا، إلا أنه لا بد من هذا التفريق لغرض إيضاح الحقيقة الأساسية في بنية الإسلام الذي يرسم لاتباعه برنامجًا عمليًّا للصعود والترقي ينتهي بأبعد آفاقه في تلك اللحظات التي يتوحد الإنسان فيها مع ذاته وعقيدته، ويغدو تعبيرًا حيًّا عنها، بحيث إنه لا يمارس عملًا إلا وهو يستشعر، خلال تلك الممارسة، الوجود الإلهي المحيط المريد، وحينذاك يكون المسلم قد حقق أقصى درجات إسلامية وهي (الإحسان) ويكون (الإسلام) قد أدى دوره الكامل!! ».

« ولا ريب أن سؤالًا يتبادر إلى الأذهان في هذا المجال، وهو أنه إذا كانت الأرضية التي تقوم عليها العبادة الإسلامية تمتد لكي تشمل هذه المساحة الواسعة من حياة الإنسان، فلماذا أضاف الإسلام إليها شعائر يومية وموسمية محددة تتمثل بصيام أو حج أو زكاة، وأوجب على المسلمين الالتزام بها، واعتبر التخلي عنها حدًّا بين الكفر والإيمان؟ والجواب يجيء سريعًا في أن الإسلام جاء لكي (يضبط) و(يحدد) و(ينظم) انطلاقًا من إيجابيته وواقعيته في تحديد الأشياء والعلاقات والقيم؛ ذلك أن ترك الإنسان حرًّا في ممارسة تعبده لا يضمن أساسًا قيام هذا التعبد لدى بعض المنتمين واستمراره لدى بعضهم الآخر، فلا بد إذن من وضع حد أدنى (ملزم) يكون بمثابة قاعدة يمكن أن يبني فوقها المزيد من النشاطات التعبدية التي تصل بالمسلم (اختيارًا)، وعلى حسب المقدرة، إلى درجة الإحسان وإلى تحويل الحياة كلها إلى ساحة للتعبد والتذكر!! »[1].

قد يسأل سائل: « إذا كان هدف الإنسان في الكون هو أن يعبد اللّٰه - كما يؤكد القرآن الكريم - أفلا يعني هذا أن الإنسان مغبون؛ إذ قدر عليه أن يقف في موضع يطلب منه فيه العطاء فحسب، دونما أي قدر من (الأخذ)؟ والجواب (كلا) لأن العبادة في الإسلام - كما مرّ بنا - هي التجربة الحياتية الكبرى القائمة على توازن فذ عجيب بين الأخذ والعطاء، والإنسان يبلغ قمة إنسانيته عندما يصل تلك النقطة التي يحقق فيها ذلك التوازن؛ حيث نجده يبلغ أقصى درجات الانسجام، والتوحد الباطني، والحيوية الحسية، والنشاط الروحي، والتفتح العقلي، والحركة الجسدية؛ لأن اللّٰه سبحانه، وهو أدرى

---

(١) عن الملامح الأساسية للعبادة الإسلامية، انظر بالتفصيل بحثًا للمؤلف في مجلة الوعي الإسلامي، سنة (١٩٧٣ م).

بخلقه، جعل عبادته التي هي هدف الخليقة جميعًا مفتاح هذا المصير الذي يطمح إليه كل إنسان، وأي إنسان في الأرض لا يطمح لأن يكون متوحدًا، منسجمًا، حيويًّا، نشيطًا وحركيًّا؟! ».

« إن العبادة في الإسلام لا تعني – كما هو الحال في كثير من الأديان والعقائد – حوارًا جزئيًّا مع اللَّه سبحانه، في ساعات معينة من الليل أو النهار، حوارًا يعبر عن نفسه بأداء حركات محددة، واستعادة تعابير وصلوات مكتوبة سلفًا، وهدوءًا جسديًّا موقوتًا بزمن هذا الحوار. وما إن تتم هذه العبادة الجزئية، أو الصلاة التي لا تعدو أن تكون (صلة وقتية)، تسودها الآلية والكسل الروحي في معظم الأحيان، حتى ينقلب الإنسان إلى تيار الحياة الهادر الصاخب لكي (يحرك) مكوناته التي جمدتها لحظات الصلاة !! ولكي ينطلق متعاملًا مع الآخرين بشخصيته الثانية، الشخصية الدنيوية العملية الحركية. أما في الإسلام فإن كل فاعليات الإنسان تبدو عبادة للَّه، ما دام ذلك الإنسان قد وضع اللَّه نصب عينيه !!. وكلما كان اللَّه سبحانه أكثر تجليًا للإنسان خلال إحدى ممارساته، جاءت تلك (الممارسة) أكثر انسجامًا مع مفهوم العبادة الشامل العميق، وهذا التجلي، أو « الإحسان » بلغة الرسول ﷺ، لا يتحقق إلا بالصبر والمران والدأب، لكي ما يلبث أن تجيء ثماره حلوة كالرحيق المختوم.. هنالك؛ حيث تتوازن تجربتا الأخذ والعطاء[1].

* * *
* *
*

(١) انظر مقال (الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي) للمؤلف (مجلة الرسالة الإسلامية)، الأعداد (٥٠ – ٥٥).

المسألة الحضارية (٢)

إن موقف القرآن الكريم من المسألة الحضارية في جانبها الإنساني يبدأ بخلق آدم، وفي الظروف والدلالات والرموز والإرهاصات التي رافقته وأعقبته: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٩].

تلك هي الخطوط العريضة، الواضحة لمسألة الوجود البشري في العالم. الصورة المتماسكة البينة التي تساقطت عندها قرنًا بعد قرن عشرات المحاولات التفسيرية التي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي (الإسرائيليات) أو التبرير العقلي المتوتر. وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها. إننا - من خلال هذا العرض المركز - نلتقي بقواعد أساسية ومبادئ كلية، تتجاوز الجزئيات والتفاصيل وتلقي ضوءها الشامل على كل ما يهمنا في المسألة الحضارية من خلال الموقف القرآني: خلافة الإنسان في الأرض ومنحه القدرة على التعلم والفعل والاستيعاب، وتكريمه الأقصى بسجود الملائكة له، مجابهته بإبليس وبدء (الصراع) بين الطرفين (والهبوط) الزمني (الموقوت) إلى الأرض كأول تجربة من تجارب هذا الصراع.. (تعليق) الدور البشري في الأرض على تلقي (الهدى) من اللّه وحده، وتحديد المصير الذي سيؤول إليه موقف الإنسان (الحر) إزاء هذا الهدي في الأرض والسماء.

تلك هي المبادئ الكبرى الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني الخطير، والتي

تعيننا على تفهم الموقف الإسلامي من المسألة الحضارية بأبعادها الشاملة، وهي مبادئ تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو إزاءه، غامضة مفككة مضطربة، كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري وبدء الخليقة وأصول الحضارات؛ لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للصدفة العمياء، أو تطور وسائل الإنتاج المادية في الخارج، أو محاولة العقل الكلي، الغامض غير المحدد؛ لأن يعبر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلي !! أو رغبة الطبيعة في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم - غير المحدد والمبرر - لحياة لا تمتلكها هي نفسها، الأمر الذي يشكل تناقضًا فاضحًا إزاء تحديد مصدر هذه الحياة. ولنبدأ من ثم بتحليل هذه المبادئ القرآنية من خلال آيات ومقاطع أخرى نلتقي بها في القرآن الكريم نفسه.

* * *

لقد أراد اللَّه للإنسان أن يكون مستخلفًا في الأرض، فمنحه القدرة العقلية على التعلم، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع، والإرادة (الحرة) لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية. ولكي لا يحس الإنسان (بالدونية) ولا تدور في خاطره أية فكرة عن (سلبية) دوره في العالم، رُفِعَت مكانته إلى أعلى مصاف وطلب من الملائكة أن يسجدوا له. وتلك هي أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة، مفكرة، مريدة، منفذة، مستقلة، مفضلة، الأمور التي لا بد منها لأي إبداع حضاري على الأرض. فإذا ما أضفنا إلى هذا ما سبق وأن أشرنا إليه من أن العالم قد مُهِّد تمهيدًا للدور البشري على أرضيته وما سنشير إليه فيما بعد من أبعاد (الصراع) التي لا بد منها (للحركة التاريخية) ومن خطورة التعاليم التي كانت تتنزل حينًا بعد حين لكي (تضبط) و(تنظم) حركة الإنسان في الأرض، أدركنا كم هي عميقة شاملة متكاملة الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية، أو الحضارية في العالم.

إن مسألة (الاستخلاف) تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم:

- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر: ٣٩].

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

- ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

- ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

- ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣].

- ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

- ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

ومسألة الاستخلاف تبدو خلال هذه الآيات مرتبطة بالخيط الطويل العادل من طرفيه: العمل والإبداع ومجانبة الإفساد في الأرض، وتلقي القيم والتعاليم والشرائع عن اللّه والالتزام الكامل بها خلال ممارسة الجهد البشري في العالم. والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة، بحيث إن افتقاد أي منهما سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والآخرة، ويقود إلى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الإمساك بالخيط من طرفيه : العمل والجهد والإبداع، والتلقي الدائم عن اللّه لضبط وتوجيه هذا العمل في مسالكه الصحيحة التي تجعل الإنسان يقف دائمًا بمواجهة خالقه كخليفة مفوض لإعمار العالم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١].

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم على عين اللّه وتوجيهه، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعًا، وهي كلها تشير - سلبًا وإيجابًا - إلى أن المحور الأساسي لوجود الإنسان - فردًا وجماعة - على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياسًا عادلًا لتحديد المصير في الدنيا والآخرة، وهو (موقف) ينسجم تمامًا مع فكرتي (الاستخلاف) و (الاستعمار) الأرضي.

إن القرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساسًا إنما جاءت لابتلاء بني آدم، أيهم أحسن عملًا ؟ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]. كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاده شرطيه الأساسيين (الإيمان، والعمل الصالح). ويصدر أمره الحاسم إلى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الإيجابي الفعّال في قلب العالم ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥]. وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي مقابل هذا يندد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطئ من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة. وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية ووقف كل ما يعوق مسيرتها ونموها، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت. وهذه الحماية الحضارية لا تنصب - كما هو الحال في كثير من التجارب الوضعية - على الجوانب المادية من الإنجاز البشري، والتي يصطلح عليها أحيانًا باسم (المدنية) تلك التي تواصل تصاعدها الدائم، كمًّا ونوعًا، بغض النظر عن منحنيات الموقف الحضاري بمفهومه الإنساني الشامل؛ لأن القاعدة التي يتحرك عليها هذا التصاعد، مادية صرفة، تسعى إلى تجميع كافة المنجزات البشرية في هذه الدائرة وتسليمها للأمة الأنشط والأقوى لمواصلة تصعيدها، الأمر الذي يجعلنا نعود فنربط نموها، لا ديمومتها، بالموقف الحضاري الشامل الذي تتخذه أمة من الأمم على كل المستويات.

إن هذا مسألة ثانوية وهو يجيء دائمًا في المرتبة التالية، وأحيانًا كنتيجة لقاعدة تسبقه وتفوقه أهمية تلك هي المنجزات الفكرية والأخلاقية والروحية والنفسية بمفهومها الإنساني من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان، وهو يواصل طريقه لإعمار العالم، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي اللّه إلى بني آدم، ومن أجل ألا تصاب - هذه المنجزات (الأساسية) - بنكسة أو كارثة ترجع بحركة التاريخ البشري إلى الوراء، وفقًا للمقاييس الإنسانية، ومهما بقي التقدم المادي الصرف على صعوده وغناه...

إلا أن هذا لا يعني أبدًا أن أي موقف (سلبي) إزاء حماية الإنجاز المادي من الدمار

يمكن أن يقره القرآن؛ لأن الإصلاح والإعمار المنوطين بالاستخلاف مسائل تتداخل فيها كل الفعاليات الحضارية مادية وأخلاقية وروحية، وأن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس - بشكل أو بآخر - على الجوانب الأخرى، وهذا واضح بيّن في أكثر من آية:

- ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ... ﴾ [الأعراف: ٥٦].

- ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

- ﴿ ... وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

- ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

- ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٩، ١١٠].

- ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

- ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

- ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩].

- ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [هود: ١٩].

- ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

- ﴿ ... وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤].

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الأمور السالبة عن الإفساد الروحي والمادي وعمّا يؤول إليه من دمار لحضارة الإنسان، ولرقيه وسعادته وتقدمه، ومن عرقلة لدوره في العالم كمستخلف فيه، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن (تتحرك) لوقفه بأسرع ما تستطيع وبأقصى ما تطيق، لئلا يتحول الفساد إلى فتنة عمياء لا ترحم أحدًا ولا تبقي، وهي تدوّم فوق رؤوس الجماعة كلها ظالمًا أو مظلومًا :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

إن القرآن يرفض في نظرته للمسألة الحضارية، أشد ما يرفض، موقف التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية، ويرى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة. وإن تجزئتها وعزل بعض جوانبها خلال العمل عن بعضها، ليس خطأ فحسب، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة، إذا ما أردنا - مسبقًا - أن نصل إلى نتائج صحيحة.

* * *
* *
*

المسألة الحضارية (٣)

ومن خلال تحقق الشرطين السالفين: الإصلاح ووقف الفساد ومجابهته على كل المستويات، واستنادًا إلى التعاليم الإلهية التي يجيء بها الأنبياء حينًا بعد حين، تمارس الجماعة البشرية المؤمنة خلافتها في الأرض وتواصل (الحضارة) تقدمها ونموهَا من خلال إرادة الإنسان، وموقفه الفوقي على الكائنات، وقدراته التي منحه اللَّه إياها على التصور والتخيل والتخطيط والتنفيذ، والفعل والابتكار. قدرات على مستوى العقل والروح والعاطفة والوجدان والجسد، على السواء، وليس ثمة شيء في العالم أو قوة في الكون، غير قوة اللَّه وحده، بقادرة على أن تصد الإنسان عن أهدافه ومطامحه التي قرر أن يسعى إليها.

إننا هنا بإزاء علاقة (تغاير) نوعي حاسم بين الجماعة البشرية المريدة القادرة الفاعلة، وبين كتلة العالم والطبيعة التي لا تملك قدرة ذاتية ولا فعلًا مرسومًا لمجابهة الإنسان. إنها أساسًا، وفق المعطيات القرآنية قد سُخِّرت له تسخيرًا، وأن اللَّه سبحانه قد حدَّد أبعادها وقوانينها ونظمها وأحجامها بما يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم، وقدرته على التعامل مع الطبيعة تعاملًا إيجابيًّا فاعلًا.

وإذا ما أردنا أن نعتمد اصطلاحات (توينبي) ومقاييسه الحضارية في مسألة النمو الحضاري هذه؛ فإننا سنرى في العالم (تحديًا مناسبًا) للإنسان ليس (معجزًا) ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري للرد، وكأن إرادة اللَّه سبحانه قد شاءت أن تقف به عند هذا الحد، لكي يحقق المدى الأقصى من الحوار الخلاق بينه وبين خليفته في الأرض، فلم يشأ أن يمهد العالم تمهيدًا كاملًا ويكشف للإنسان قوانينه وأسراره بالكلية؛ لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضر والإبداع، والتي تتطلب مقاومة وتحديًا؛ واستجابة ودأبًا وإبداعًا، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية المطلقة ويسلمه إلى كسلٍ لا تقرّه مهمة الإنسان على الأرض أساسًا.

«.. ترى .. لو أعطي الإنسان، يوم خلقه، المفتاح الذي يدخل به مباشرة إلى ساحة الطبيعة، فيدرك قوانينها دون عناء، ويقفز، إلى الحضارة الخارجية بلا تدرج أو تطور، أكان يشهد التاريخ البشري هذه الجهود العظيمة، وتلك المحاولات الدائبة، وذلك التشبّث والسعي صوب الكشف والتحضير؟ أكان يمكن أن يكون للبشرية تاريخ أساسًا؟

وما هو دور العقل إذن إذا كان بإمكان العين أن ترى القانون الأكبر، والأذن أن تسمعه، واليد أن تلمسه، ما هو - وهذا هو الأهم - دور الإرادة الإنسانية التي ركزها اللّه في الإنسان، والطاقات التي جهزه بها كي يكون للإنسان إمكانية التصدي للغموض الطبيعي والحواجز الطبيعية؟ أفيمكن دون أن يستثير اللّه سبحانه عنصر التحدّي الإرادي بين الإنسان والطبيعة، أن تكون هناك محاولة جادة لاستخدام العقل والإرادة، والتغلب على الغموض والتعقيد، ومن ثم التقدم والتحضّر؟ ثم هل بمقدورنا أن نجد ثمة حضارة واحدة في تاريخ البشرية لم يسهم في بعثها إلى الوجود هذا التحدي الأبدي بين الطبيعة والإنسان ؟

« إن أخلاقية الوجود البشري على الأرض تقتضي هذا الحوار الفعّال بين الإنسان والطبيعة.. هو يسأل وهي تتمنّع على الإجابة، وهو يسعى إليها متسائلًا قلقًا، وهي ترفض أن تفتح له أحضانها وتلقي إليه بكنوزها.. معنى هذا أن على الإنسان أن يرفض الكسل والقعود، أن يتخلى عن السعي الهادئ المطمئن إلى رزقه وتأمين حياته وإحاطة وجوده على الأرض بالضمانات، أن عليه - كما أراد له اللّه سبحانه - أن يمشي ويتحرك، أن يجد ويكد، أن يستخدم كل الطاقات التي وهبها إياه من أجل تحقيق هذا الهدف وهو أن ترد الطبيعة على جوابه وتسلم إليه القياد.

« وفي القرآن الكريم مئات الآيات والإشارات تنفخ في الإنسان هذا المعنى الحضاري العظيم وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يثمر إلا بالسعي والكدح والحركة. من أجل هذا أيضًا كان الإسلام - خاتم الرسالات ومصدقها - دعوة حركية على هذا النطاق، كما هو دعوة حركية على النطاق الأكبر: نطاق العقيدة والدين والمنهج، حركة الإنسان والشعوب والأمم من الجهل والتخلف إلى العلم والتحضر، من الظلام إلى النور، ومن النظرة المسترخية الكسولة للطبيعة والأشياء، إلى التمعن المتوتر النشيط للطبيعة والأشياء. هذه الحركة التي يطلب القرآن أن تكون متفجرة أبدًا لا تكلّ ولا تملّ. ثم يطلب منها - وهذا هو الإعجاز العظيم - ألا تقصر سعيها على مستوى الأرض ويعلمها أن وطن الإنسان ليس هو الأرض فحسب؛ بل الكون كله !! وكما أنه يدعوه إلى الحركة العقائدية في نطاق الكون كله، فكذلك يطلب أن تكون حركته (العقلية) في نطاق الكون كله، فالأرض جزء من الكون، والناموس الذي يحكم الأرض هو نفسه الذي يحكم الكون، واللّه سبحانه خالق القوانين والأوضاع والإنسان ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾، ! ومن ثَمّ

فإن اللقاء بين الحركتين، حركة العقل وحركة الوجدان، حركة الحس وحركة الروح، حركة الذهن وحركة القلب؛ هذا اللقاء القائم على التوافق والتوحد والانسجام سيكون محتمًا في المدى القريب والبعيد؛ لأن كلتا الحركتين ستطلع الإنسان على الملكوت وتقوده إلى اللَّه.. »[1].

إن اللَّه سبحانه لم يشأ - من جهة أخرى - أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع، الأمر الذي يتنافى - أيضًا - ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة على الأرض جاء لإعمار عالم غير مقفل ولا مسدود:

- ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٢٧ - ٣٠].

- ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٠ - ١٣].

والحق أن الآيات الخاصة بمسألة التسخير (المتوازن)، المناسب هذا، منبثة في مواضع من القرآن كثيرة لا تعدّ ولا تحصى.

إنه الحدّ (الوسط) الذي يتحدى الإنسان إلى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والإعمار، ويتجاوز التكشف الكامل أو الانغلاق الكامل الذين يستحيل معهما الفعل الإنساني.

وثمة سؤال ملح يفرض نفسه هنا، نظرًا لارتباطه الوثيق بالمسألة التي نناقشها وهو: لماذا ترك الإنسان، على المستوى الطبيعي يجهد بنفسه ويبتكر ويكشف ويطور، بينما ألزم - على المستوى العقائدي الديني - بالاعتماد الكلي على تعاليم السماء؟ هل بمقدور الإنسان أن يبتكر بنفسه (المنهج) أو (الدين) الذي يقوده عبر الطريق؟ ما هو السبب - بعبارة أخرى - في تعليق

---

(١) انظر بالتفصيل: فصل (خطوات في مواقع العلم والدين) من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف.

هداية الإنسان الشاملة على نزول الأديان والتزامه بتعاليمها، وما هو الفرق بين القانون الطبيعي والقانون الديني الأخلاقي؟ ولماذا لم يكشف اللّه عن الأول كشفًا كليًّا، بينما قدم التعاليم النهائية الحاسمة عن القانون الثاني؟

« في البداية يجب أن ندرك، أنه في المدى البعيد، مدى علم اللّه الذي تتقطع دونه الأعناق، في هذه الحياة الدنيا، إلا من ارتضى من رسول، في مدى هذا العلم الإلهي تنتفي هذه الثنائية بين القانونين: قانون الطبيعة وقانون الدين، تذوب الحواجز وتتلاشى الفوارق ويلتقي كلا القانونين في مدى صنع اللّه وإرادته ونواميسه التي تسيّر ملكوت السموات والأرض بما عليهما من جماد وحيوان. إن المادة نفسها - التي يرتكز عليها القانون الطبيعي - قد حطمها اليوم العلم نفسه. لم تعد العينة الصلبة من المادة هي أساس الطبيعة. لقد كشف لنا العلم الحديث عن جانب خطير من القانون الطبيعي، وعلمنا أن أساس البنية الطبيعية هي الحركة وليست المادة، الذرات بأشكالها المتناهية في الصغر تتحرك وفق مسارات معينة، فتضفي الشكل المادي الخارجي للأشياء، وهذه الذرات تتشكل هي الأخرى وفق حركة معجزة في كيانها الداخلي. لكأنه تسبيح أبدي لكل قوى الطبيعة لربّ الملكوت: ﴿ ... وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ... ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ولكأنه إيماء عجيب للإنسان المعاصر بزيف هذه الثنائية التي قسمت خلق اللّه إلى قسمين، وأقامت بينهما جدارًا من التباعد والصمت والغموض. إن الحركة - بمعناها الشامل - هي أساس الوجود المادي تمامًا كما هي أساس الوجود الحيوي. هذا ما كشف عنه العلم أخيرًا، وما هذا الكشف إلا جانب ضئيل، مما يمكن أن يكشف عنه المستقبل القريب والبعيد ».

« ومهما يكن من أمر فإن السؤال يبقى على أهميته الفائقة في حياتنا الراهنة.. وجوابًا عليه لا بدّ أن نتمعن قليلًا في دور الإنسان نفسه في هذا العالم، الإنسان بإرادته وطاقاته وإمكاناته، الإنسان بما هو إنسان. ترى لو تركت للإنسان حرية الكشف عن منهج الحياة بمفهومها الشامل (المنهج الديني) بنفسه، أكان يمكن أن يصل إلى بغيته ؟ أكان من السهل عليه تحقيق هدفه المنشود؟ إذًا لماذا لم تستطع المذاهب والمحاولات الوضعية طيلة آلاف السنين من عُمْر البشرية أن تحقق هذا الهدف؟ أليس من العبث والتناقض أن يتحرك الإنسان هكذا؟ يتعثر طوال حياته على الأرض ولا يجد من يهديه سواء السبيل؟ أن يظل أسير جهله وتخبطه اللذين لا يرتفع من وهدة حتى يسقطاه في وهدة أعمق منها

وأبعد غورًا؟ أليس من العبث والتضييع أن يهدر الإنسان طاقاته الفاعلة في سبيل البحث عن المنهج والقيم الكبرى، وهل بإمكان الإنسان أساسًا أن يصل إلى المنهج الأمثل، ويحدد - بموضوعية تامة - قيمه العليا التي يتحرك على ضوئها وبالتزاماتها؟ ».

« **في مجال الطبيعة والأشياء** لم يشأ اللَّه سبحانه أن يكشف للإنسان قوانينها؛ لأن هذا يعني إهمالًا لطاقات الإنسان الخلّاقة وقدرتها على الفعل والكشف والابتكار، ولو حدث أن وجد الإنسان نفسه فجأة أمام تكشّف النواميس الطبيعية على حقيقتها، لألغيت - إذن - وبشكل محتم - كما سبق وأن بيّنا - جلّ قدراته ومحاولاته الإبداعية، ولأسلم نفسه لكسل فكري واتكالية لم يرد اللَّه للإنسان أن يقع في أسارها، أما العقيدة والمنهج والقيم الخلقية، فهل كان من المنطق أن تظل غامضة، وأن يسعى الإنسان بنفسه للكشف عنها؟ إن هذه القيم وتلك العقيدة وذلك المنهج، ما داما يرتبطان أساسًا بالعالم الأوسع، ويمتدان إلى ما وراء الحس الظاهر للعيان، ما داما ينأيان دائمًا عن رؤية الإنسان المباشرة وحركته النسبية، وحريته المحدودة، ونسبيته الحسية، فليس من السهل عليه - إذن - أن يترك وحده للسعي وراء أهداف لم يهيأ للكشف عنها ».

« إن تجربة (الخطأ والصواب) تغدو مجدية في مجال التعامل مع الطبيعة؛ لأنها ستعلم الإنسان دومًا طريقة جديدة أو تمنحه ابتكارًا جديدًا، وما منجزات الغرب التقنية المعاصرة سوى (تراث) بشري أسهمت في صنعه وبنائه وتطويره معظم أمم الأرض وشعوبها بعد أن مارست كثيرًا من تجارب الخطأ والصواب. وما زال العلم إلى الآن ينفي اليوم - بتجريبيّته - ما أثبته بالأمس، ويثبت ما سوف ينفيه غدًا، ولكن هذا النفي والإثبات وهذه الظنية التي تحكم ميادين النشاط العلمي، لم تؤثر في يوم من الأيام على التطور المستمر للإنجازات (المدنية)؛ بل إن هذه - كما سبق وأن ذكرنا - في صعود مستمر نحو الأكثر والأحسن والأرقى، إلا إذا جوبهت بحرب عالمية شاملة لا تبقى ولا تذر، وهذا أمر مستبعد الحدوث على الأقل في القرون القليلة التالية. أو إذا أصيبت بعض أنحاء العالم المتقدمة بنكسة جغرافية شاملة كما حدث مثلًا بالنسبة لقارة (أطلانطا) التي يقال - ظنًّا - أنها بلغت شأوًا كبيرًا من التقدم والتحضّر، وهذا أمر احتمالي بعيد هو الآخر ».

« **أما في المجال العقدي والأخلاقي والديني** فلا يمكن للإنسان أن يمارس تجربة الخطأ والصواب؛ لأن هذه ستكون على حساب كينونته ووقته وجهده في نهاية الأمر، ولأنها - وهذا هو الأهم - لن تقدم له (الصواب) المطلق الذي لا خطأ بعده في يوم من الأيام،

ذلك أنه لا يملك (الوسائل) التي تمكنه من بلوغ هذا الصواب وتمحيصه على السواء. ثم إن عملية النفي والإثبات هنا ليست سوى عملية سلبية؛ إذ إن (نفيًا) كهذا سيوقع الأمم والشعوب في فوضى لا حدّ لها، وسيصيب الإنسان نفسه بمشاكل ذاتية وقلق وتمزق داخلي يشلّانه عن المضي في طريق الإبداع والتطور الحضاري ».

« لقد أعطى اللَّه الإنسان إمكانيات خلّاقة وقدرات فذّة ورؤية عظيمة واسعة الأمداء، ولكن هذا وحده لا يكفي، إن إمكانياته وقدراته ورؤاه لها أرضية واسعة للسعي والحركة، وأن تقليص هذه الأرضية هي إهدار لطاقات الإنسان أو تجميد لها، وهي - بمعنى أوسع - احتقار للإرادة الإنسانية. لكن هناك مدى أوسع بكثير من هذه الأرضية، ولو ترك الإنسان وحده لظل يتحرك كالأعمى، يقوم ويسقط، إلى أن يأتي يوم يسقط فيه في الهوّة التي لا قيام بعدها. ولقد حدث هذا فعلًا لكل الناس والأمم والشعوب التي تعبّدها (الوضعيون) من دون اللَّه، قالوا لها إن بإمكانهم إعطاءها (العقيدة) والمنهج والقيم، فسارت وراءهم رغبًا ورهبًا، وتلقت عنهم دينها وقيمها ومناهجها، بالأحرى عبدتهم من دون اللَّه. ولكن ما لبث أن سقط الأرباب والعبيد على السواء »[1].

ونعود ثانية إلى مسألة (التسخير).. إن هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا التسخير للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي أنيط بالإنسان في الأرض، وهي تمنحنا التصور الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ينأى كلية عن التصورات السالبة لعديد من التفاسير الوضعية التي جرّدت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة وحريته في حواره مع كتلة العالم، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعًا كاملًا لمشيئة هذه الكتلة وإرادة قوانينها الداينامية الخاصة التي تجيء بمثابة أمر لا رادّ له، وليس بمقدور الإنسان إلا أن يخضع ويساير ويتقبل هذا الذي تأمر به.

وسواء التزم التفسير الوضعي المنطق الديالكتيكي على مستوى الفكر الكلي غير المحدد، كما فعل هيغل، أو على مستوى المادة وتبدل وسائل الإنتاج وظروفه (الخارجية) كما فعل ماركس وإنكلز، فإن الإنسان يغدو تابعًا وليس متبوعًا، وإن الإنجاز الحضاري يجيء وكأن الإنسان جزء منه أو مساحة من مكوناته فحسب، وإنه ليس أمامه إلا أن يتشكّل وفق مقتضيات مسيرة أكبر حجمًا من إرادته وأوسع مدى من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء.

---

(١) انظر بالتفصيل عن هذه المسألة الفصول (١، ٢، ٣، ٤)، من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف.

إننا نلتقي من خلال القرآن بصيغة أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف من أساسها. صيغة (السيّد الفاعل المريد) الذي سُخرت وأخضعت له مسبقًا كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض وإعماره للعالم على عين اللّه:

- ﴿ ... وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ... ﴾ [النحل: ١٢].

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ... ﴾ [النحل: ١٤].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [الحج: ٦٥].

- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [لقمان: ٢٠].

- ﴿ ... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ ... ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

- ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦].

* * *
* *
*

المسألة الحضارية (٤)

والقرآن الكريم لا يقف عند مرحلة تأكيد هذه العلاقة (الفوقية) للإنسان على الطبيعة فحسب، وإنما يدعوه في أماكن عديدة لأن (يتحرك) لاعتماد هذه العلاقة في تنفيذ متطلبات استخلافه العمراني (أو الحضاري) على الأرض، وهذا لن يتأتى إلا بالنظر العميق في ملكوت السموات والأرض، والدراسة المتأنية لنواميسه وقوانينه وأسراره، والسعي الدائم وفق أشد الأساليب العلمية تجريبية؛ للكشف عن هذه النواميس والقوانين والأسرار من أجل فهم أكثر لقدرات اللّه الخلاقة وإيمان أعمق به، ومن أجل استخدامها لتطوير الحياة على الأرض، ومواصلة العمران، وتحقيق مفهوم الاستخلاف على كل المستويات.

« لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسي) إلى ما حولهم، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون. وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب. قال له: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله:

- إلى طعامه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣١].

- إلى خلقه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥].

- إلى الملكوت: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [الأعراف: ١٨٥][١].

- إلى التاريخ وحركة الإنسان في الأرض: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ... ﴾ [غافر: ٨٢].

- إلى خلائق اللّه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

- إلى آياته المنبثة في كل مكان: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ [المائدة: ٧٥][٢].

(١) وانظر (يونس: ١٠١)، (ق: ٦).

(٢) وانظر (الأنعام: ٤٦، ٦٥).

– إلى النواميس الاجتماعية: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ... ﴾ [الإسراء: ٢١].

– إلى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الفناء برحمة من اللّه ومقدرة: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ... ﴾ [الروم: ٥٠].

– إلى الأثمار، وهي تتدلى من غصون الأشجار: ﴿ ... ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ... ﴾ [الأنعام: ٩٩].

– إلى الحياة الأولى كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ... ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

– ودعاه أن يحرّك (سمعه) باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز، فيأخذ أو يرفض، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١][(١)].

« وانتقل القرآن خطوة أخرى وسألهم أن يحركوا (بصائرهم)، تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية ولمسية لا حصر لها، ومن ثم تتحمل (البصيرة) مسؤوليتها في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى (الحق) الذي تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة ﴿ ... فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ ... ﴾ [الأنعام: ١٠٤][(٢)].

(إن العقل والحواس جميعًا مسؤولة، لا تنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار. والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية؛ لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢]. ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعًا هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات،

---

(١) وانظر (البقرة: ١٧١، ١٨١)، (الجن ١ – ٢٧)، (المائدة: ٨٣)، (القصص: ٥٥ – ٧١)، (فاطر: ١٤)، (فصلت: ٤ – ٢٦)، (الملك: ١٠)، (مريم: ٤٢)، (الأنبياء: ٤٥)، (الأنعام: ٢٥ – ٣٦)، (الأعراف: ١٠٠)، (يونس: ٦٧)، (الفرقان: ٤٤)، (السجدة: ٢٦)، (الشعراء: ٧٢)، (يس: ٢٥)، (الأنفال: ٢٣)، (غافر: ٢٢)، (الزمر: ١٨)، (الأعراف: ٢٠٤)، (الحج: ٧٣)، (الكهف: ١٠١).

(٢) وانظر (القصص: ٧٢)، (الذاريات: ٢١)، (الأعراف: ١٧٩)، (الحج: ٤٦)، (الزخرف: ٥١)، (الطور: ١٥)، (البقرة: ١٧)، (يونس: ٤٣)، (السجدة: ٢٧)، (يس: ٩)، (الصافات: ١٧٥)، (يوسف: ١٠٨)، (القيامة: ١٤، ١٥)، (ق: ٨)، (النمل: ١٣)، (العنكبوت: ٣٨)، (الملك: ٣، ٤)، (الجاثية: ٢٣)، (آل عمران: ١٣)، (النور: ٤٤)، (الحشر: ٣).

بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها، باستغلال قدراته الفذّة العجيبة حتى النهاية، سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على السواء؛ لأن هذه الانتصارات ستبوئه مركزه المسؤول كسيد على العالمين وخليفة على الأرض، وأنه بتجميد هذه الطاقات، وقفل نوافذها، وسحب الستائر والأغشية عليها، يكون قد اختار المنزلة الدنيا التي ما أرادها له اللَّه يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد. منزلة البهائم والأنعام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٣][١].

« وحشد آخر من الآيات، بلغ ما يقارب الخمسين، حث على تحريك (العقل) المفتاح الذي منحه اللَّه بني آدم وقال لهم: افتحوا به أبواب الملكوت، وادخلوا ساحة الإيمان باللَّه الذي سخر لكم ما في السموات والأرض ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾... ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٢ - ٢٧٢][٢]، وآيات أخرى دعت الإنسان إلى (التفكير)، التفكير العميق، المتبصّر المسؤول بكل ما يحيط به من علامات وأحداث وأشياء وموجودات ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠][٣].

« وما يقال عن (التفكّر) يمكن أن يقال عن (التفقه)، وهي خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير؛ إذ هي الحصيلة التي تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعيًا لما يحيط به، وأعمق إدراكًا لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دومًا، مستعدًّا للحوار المسؤول إزاء كل ما يعرض له من أسئلة وعلامات ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨][٤].

« وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استنادًا إلى المعطيات الخارجية، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك

(١) وانظر (النحل: ٧٨)، (الأعراف: ١٧٩)، (المؤمنون: ٧٨)، (الحج: ٤٦)، (الزخرف: ٤٠)، (هود: ٢٠)، (ق: ٣٧)، (الأنعام: ٤٦، ١١٠)، (الجاثية: ٢٣)، (البقرة: ٧)، (المائدة: ٧١).

(٢) وانظر (العنكبوت: ٢٢ - ٤٣)، (يوسف: ٤٢)، (الحج: ٤٦).

(٣) وانظر (الروم: ٨)، (سبأ: ٤٦)، (آل عمران: ١٩١)، (الأعراف: ١٧٦)، (الحشر: ٢١).

(٤) وانظر (هود: ٩١)، (الأنعام: ٦٥)، (طه: ٢٨)، (الأعراف: ١٧٩)، (الأنفال: ٦٥)، (التوبة: ٨٧، ١٢٢)، (المنافقون: ٧).

الذين بلغوا شأوًا بعيدًا في هذا المضمار ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١][1].

« **هكذا يبدو العلم، بمفهومه الواضح، الشامل، (فاعلية) في غاية الأهمية في المجتمعات التي ترتضي الدين أو المنهج الإلهي طريقة لها في الحياة. ولا بد أن نضيف هنا حقيقة أخرى في غاية الأهمية، تلك هي أن كلمة (العلم)** وردت في القرآن الكريم مرارًا كمصطلح على (الدين) نفسه الذي علمه اللّه أنبياءه - عليهم السلام - على النواميس التي يسيّر اللّه بها ملكوته العظيم. على الحقائق الكبرى الموجودة عند اللّه في (أمّ الكتاب)، وكإشارة إلى القيم الدينية التي نزلت من السماء في مقابلة الأهواء والظنون البشرية. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن. إن كلمات اللّه سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصّرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة، كما أراد لها اللّه أن تكون، لا كما يريد لها الوضعيون الذين يسعون جهدهم للفصل بين (الكلمتين) ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ [النساء: ١٥٧]. ﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ... ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات في هذا المجال، أو حتى الإشارة إليه، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم) بتصريفاتها المختلفة، وردت في عدد من الآيات تجاوز السبعمائة والخمسين »[2].

ومن ثم فلا يتصورنّ أحد أن القرآن ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب. إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة وفي صميم العلاقات المادية بين الجزيئات والذرات. إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط، وهي تتطلب من الإنسان

---

(١) وانظر (المؤمنون: ١١٧)، (النساء: ١٧٤)، (النمل: ٦٤)، (القصص: ٣٢، ٧٥)، (الأنعام: ٨٣، ١٤٩)، (النحل: ١١١)، (العنكبوت: ٤٦)، (الحج: ٨).

(٢) انظر بالتفصيل الفصل الأول من كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف.

أن ينظر في السموات والأرض، بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع، بين التلقّي عن اللّه والتوغل قدمًا في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها، بين تحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق نفس الدرجة من التقدم والعلو الحضاري على المستوى المادي (المدني).

ولم يفصل القرآن يومًا بين هذا وذاك، إنه - كما قلنا - يقف دائمًا موقفًا شموليًّا مترابطًا، ويرفض الفصل والتقطيع والتجزيء في تقييم الموقف (الحيوي) أو الدعوة إليه (ويجب ألّا يغيب عن أذهاننا هنا، وفي أماكن عديدة من هذا الفصل، أن القرآن في مواقفه من المسألة الحضارية لا يتحدث في معظم الأحيان، عما (كان) فحسب وإنما عمّا يجب أن (يكون) مع تأكيده الدائم على الدور (الطليعي) الذي يتوجب على الأمة الإسلامية أن تلعبه في العالم).

ولقد انعكس هذا (التوحّد) بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت القرون الطويلة، وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين وأنجزت وابتكرت واكتشفت ونفذت الكثير الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانبًا من الجوانب المرتبطة جميعًا، ارتباطًا متينًا، بخلافة الإنسان على الأرض ودوره الحضاري في العالم. وليس من داعٍ لأن نشير هنا إلى أن ما حققه أبناء هذه (الحضارة) التي استمدت منهجها من القرآن الكريم نفسه - في مجالات الطبيعة والفلك والرياضة والطب والصناعة التطبيقية وغيرها - لا يقل في مستواه - كمًّا ونوعًا - عمّا أنجزوه في ساحات العلوم والدراسات الإنسانية، فلهذا مجال آخر[1]. وما كان لها إلا أن تكون كذلك وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن نتلمسه بوضوح من خلال آيات عديدة، هذه بعض نماذجها:

- ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣١].

- ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

- ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ... ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

- ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا

(١) انظر على سبيل المثال كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف .

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ٦ - ١٠].

- ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٠].

- ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

- ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم: ٥٠].

- ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

- ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

- ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

- ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦].

إن القرآن - من خلال هذه الآيات، وغيرها كثير - يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة، على مستوى الكون والعالم، وأن يختار لنا موقعًا (تجريبيًّا) يعتمد النظر والتمعن والفحص والتجريب من أجل الكشف والابتكار والإبداع، ومن أجل ألا نفقد توازننا الحضاري فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأكبر للوجود الإنساني على الأرض وهو عبادة اللَّه، والتوجه إليه ومحاورته أخذًا وعطاء.

إن هنالك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية، تلك هي أن اللَّه سبحانه ما دام قد (عبّر) عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة، الإنسان والطبيعة. فليس ثمة معنى أبدًا لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء، إن هذا (الموقف) مهما كانت درجته، غير مبرّر في بداهات الإيمان، ولا في مقتضيات (الاستخلاف)، ليس هذا فحسب؛ بل إنه يقف نقيضًا لهذه البداهات والمقتضيات، ومن ثم فهو مرفوض في القرآن ابتداء.

إن القرآن يوجه أنظارنا، في الآيات السالفة، إلى أشد الأمور مادية وثقلًا: الطعام، النطفة الأولى، الأرض والسماء والجبال، وإلى دنيا النبات والحيوان. ويدعونا لأن نسير بحثًا عن سنن هذه العوالم، وإدراكًا لأبعاد خلقها المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة كلية نافذة لا يعجزها شيء. إن القرآن يدعو إلى (حضارة) (تنمو) على كل المستويات

الروحية والأخلاقية والطبيعية. وهو يخصص المقاطع والآيات الطوال للمسألة الحضارية في مستواها الطبيعي، المادي، لكن شرط أن تضبطها القيم والمقاييس الدينية الآتية من عند اللَّه.

إن كل آية تتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية تنتهي بأفعال التقوى والإيمان وبالدعوة إلى ربط أية فاعلية باللَّه. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح، إن منطق (التوازن الحركي) الذي يرفض الانحراف أو السكون، هو القاعدة التي نتلمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته، والتي تكفل نموًّا سليمًا لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة، ولا تنحرف باتجاه أحدهما مهملة الأخرى، أو ضاغطة عليها، مستخدمة إزاءها أساليب القمع والكبت والتحديد. التوازن الذي يمكن الحضارة من الحركة الدائمة؛ لأن الأهداف التي يضعها أمامها تأخذ مستويات صاعدة لا يحدها أفق ولا يقف في طريقها تحديد صارم، إنها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة. وتتقدم - بعد هذا - صوب أعمال الفكر في قلب العالم للكشف عن نواميسه، أو في أمداء الكون لإدراك سره المعجز. هذه الفاعلية الفكرية التي ما لها من حدود تقف عندها.

ومن ثَم توالي خطواتها لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية الشاملة، وإيصالها إلى مطامحها التي تتجاوز الأرض إلى أعماق السماء، وتغادر اللحظة الموقوتة العابرة إلى عالم الخلود. إن حضارة تسعى إلى تغطية متطلبات الغريزة والفكر والوجدان والروح بهذا القدر من التوازن، لا يمكن أن تبلغ حالة السكون أبدًا، إلا إذا وجهت إليها ضربة (خارجية) شديدة القسوة تفوق قدراتها العسكرية على الردّ، وتظل - من ثم - على حركتها الدائمة تلك، متجاوزة خطوط الأهداف القريبة والبعيدة التي يستثيرها فيها الإيمان المبدع، من أجل أن تتجاوزها إلى خطوط هدفية أخرى.

إن الصورة الفذّة التي يطرحها القرآن عن ذلك التناغم الكامل بين الإنسان والطبيعة، وما وراءها، وذلك التوازن الرائع بين تسخير القوى المادية (وتصنيعها) وبين عبادة اللَّه سبحانه، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعملية، وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفعّالة وبين نسبيته وضعفه وحاجته الدائمة إلى اللَّه، وهذا التأكيد المستمر على حماية الفاعلية البشرية من الجنوح والانحراف بعيدًا عن المتطلبات

المادية والطبيعية. نجدها تبلغ القمة في ذلك العرض (الرمزي) - إذا صحّ التعبير - لتجربة داود وسليمان - عليهما السلام - التي لم تأت عبثًا:

- ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٤].

- وفي مقطع آخر نجده في سورة (ص) نقرأ، تأكيدًا واستكمالًا للموقف: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ١٧ - ٢٠].

- ثم تعود الآيات لكي تتحدث عن سليمان كرة أخرى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٩].

إن هذه المقاطع التي آثرنا الوقوف عندها كنماذج، من بين عشرات غيرها، تبين لنا قمة الاندماج الحضاري الفاعل بين الإنسان الكامل والقوى غير المرئية والطبيعة، في حوارها الخلّاق مع اللَّه سبحانه أخذًا وعطاءً. إن طاقات الكون كله تنسجم هنا وتتناغم وتعمل بتوافق رائع في خدمة الإنسان الذي يتوجه إلى اللَّه في أصغر فاعلياته وأكبرها، حامدًا شاكرًا عابدًا، للمنعم الذي منحه هذا كله لكي يختار موقعه الصحيح الذي أنشئت الحياة على الأرض من أجله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

« والعبادة التي تطرحها هذه الآية العريضة ليست - كما مرّ بنا - علاقة ثنائية سالبة بين اللَّه والإنسان، كما أنها ليست عطاءً ومنحًا، أحادي الجانب، يشكر الإنسان به ما وهبه اللَّه إياه في نفسه وفي عالمه. إنه حوار إيجابي، وجدل فعّال، وممارسة حضارية

تسودها علاقات الأخذ والعطاء. إن هذه الآيات تجيء لكي تعطينا صورة، من عشرات الصور التي يطرحها القرآن عن طبيعة العلاقة بين اللّه والإنسان، وعما تؤول إليه على نطاق النفس البشرية والعالم كله؛ حيث لا انفصال - في الإسلام - بين الإنسان والعالم، ولا انقطاع بين عالمي الحضور والغياب، وحيث الارتباط الكلي الذي يضم الإنسان إلى الطبيعة، إلى ما وراءها لكي تتحقق مشيئة اللّه في إعمار الأرض والتوجه المسؤول صوب خالق الكون والحياة والإنسان وتأدية مسؤولية الخلافة بوعي وأمانة.

« إننا هنا نلتقي باثنين من عباد اللّه المصطفين، داود وسليمان - عليهما السلام - وقد سخرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لا يحدّها جدار زماني أو حاجز مكاني، سخرت جميعًا لكي تعمل تحت إمرة الإنسان المؤمن المسؤول: الجياد، الطير، الحديد، الريح، القطر (النحاس)، الجن. في عدد مُشار إليه من مساحات العمل الحضاري : صناعة وعمرانًا وبناءً وفنونًا. وتثير عجبنا في ميدان هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة للحديد والنحاس اللذين قد تبيّن لنا في قرننا العشرين هذا، كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة، ولكل حضارة تريد أن تعمّر وأن تصنع وتبني وتتفنّن وتطبق. ويثير عجبنا - كذلك - أن اللّه سبحانه لم يمنح الحديد فحسب، لداود، ولكنه يعلمه كيف يليّنه، فبدون هذا لن تكون ثمة فائدة لهذا الخام الخطير. ولن ننسى هنا الإشارة إلى (الريح) التي تروح في شهر وتغدو بمثله، وقد تبين أنا من خلال الدراسات الجغرافية والطبيعية، كم هي عظيمة خطيرة طاقة الريح هذه في إعمار الأرض والحياة أو في دمارهما أو فنائهما على السواء.

« إن هذه الآيات، وغيرها كثير، تقدم لنا الرد الإلهي الحاسم على القائلين بأن الأديان السماوية ما جاءت إلا لكي تقود المؤمنين إلى مواقع الانعزال والسلب والفرار، وتلقي في روعهم أن الدنيا (قنطرة) وأن عليهم أن يعبروها ولا يعمروها. ومن ثم يغدو (الدين) في تصورهم هذا نقيضًا (للتحضر)، ويقف الإيمان بمواجهة الخلق والابتكار والإبداع، وتتحول العلاقة بين الإنسان وخالقه إلى مسألة سكونية (ستاتيكية) تاركة للمذاهب الوضعية أن تأخذ زمام الحركة (الدايناميك) من أجل تطوير الحياة وترقيتها. إن هذا التصور الخاطئ مرفوض بالكليّة، ومستبعد من أساسه، وأمامنا شاهد فحسب من مئات الشواهد القرآنية، التي عرضنا لبعضها في أماكن عدة من هذا الكتاب، على هذا الرفض لمواقف اتكالية مهزومة تسعى إلى أن تجعل الدين والتطور عدوّين لدودين. إننا هنا نلتقي

بالإنسان المؤمن؛ بل بالنبي، الذي يبلغ من فهمه عن اللّٰه وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوى المذخورة، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة، ويحشر لخدمته الريح والحديد والنحاس والجان والنار. من أجل ماذا ؟ من أجل أن يبني ويعمّر ويتفنن ويبدع ويبتكر، ويتقدم بالحياة صعدًا على طريق الخلافة المسؤولة، المؤمنة، الواعية، التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير، والقدرات المتاحة، عن التوجّه بالشكر للخلّاق العظيم، مصدر القوة والطاقة والفاعلية، وعن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين اللّٰه والإنسان. وقليل هم أولئك الذين يظلون في مواقعهم هذه بأمانة كاملة ... ولكن الآيات القرآنية ما تلبث، في ختام الصورة، أن تعرض حقيقة أخرى لا تقل أهمية؛ لأنها تفعل فعلها الإيجابي في موازنة (الوضع) البشري كيلا ينحرف صوب الكفر والطغيان. إن الموت بانتظار الجميع، أنبياء كانوا أم أناسًا عاديّين، عمالقة كانوا أم أقزامًا، ملوكًا أم فقراء. إنه نهاية المطاف لبني آدم جميعًا، والسقطة التي لا بدّ منها للمرور إلى يوم الحساب، وأن عليهم أن يتذكروا هذا؛ لأن الرجل النبيّ الذي سُخرت له طاقات الكون، ومنح النحاس والحديد وحشرت تحت قدميه النار والجان والرياح، ينتهي به الأمر إلى الموت، لكي ما تلبث الديدان، أقذر الحشرات وأحطها، أن تأكل منسأته وهو ميّت لا يحس ولا يشعر »[1].

إن القرآن يقف بنا دائمًا في نقطة التوازن الخلّاقة، إنه في هذه الصورة يبدأ بإيصال الإنسان إلى قلب القوى الطبيعية، ويحشرها في خدمته من أجل الإعمار والبناء، فيسكت القائلين بالتعارض بين العلم والدين، ولكنه ما يلبث في نهاية العرض أن يوقف الإنسان عند حدود (الحكمة) التي يفترضها الإيمان بوجود اللّٰه الأقدر والأعلم، والتي تجيء بمثابة (فرامل ضابطة) تنظم سير القوى المسخّرة للإنسان، وتمنعه - في الوقت نفسه - من الجنوح باتجاه الجبروت والطغيان، واعتماد هذه الطاقات الهائلة للإبادة والدمار، وحصانة تفرّده وتقدّمه في الأرض.

وهذا لو تحقق، فإنه سيؤول - بطبيعة الحال - إلى وضعية مضادة للتحضر والتطور، وضعية لا تقل في سلبيّتها وخطورتها عن تزييف الموقف الديني ودفعه إلى الرفض والفرار بمواجهة الدخول إلى قلب العالم والإسهام في تحضيره وتطويره.

---

(١) عن كتاب (آفاق قرآنية) للمؤلف (ص ٢٢٧ - ٢٣٠).

وفي سورة (الحديد) نقرأ هذه الآية: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

« سورة الحديد ؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها ؟ هل ثمة أكثر إقناعًا لنزعة التحضر والإبداع والبناء، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءًا أساسيًّا من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها اللَّه لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دومًا عن الحديد: (البأس الشديد) متمثلًا باستخدام الحديد كأساس للتسلّح والإعداد العسكري، (والمنافع) التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه (السلميّ) ؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن، في مسائل السلم والحرب، وإنه غدا في عصرنا الراهن هذا، وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلمًا وحربًا؟ إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن (ترهب) أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلّح الثقيل. وتستطيع - أيضًا - أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعتها وغناها ؟ !

« **إننا هنا بإزاء الحلقة، أو المستوى الثالث، من مستويات المنهج القرآني في التعامل مع الطبيعة، تلك المستويات التي يعمل أولها في الإطار (الفلسفي) حيث التأمل العميق في الكون والعالم من أجل الوصول إلى اللَّه وإدراك قدرته الخلاقة، وإحاطته الشاملة. ويعمل ثانيها وثالثها في الإطار (العلمي)**؛ إذ بينما يتجه أحدهما إلى حثّ الإنسان المسلم على دراسة الكون والعالم للكشف عن القوانين التي تحكمهما، ومحاولة الإحاطة بأكبر قدر منها، فيما يعرف اليوم بالعلوم (المحضة) أو (النظرية)، يتجه آخرهما إلى تحريك الإنسان المسلم باتجاه استخدام هذه المعرفة العلمية للقوانين الطبيعية، استخدامًا (تطبيقيًّا) في واقع حياته من أجل تغيير هذا الواقع صوب الأحسن والأرقى. وليس هذا الموقف من خام الحديد، بأبعاده المختلفة، سوى مثل من الأمثال العديدة المنبثة في القرآن الكريم حول هذه الحلقة الثالثة من حلقات التعامل مع الطبيعة والعالم ».

« إن كل موقف قرآني يشكل وحدة عضوية لا تنفصم عراها، يمكن أن نحظى

بأبعادها وصيغتها النهائية بمجرد أن نجمع إلى بعضها البعض كل الآيات التي تغذّي هذا (الموقف) وتشكل مادته الحيّة : في الاقتصاد، في الاجتماع، في السياسة، في الإدارة، في النفس، في العلاقات الدولية، في العقائد، في الآداب، في المعاملات. إلى آخره. في كل قطاع من هذه القطاعات نلتقي بعدد من هذه المواقف المتكاملة المحبوكة التي تصورها وتمنحها شكلها النهائي مجموعة من الآيات المنبثة في ثنايا القرآن ».

« والآن ونحن نتكلم عن الحديد نلتقي بسورة كاملة بهذا الاسم، ونتذكر في الوقت نفسه الآيات السابقة من سورة (سبأ) التي تذكر نعمة اللّه على داود بتليين الحديد له، أو تعليمه كيف يليّن الحديد !! وهي بصدد الحديث عن الإعمار والبناء والتصنيع، ونتذكر أيضًا ذا القرنين وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاة: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف: ٩٦، ٩٧]. وتفرض آية أخرى نفسها لإتمام المسألة، تلك التي تنادي الجماعة الإسلامية ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ... ﴾ [الأنفال: ٦٠]، لكي ما يلبث الإنسان المسلم والجماعة المسلمة أن يعتمدا الحديد، هذا الخام الخطير المذكور في عدد من المواضع، والذي سميّت إحدى السور باسمه، مادة أساسية لإعداد (القوة) وإرهاب الأعداء، في عالم يضيع فيه ويداس من لا يملك القدرة على إرهاب أعدائه، هذه القدرة التي ترتبط دومًا بمدى النمو الحضاري ارتباطًا عضويًّا، وتسير معه في نفس المنحنيات التي يجتازها في أغلب الأحيان.

« **ولا بدّ أن نلتفت – أخيرًا** – إلى هذا التداخل العميق والارتباط الصميم في آية الحديد، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته (البأس)، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم اللّه ﴿ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾ و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾. إن هذا الموقف المتشعب المتداخل يعود بنا ثانية إلى ما سبق وأن ذكرناه من أن الإسلام جاء لكي يشدّ الإنسان إلى الأرض، ويدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها. وأن المسلم لن تحميه وتنصره إلّا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر. وأنه – بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا، الذي يرتبط

ارتباطًا وثيقًا بحركة الجهاد الدائمة، ويختار، بدلًا من ذلك، مواقع الفرار والاتكال والانتظار السالب لمعونة اللّه - فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وأنه سيهزم لا محالة، ما دام قد أشاح عن هذه المواقف القرآنية التي تكاد تصرخ بأعلى نبرة أنه بدون الاعتماد الواعي، المسؤول، الذكي، الخبير، على مصادر القوة والبأس فلن يكون هنالك (نصر) ولا (تقدم) ولا (حماية) للموازين والقيم العادلة التي جاء الأنبياء، بكتبهم السماوية، لتنفيذها في الأرض، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم، في المساجد، السنين الطوال، يبكون ويتضرّعون » !! [1].

* * *

إن (الإيمان) الذي يقوم عليه بنيان الدين، يجيء دائمًا بمثابة (معامل حضاري) يمتد أفقيًّا؛ لكي يصبّ إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب، ويوجهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها و ارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسهما، فيزيدها عطاءً وقوة وإيجابية وتناسقًا. كما يمتد عموديًّا في أعماق الإنسان لكي يبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقظة الضمير، ويدفعه إلى سباق زمني لا مثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجّر طاقاته ويعبّر عن قدراته التي منحه اللّه إياها، على طريق (القيم) التي يؤمن بها و(الأهداف) التي يسعى لبلوغها، فيما يعتبر جميعًا - في نظر الإسلام - عبادة شاملة يتقرب بها الإنسان إلى اللّه، وتجيء مصداقًا للآية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا (السباق) الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ وأنهم ﴿ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾، وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة (الزمن) ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات، ما تلبث أن ترتقي - بمقاييس الكم والنوع - بمجرد أن يتجاوز (المسلم) مرحلة الإيمان، إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا عنها القرآن في أماكن عديدة: (التقوى) و(الإحسان) !!

وهكذا تجيء (التجربة الإيمانية) لا لكي تمنح الحضارة، في مرحلة نموّها، وحدتها وتفرّدها وشخصيتها وتماسكها، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار، فحسب، وإنما لكي ترفدها بهذين البعدَيْن الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع

---

(١) عن كتاب (آفاق قرآنية) للمؤلف (ص ٢٣٦ - ٢٣٨).

نواميس الكون والطبيعة: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣]. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق، تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم، ويعانون يقظة ضمائرهم، ويسابقون الزمن في عطائهم؛ لأنهم يؤمنون باللّٰه واليوم الآخر، و ﴿ ... لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ... ﴾ [القصص: ٨٣].

والواقع أن القرآن، وهو يحضّ المؤمنين على التسارع الحضاري عملًا وإنجازًا وإبداعًا مسؤولًا، ويعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال، والعبور السالب للعالم دونما إنشاء أو تغيير أو إعمار. لا يتجاوز، انطلاقًا من موقفه الوسطيّ الشامل، مسألة في مقابل هذا كله، على غاية في الأهمية؛ لأنها تعد إحدى الملامح الأساسية الفاصلة بين التجربتين الحضاريتين : الدينية والوضعية : تلك هي التأكيد الدائم على أن حياة الإنسان في الأرض، فردًا وجماعة، ليست أبدية دائمة، إنما هي عابرة موقوتة، وأن معطياته فيها ليست خالدة باقية إنما هي معرضة - في أية لحظة - للدمار والزوال، بناء على طبيعة (الحياة الدنيا) القائمة على التغير والتنوع، والصعود والهبوط، والميلاد والموت. وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرى التي تتميز بالبقاء والدوام، والتي كتب للإنسان فيها الخلود المطلق. ومن ثم فإن كل ما يقدمه في هذه الحياة الفانية من أعمال ومنجزات يجب ألّا يكون هدفًا بحد ذاته، كما هو الحال في جلّ التجارب الوضعية، إنما وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة اللّٰه وحده، وإيجاد المناخ المناسب لممارسة مهمة الاستخلاف التي جاء الإنسان إلى العالم لأدائها. وهكذا يغدو الإنجاز الحضاري في الإسلام وسيلة إلى غاية أكبر، ويكتسب في الوقت ذاته أخلاقية كبرى، لا نجدها في سائر الحضارات، تصدّه عن استخدام طاقاته وقدراته في غير الطريق الذي تحتّمه هذه الغاية الشريفة، البعيدة التي لا تقف عند حدّ. أن القرآن، من أجل أن نظل دومًا في الموقف الوسط الذي يميزنا عن سائر المواقف القلقة، النسبية، المتأرجحة، يحدثنا في أكثر من موضع، ووفق أشد الصور إثارة، عن هذه المسألة، إلا أنه يجب ألا يخطر ببالنا لحظة، أن في هذه الصور والآيات دعوة للزهد أو الفرار؛ لأن هذا يمثل تناقضًا أساسيًّا مع معطيات القرآن كله وتأكيده في مئات المواضع على ضرورة العمل والإبداع. إنما هو تقرير للحقيقة النهائية، وتثبيت للموازين العادلة، وعرض مقارن لعالمي الفناء والبقاء، ورؤية للمؤمنين تصدّهم عن الإفساد والطغيان:

- ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

- ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

- ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

ويتضح هذا المعنى الإيجابي للمسألة من خلال العديد من الآيات التي تندّد بالغرور البشري الذي ينبثق دائمًا عن الالتصاق الكامل بالحياة الدنيا، ويتمخض أبدًا عن الظلم والإفساد والطغيان:

- ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ [الجاثية: ٣٥].

- ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ [الأنعام: ٧٠][1].

- ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

- ﴿ ... فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣][2].

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

- ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

والغرور، إحساس مَرضيّ أشبه بالورم الخبيث الذي يمنع التقدير الموضوعي الصحيح لأحجام الأشياء. وحيثما تلفّتنا وجدنا الشيطان، عدو الإنسان، يكمن وراءه وينفخ فيه:

- ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

- ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ

---

(١) وانظر (الأعراف: ٥١).

(٢) وانظر (الحديد: ٢٠).

غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

ونسبية التجارب البشرية، وعدم دوامها، لا تبدوان فقط بعرضهما على مطلقات الآخرة وخلودها، إنما من خلال حركة التاريخ البشري كذلك، الحركة الدائمة التي ترفع وتخفض، وتقدم وتؤخر، وتنشئ وتعيد، بإرادة اللّه، ووفق نواميسه في الكون :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

وسنقف طويلًا عند هذه المسألة لدى حديثنا عن (سقوط الحضارات).

* * *
* *
*

المسألة الحضارية (٥)

وما دام نشوء الحضارات ونموها من جهة، وتدهورها وسقوطها من جهة أخرى، يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بمسألة (الصراع) وما يرافقه من (حركة) و (تناقض) أو (توازن)، كان لنا أن نقف عندها بعض الشيء في محاولة لتتبع أبعاد (الصراع) الحضاري قبل أن نمضي إلى مدارج السقوط التي يحدثنا عنها القرآن فيطيل الحديث. ولقد مرّ بنا كيف أن أهم المعطيات الهيغلية تتمثل في ذلك التأكيد الدائم على أن الحركة الحضارية إنما تحقق مسيرتها صوب الأحسن والأكمل عن طريق الصراع المستمر بين النقائض في عالم الأفكار، ذلك الصراع الذي يتقابل فيه النقيضان لكي ما يلبثا أن يسقطا عنهما كل سيئاتهما وسلبياتهما، ويلتقيان - من ثم - في موحد يجمع خير ما فيهما، ثم ما يلبث هذا الموحد بدوره أن يصطرع مع نقيضه لخلق موحد جديد يؤول إلى (تعبير) أرقى عن فكر العالم، وإلى مزيد من الاقتراب صوب المرحلة التي يتجلى فيها العقل الكلي الذي - بأمر منه - نشب الصراع بين النقائض وقاد، بإيجابية لا تعرف ترددًا ولا رجوعًا إلى الوراء، صوب المثل الحضاري الأعلى.

وجاء رواد التفسير المادي (ماركس وإنكلز) لكي يأخذوا عن هيغل نظريته في صراع النقائض كأساس للحركة الحضارية، وليجردوه بعد من كل حسنة. قالوا لأنه (مثالي) يتشبث بالمواقف التي لا يقرها العلم ولا المنطق التجريبي، وأن كتاباته تتميز - لذلك - بكثير من التعقيد والغموض الذي لا طائل وراءه. وأنه لم يدرك الساحة الحقيقية لاصطراع النقائض فعزاها إلى عالم الأفكار، والحال أن مسرحها الحقيقي هو المادة، ووسائل الإنتاج بالذات، تلك التي تخلق ظروفها الإنتاجية فصيغها الحضارية. وسخر ماركس منه عندما اتهمه بخلقه رجلًا يمشي على رأسه. إلا أن التفسير المادي ما لبث أن تعرض لنقد أشد مرارة؛ لأنه قصر نطاق الحركة (الديالكتيكية) على ساحة التبدّل في وسائل الإنتاج، وكان بإمكانهم أن يقولوا أن ماركس، وقد سعى إلى تعديل وضعية الرجل الهيغيلي الذي يمشي على رأسه، قد أخطأ المحاولة وجعله يمشي على بطنه !! على معدته !!

وعندما جاء (توينبي) طرح نظريته في (التحدي والاستجابة) مفسرًا بها حركة الحضارات قيامًا ونموًّا وتدهورًا وسقوطًا وانحلالًا. فحيثما كان التحدي البيئي أو البشري

مناسبًا في حجمه لمقدرة الجماعة البشرية، وحيثما كانت الجماعة في وضع تاريخي يمكنها من الرد على التحدي، كان للحضارة أن تتقدم وللحركة أن تواصل مساعيها لإيصال المعطيات الحضارية إلى قمة منحناها. وبالعكس، تؤول الحركة إلى التعثر، والحضارة إلى الانتكاس، حيثما جاء (التحدي) دون، أو أعلى، من الحد المناسب، أو عجزت الجماعة عن الاستجابة له والرد عليه بقدر كافٍ من القوة والفاعلية.

إن هيغل كما يتبين لنا يقصر الصراع على نطاق الأفكار ويرده إلى مشيئة العقل الكلي الذي يعمل من خلال العالم نفسه، لا من موقع (فوقي) كما قد يتوهم البعض فيقربه - خطأ - من التصور الديني، وهو بهذا يجرد الإنسان والجماعة البشرية من اختيارها الحر، ودورها الإرادي في حركة التاريخ. والماديون يفعلون الشيء نفسه، ولكن على مستوى المادة التي يجد الإنسان والجماعة البشرية أنفسهم حيالها غير قادرين على تغيير منطقها الجدلي الصارم الذي يمضي إلى غايته دونما أي اختيار أو تدخل بشري في طبيعة العلاقات الديالكتيكية. أما توينبي فيقترب بنا خطوات واسعة صوب الرؤية الصحيحة والنظرة الأكثر انفتاحًا عندما يضع على ساحة الصراع والحركة طرفي المسألة: (البيئة) و(الإنسان والجماعة)، ويعطي للجانب الآخر اختياره وحريته في تقرير المصير.

إلا أن أيًّا من رواد هذه المذاهب التفسيرية الثلاثة (المثالية، المادية، الحضارية) لم يألوا بجديد، في أهم جوانب معطياتهم على الإطلاق، وهو التأكيد على أن محور الفاعلية الحضارية، وأس الأسس في الحركة التاريخية هو الصراع، أو الجدل (الديالكتيك) أو تحاور النقائض المتقابلة. وليس ثمة داعٍ للإشارة إلى تكرار ورود هذه المسألة على ألسنة كثير من مفكري القرون القديمة والوسطى. فالذي يعنينا هنا هو الموقف الإسلامي إزاء (الصراع) مستمدًّا من كتاب اللّٰه.

بمجرد أن نرجع إلى واقعة خلق آدم، سنلتقي بهذا المقطع ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٤ - ٣٦]. الصراع في أول لحظة، ذلك هو جوهر الحياة البشرية وتميزها عن سائر أنماط الحياة الأدنى أو الأرقى.

ولكن أي صراع هذا الذي يطرحه القرآن ؟ وما هي مساحته وأبعاده؟

إذا تتبعنا المعطيات القرآنية حول هذه المسألة وجدنا كتاب اللّه يمد (الصراع) إلى أبعد الأمداء، طولًا وعرضًا وعمقًا، بالاتجاهين العمودي والأفقي، ويخص له أوسع المساحات. أنه ما يلبث، في آيات أخرى، أن يغادر به، محوره الأساسي: التقابل المتضاد بين آدم والشيطان، إلى آفاق أخرى تعطيه صورته الكاملة والمقنعة في الوقت نفسه. إنه على مستوى الكون والطبيعة متوغل في صميم تركيبهما، وعلى مستوى الإنسان والبشرية قائم في مدى علاقتهما جميعًا.

في الكون والطبيعة هنالك التقابل الشامل بين السالب والموجب، والتركيب الزوجي الذي يتجاوز عوالم الحياة على اختلاف درجاتها إلى صميم المادة. وهو في كل الأحوال والأوضاع مصدر التوليد والتكاثر والاتساع والحركة الإيجابية الهادفة التي تؤول إلى ديمومة الاتساع الكوني الذي يتم بإرادة اللّه من خلال النواميس الطبيعية الدقيقة المعجزة القائمة على هذا التحاور والتقابل بين (الأزواج) سلبًا وإيجابًا، والذي يجيء مصداقًا لما أعلن عنه القرآن الكريم: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، نقرأ في كتاب اللّه:

- ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٧].
- ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠].
- ﴿ ... وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ [ق: ٧].
- ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].
- ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].
- ﴿ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴾ [الزخرف: ١٢].
- ﴿ ... وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣].

وآيات أخرى كثيرة تشير إلى مدى ارتباط هذا التركيب الثنائي الفعال في بنية الكون الطبيعية. وإننا لنلتقي، في الآيات السابقة، بعبارات تثير التأمل العميق في هذه المسألة ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]. ومهما كشفت علوم الطبيعة والرياضيات من أسرار هذه (الزوجية) في قلب الذرة، فإنها لم ولن تضع يدها

بالكلية على (مطلق) خفايا الكون، وسوف تظل جوانب هائلة ومساحات شاسعة بحاجة إلى مزيد من الجهود العلمية، التي يمكن أن تبذل على مدى قرون وقرون للكشف عن السر الكامل لهذا التركيب ودوره في (تحريك) خلق اللَّه !!

على مستوى الإنسان والبشرية يأخذ الصراع، أو التناقض، أو التقابل الثنائي الفعّال، أكثر من شكل، ويمتد إلى أكثر من اتجاه. منذ اللحظة الأولى لخلق آدم يجابه الإنسان بقوة الشر المقابلة متمثلة بالشيطان، وكل ما يملك من أساليب يدهم بها الإنسان من الخارج أو يبرز له من الأعماق من صميم الذات. يجيئه من مسارب العاطفة والوجدان والنفس، أو يندفع إليه من منافذ الحس، أو يستصرخ فيه شهوات الجسد، أو يتقدم إليه محملًا ببهرج الدنيا وزينتها. يجند لقتاله والمروق به عن ساحة الخير، كل القوى المادية والمعنوية وكل الذين يختارون - بإرادتهم - أن ينتموا إليه أناسًا كانوا أم شياطين أم جنًّا. ورغم أن أسلحة الشيطان كثيرة، متنوعة، عاتية، إلا أن الإنسان قد وهب إزاءها قوى معادلة وإمكانيات مكافئة تعطي للصراع الدائم بين الطرفين مدى واسعًا، ممتدًّا، بحيث إن النصر والغلبة لن تجيء بسرعة، سهلة، كالضربة الخاطفة لأي منهما. إن هذه (المقابلة) تمثل تحديًا واستفزازًا لا بد منهما (لتحريك) الإنسان فردًا وجماعة صوب الأحسن والأمثل، وصقل طاقاتهما لكي يكونا أكثر مقدرة على المقاومة والصراع، وبالتالي أقدر على مواصلة الصعود في الطريق الموصول بالسماء بدءًا ومنتهى.

إن الصراع بين الشيطان والإنسان، شامل واسع معقد متشابك، إنه تقابل بين الخير والشر على أوسع الجبهات، تقابل لا بد منه إذا ما أريد للحياة البشرية أن تتجاوز الكسل إلى النشاط، والفتور إلى التمخض، والسكون إلى الحركة، إنه ابتلاء فعّال لن يأخذ تاريخ البشرية - بدونه - شكله الإيجابي ولا يمضي إلى غاياته المرسومة منذ هبوط آدم - ولا نقول سقوطه، الكلمة التي لم ترد أبدًا في أي مقطع قرآني يتحدث عن آدم - إلى يوم الحساب!!

- ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٥٣].
- ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه: ٨٥].
- ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣].

- ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٧].

- ﴿ ... وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴾ [ص: ٢٤].

- ﴿ ...وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ... ﴾ [الحديد: ١٤].

- ﴿ ... إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠].

- ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

- ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

- ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء: ١١١].

- ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ... ﴾ [الحج: ٥٣].

ويبقى نداء اللَّه الدائم للبشرية: ﴿ ... يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف: ٢٧]. محورًا كبيرًا يدور عليه الصراع، والحركة، والتقدم إلى أمام أو الرجوع إلى وراء. ورغم أن اللَّه سبحانه وهب بني آدم قدرات العقل والروح والإرادة والعمل، وعلمهم الأسماء كلها، إلا أنه - سبحانه - لم يتركهم وحدهم في تجربة صراعهم في الأرض، وظل يمدهم حينًا بعد حين، بتعاليم السماء وشرائعها العادلة وصراطها المستقيم الذي يحيل حركة البشرية في العالم إلى حركة متقدمة أبدًا في خط متوازن صاعد لا رجوع فيها إلى وراء.

- ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

- ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

- ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ... ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وأشد ما يرفضه القرآن في دعوة البشرية للإفادة من هذا الصراع وتحويله إلى حركة متقدمة صاعدة، هي نزوع بعض الزعامات والجماعات إلى الوراء، ومواقفهم الرجعية التي ترفض أية دعوة تسعى لكي يحتلوا مواقع في الأمام:

- ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

- ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ... ﴾ [الأعراف: ٢٨].

- ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ... ﴾ [الأعراف: ٧٠].

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

- ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٤].

- ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٧].

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

- ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧١].

- ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٤].

والصراع المتنوع المتقابل قائم أيضًا في صميم العلاقات البشرية، تستقطبه دائمًا عبر مجراه الطويل كلمتا الإيمان والكفر أو الحق والباطل، وترفده جداول وأنهار متشابكة تجيء من هذا الصوب أو ذاك. ومن خلال هذا الصراع الطويل تتحرك مياه التاريخ فلا تركد ولا تسكن، وتحفظ بهذا قدرتها على الجودة والنقاء.

إن الإرادة الحرة، والاختيار المفتوح اللذين منحا الإنسان فردًا وجماعة، للانتماء إلى هذا المذهب أو ذاك، يقودان - بالضرورة - إلى عدم توحد البشرية وتحولها إلى معسكر متشابه واحد أو أرقام في جداول رياضية صماء. إن قيمة الحياة الدنيا وصيرورتها الحضارية الدائمة تكمن في هذا الصراع القائم بين كتل البشرية المختلفة المتضادة الموزعة. وإن حكمة اللّه شاءت، حتى بالنسبة للكتلة أو المعسكر الواحد، أن تشهد

انقسامًا وتغيرًا وتنوعًا وصراعًا. هذه هي طبيعة العلاقات البشرية ما دامت تمارس حريتها في الأخذ والعطاء، وتلك هي إرادة اللّه المسبقة في أن تكون حياة الناس مغايرة نوعيًّا لحياة الخلائق الأخرى الأعلى مرتبة أو الأدنى سلمًا.

إن القرآن الكريم يحدّثنا عن هذا التغاير الذي يقوم عليه الصراع البشري في أكثر من صورة ووفق أشد الصيغ واقعية ووضوحًا:

- ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٨].

- ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

- ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩].

- ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ .... ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

- ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٣].

- ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧].

- ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

- ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

- ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا

جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

أكثر من هذا أن القرآن، انطلاقًا من موقفه الواقعي في التفسير، يبين في أكثر من موضع أن (الأكثريات) البشرية تقف دائمًا بمواجهة الحق، الذي لا تنتمي إليه إلا القلة الطليعية الرائدة، نظرًا لما يتطلبه هذا الانتماء من جهد وتضحية وعطاء دائم لا يتقبلها الكثيرون:

- ﴿ ... بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

- ﴿ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٨].

إلا أن مصادر القوة والطاقة في صراع الحق والباطل لا تكمن - كما يعلمنا القرآن - في التباين العددي، وهو تباين كمي لا يقاس بالتباين النوعي الحاسم بين معسكري الإيمان والكفر: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وكثيرًا ما يكون اختلاف الألسنة والألوان - الذي هو بحد ذاته صيغة من صيغ الإبداع الإلهي المعجز - والذي يعقبه تغاير الثقافات والقوميات؛ أحد العوامل الكبيرة التي تكمن وراء الصراع البشري المحتوم، ومن ثمّ يذكرنا القرآن به: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٢].

أما عن الهدف من وراء هذا (التغاير) البشري الذي يعقب تناقضًا فصراعًا فتحركًا، فإن القرآن يجيبنا عن كل سؤال يمكن أن يبرز في هذا المجال:

- ﴿ ... وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

- ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤١].

تلك هي القاعدة الأساسية، أن هذا التدافع والصراع المركوز في جبلة بني آدم يقود إلى (تحريك) الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشد عزائمها وتصقل قدراتها المقاومة الصاعدة في غمرة التحديات المتعاقبة التي يطرحها الصراع، وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن الذي ينفذ أمر اللَّه وفق القاعدة الإيمانية العريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، على امتداد هذه القاعدة. وثمة آيات أخرى تبين لنا كيف يكون الصراع (ميدانًا) حيويًّا للكشف عن (مواقف) الجماعة البشرية والتعرف على أصالة المؤمنين. ففي جحيم المعارك، وعلى وهجها المضيء، يتضح الذهب من التراب، ويتميز الطيب من الخبيث، وتتحول (التجربة) إلى منخال كبير، يسقط، وهو يتحرك يمينًا وشمالًا، كل الضعفة والمنافقين والعاجزين والمترددين في مواصلة الحركة صوب المصير المرسوم:

- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١].

- ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

- ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

- ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

- ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ... ﴾ [محمد: ٤].

وفي آية أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن رؤية الإنسان القاصرة التي تعجز عن النفاذ إلى ما وراء الأحداث، والتي لن تقدر مهما أوتيت من طاقة، على الامتداد الزمني لتقدير عواقب الأمور. وما أكثر ما يتساءل الإنسان عن الحكمة من التقاتل والقصد من سفك الدم البشري، وما أكثر ما تخيل الفلاسفة والمفكرون عالمًا بشريًّا، لا يشهد قتالًا، ولا تسفك في ساحته دماء. ولكن هيهات، ما دامت المسألة مرتبطة في جذورها بالوجود البشري المتغاير المتنوع المتضاد المتصارع على الأرض، وما دام (الصراع) أمرًا لا مفر منه إذا ما أريد للحياة الإنسانية أن تتحرك وتتقدم وتتجاوز مواقع السكون والركود والفساد ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وهكذا، دائمًا تجيء رؤية اللَّه

الشاملة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ لكي تتمم رؤية الإنسان وتنير لها الطريق. ﴿ ...فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩].

إلا أن القرآن، وهو يتحدث عن (الصراع) الناجم عن التغاير البشري في المذاهب والأجناس واللغات والبيئات الجغرافية؛ لا يقصر المسألة على التقاتل والتدافع، إنما يمدها إلى ساحة أوسع، ويعطي للصراع البشري آفاقًا بعيدة المدى تبدأ بإشهار السلاح وتمتد لكي تصل إلى الموقف الأكثر إيجابية، والذي يجعل هذا التغايرالبشري سببًا لعلاقات إنسانية متبادلة بين الأمم والأقوام والشعوب تسعى للتقارب والتعاون والتعارف، مـع بقـاء كـل منها علـى مذهبه أو جنسه أو لونـه أو لغته أو بيئته الجغرافية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وبينما تسعى معظم المذاهب التفسيرية والمعطيات الفكرية للوضعيين إلى تصور عالم لا صراع فيه (الهيغلية في مرحلة تجلي المتوحد، والماركسية في مرحلة حكم البروليتاريا) يسوده السلام والمحبة، فتتجاوز بهذا واقعيتها وعلميتها، وتغفل عن (الأساس) الدائم في تاريخ البشرية والمولد الأبدي لحركته الحضارية، وتتناقض تناقضًا أساسيًّا مع مذاهبها - هي نفسها - التي بدأت بالحركة وآلت إلى سكون غير واقع ولا ممكن. بينما يحدث هذا إذا بالقرآن ينطلق من (موقف) واقعي - إذا صح التعبير - لأنه يتحدث عن تجارب واقعة وينبثق عن رؤية تجمع الماضي إلى الحاضر، إلى المستقبل، فيؤكد مسألة (الصراع) من جهة، ويقر من جهة أخرى التمايز الأبدي للشعوب والأقوام والجماعات، ويصعد من جهة ثالثة أساليب الصراع حتى ليصل بها إلى مرحلة التعامل الإنساني الكامل القائم على التعارف والتعاون، دون أن يتجاوز بهذا واقعيته أبدًا.

ما هو دور الجماعة (المؤمنة) في ميدان الصراع الواسع الدائم هذا؟

إن القرآن يبين لنا أولًا، أن هذه الجماعة واحدة، سواء عملت مع نوح أم انتمت إلى دين موسى، أم آمنت بنداءات المسيح، أم استجابت لدعوة الرسول - عليه السلام - واحدة في تصورها وفي مسيرتها وفي أهدافها وفي مصيرها الذي تكدح لتحقيقه على مدى التاريخ :

- ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

- ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وفي عشرات المواقع يحدثنا القرآن عن هذه (الوحدة) التي تربط بين الأنبياء وبين أتباعهم على مدار التاريخ، ما داموا جميعًا استجابوا لنداء اللَّه وآمنوا بوحدانيته المطلقة التي يتمخض عنها بالضرورة التلقي عنه وحده والتوجه إليه وحده. هذه الجماعة أو الأمة التي بلغت أقصى درجات نضجها وفاعليتها وامتدادها على يدي الرسول ﷺ؛ حيث أعلن القرآن عن توقف الوحي نهائيًّا، وعن إلقاء المسؤولية كاملة على الأمة الإسلامية وهي تعمل وتكافح لتحريك العالم صوب الأهداف التي رسمها القرآن، كتاب اللَّه الأخير، المحفوظ.

إن الإسلام يحدثنا، من خلال كتاب اللَّه وسنة رسوله، أن صراع المسلم في العالم (فردًا وجماعة) يتخذ اتجاهين: أحدهما: باطني ذاتي عمودي سماه الرسول: (الجهاد الأكبر) لما يتطلبه من مصاعب ويستلزمه من قدرة على المقاومة والمراقبة والحذر والتجرد، وهو يهدف إلى مواجهة الإنسان لذاته وتغييرها تغييرًا حركيًّا مستمرًّا من أجل أن يسقط عنها كل النزعات والشهوات والممارسات السلبية التي من شأنها أن تصدها عن التوحد الكامل والاندماج الشامل في مسيرة الفكرة التي تتطلب - عبر ديمومتها الحركية - من المنتمين إليها شروطًا نفسية وأخلاقية وذهنية لا بد من توفرها إذا ما أريد للحركة أن تصل إلى أهدافها بأشد الأساليب نقاء وتركيزًا وتوحدًا ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦].

والمسلم يجد نفسه إذن، إزاء تجربة صراع ذاتي دائم لمجابهة قوى الشر والسلب في نفسه والتفوق عليها، للاقتراب أكثر من جوهر الدعوة التي ينتمي إليها، والاندماج فيه، بعد إطراح كل العوائق التي تنبثق في أعماق تكوينه الذاتي، بما تطرحه قوى البيئة والوراثة من مؤثرات. وبدون هذا الصراع الإرادي الباطني من أجل تغيير الذات، فإنه لا ينتظر أبدًا حدوث أي تغيير أساسي على مستوى الصراع الخارجي في العالم. إن قاعدة الحركة نحو الأحسن والأكمل عقائديًّا في صراعنا الخارجي مع القوى البشرية المضادة هو أن نسعى لإحداث هذا التغيير باطنيًّا ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ... ﴾ [الرعد: ١١]. وفي آية أخرى نلتقي بالصيغة المعاكسة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣]. والقاعدة القرآنية في كلتا الحالتين هي أن أي تغير نوعي في الخارج لا يتحقق إلا بعد حدوث التغير الباطني في الذات الإنسانية، سلبًا وإيجابًا، وسنعود مرة أخرى لهذه القاعدة القرآنية

الحاسمة لدى تحليلنا لمسألة سقوط الحضارة، نظرًا لارتباطها الوثيق بها.

أما صراع الجماعة الإسلامية على مستوى العالم - والذي سنعود إليه هو الآخر لدى تحليلنا لمسألة السقوط - فيصطلح عليه القرآن والسنة باسم (الجهاد). وهو يتضمن كل أشكال (الصراع) الخارجي على الإطلاق: مذهبيًّا، سياسيًّا، عسكريًّا، أخلاقيًّا، اقتصاديًّا، وحضاريًّا، وهو - بهذا - يمثل مساحة للحركة أوسع بكثير من تلك التي تحتلها صراعات التفاسير المذهبية، سيما المثالية والمادية، كما أنه يتضمن ديمومة زمنية يعبر عنها حديث الرسول ﷺ: « **الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة** » في وقت ترى فيه بعض مذاهب التفسير الوضعية أنه سيجيء اليوم الذي يكف فيه الصراع على مستوى العالم. وهو أمر يتناقض - كما سبق وأن أكّدنا - مع طبيعة معطياتهم (الحركية) من جهة، ومع صميم العلاقات البشرية من جهة أخرى.

إن القرآن الكريم يبين لنا كيف أن هذا الجهاد هو صراع دائم بين معسكرين كبيرين كل منهما ينتمي إلى فكرة ويلتزم موقفًا ويعمل في سبيل: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ** ﴾ [النساء: ٧٦] ويسم هؤلاء بأنهم يعملون تحت لواء الشيطان، عدو بني آدم، ومصدر الصراع الرئيسي في العالم، إلا أن كيده يبدو ضعيفًا غير قادر على الصمود إزاء أية جماعة مؤمنة تؤثر الجهاد على الاستسلام والحركة على القعود؛ لأنها تنتمي إلى اللَّه الذي يملك كل شيء ويقدر على كل شيء، والذي ﴿ **يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟** ﴾ [الحج: ٣٨] بينما ينتمي أولياء الشيطان إلى قوة هي في الأساس جزء ضئيل محسور من خلق اللَّه ﴿ **فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٧٦].

ومن ثم يجيء النصر النهائي، دومًا، لصالح المؤمنين المجاهدين الذين يتحركون أبدًا بأمر من اللَّه ﴿ ... **حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ** ... ﴾ [البقرة: ١٩٣]، لمصارعة القوى المضادة والتغلب عليها:

- ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].
- ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].
- ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].
- ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

- ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ١٠٢، ١٠٣].

وسواء تم هذا النصر لمعسكر الإيمان في مراحل تاريخية محددة، كما حدث فعلًا لعديد من الأديان السماوية الكبرى، أم أنه سيتم - ثانية - لحساب الإسلام، كحصيلة نهائية للموقف الديني، في يوم قريب أم بعيد، فإن جهاد المؤمنين ماضٍ في بقاع العالم، بكل وسيلة شريفة، وإلى يوم القيامة، وهو الذي حركهم، ويحركهم؛ دومًا لتحقيق كلمة اللّه ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

إن الجهاد يضع الأمة الإسلامية أمام مسؤولياتها الحركية الكبرى في العالم، ويمنحها فاعلية دائمة إزاء التجارب والمواقف البشرية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويرفعها إلى موقع (الشهادة) على الناس. ذلك الموقع (الوسط) المميز المتفرد، الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم على كل الجبهات، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وقتالًا بالكلمة وكفاحًا مسلحًا. ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴾ [البقرة: ١٤٣].

إن القرآن الكريم - بتأكيده العميق - على دور الصراع في تاريخ البشرية وفي حركتها (الصاعدة) أو (الراجعة)، يمد مساحة هذا الصراع إلى أبعد الآفاق، كما أنه لا يجعل الحركة صدورًا عن صراع النقيضين (كما أكد هيغل وماركس وغيرهما) ويقصرها على هذه المساحة الضيقة، إنما يمد جذورها إلى (صراعات) أخرى أشد تعقيدًا وأكثر تنوعًا، كما أنه يخرج بها عن نطاق الصراع أساسًا، وذلك عندما تجيء بمثابة استجابة داخلية، مقرونة بعمل خارجي، لنداء من فوق. إن حوارًا كهذا بين القيم العليا والوجود السفلي هو الذي يحرك - في أحيان كثيرة - أحداث التاريخ على خط صاعد. إن المثل الأعلى - كذلك الذي طرحه الأنبياء مثلًا - كان دائمًا بمثابة هدف يتحرك إليه الذين يتخبطون في الفوضى أو الذين يتقلبون في الظلمات، أو الذين يتعذبون شتى صنوف العذاب، وتمنعهم القوى العقائدية المضادة من تحقيق أهدافهم. إن بحث الضائعين والحائرين والمعذبين عن النجاة، عن مثل أعلى، عن هدف يطمحون لبلوغه، هذا البحث الجاد كان في أحيان كثيرة (المحرك) الذي يسوق الأفراد والجماعات إلى مصائرهم ويصنع تاريخهم.

وإذن فإن من الخطأ والتزييف أن نصدر حكمًا على كل حركات التاريخ بأنها جاءت نتيجة لصراع النقيضين.

إن (الصراع) نفسه – كما رأينا – يتخذ أشكالًا عديدة لا تقتصر على تقابل الضدين وتغلب أحدهما على الآخر في عالم الذكر أو المادة. إنه يبدو – أحيانًا – إرادة ذاتية تسعى إلى التوحد والائتمان الذاتي في وجدان الإنسان ومع المحيط الخارجي، ويبدو أحيانًا أخرى رغبة فعالة في تحقيق تفاهم متبادل وتعارف وثيق وسلم عام بين الإنسان والإنسان، أو بينه وبين الوجود. وهو يبدو – أحيانًا ثالثة – عملية استقطاب للقوى والطاقات، وتنظيم لها، وحماية لمقدراتها، من أجل أن تصب جميعًا في مجرى المبادئ الجديدة والدعوات الكبرى.

وكل هذه الأشكال من الصراع لا نجد فيها تقابل نقيضين بقدر ما نجد محاولة للالتئام والتوحد والاستقطاب والتجمع والانسجام. وبعد هذا – وخلاله أيضًا – لا بد للحركات أن تجتاز صراعًا بين النقائض، لكنها نقائض على مستويات شتى: نفسية وفكرية وعقيدية ووجدانية وعرقية وثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية .. إلى آخره. بمعنى آخر أنها نقائض بشرية فيها كل ما في الإنسان من مكونات روحية ونفسية ومادية. ومن التزييف والتجزيء لتاريخ الحركات، أن نقصر النقائض على جانب فحسب، ونحددها في إطار صارم لا يملك أية مرونة، كالجانب العقلي عند هيغل، أو المادي الاقتصادي عند ماركس وإنكلز؛ لأن هذين الجانبين – على أهميتهما وثقلهما – لا يغطيان كل مساحة الفاعلية الإنسانية التي تنبثق عن رغبة إرادية شاملة في مصارعة كل ما يتعارض مع إرادتها ووجودها وأهدافها ومطامحها، روحيًّا كان أم ماديًّا.

هذا إلى أن (الصراع) ليس دائمًا قوة إيجابية تشد حركة التاريخ إلى الأمام، إننا بمجرد تصورنا ذلك نغرق أنفسنا في نزعة مثالية، ونتجاوز ما يحدث فعلًا على أرض الواقع؛ حيث يتمخض الصراع في كثير من الأحيان عن ردة عكسية إلى الوراء، وربما عن تفتت التجربة التاريخية وسقوطها في صراع غير متكافئ مع قوى تفوقها بكثير. إن الحركة التاريخية نفسها لا تملك عقلًا كليًّا واعيًا بذاته يمكنها من مواصلة النضال الأبدي، صوب الأحسن والأكمل، كما يرى هيغل وماركس ورفاقهما، كل حسب تصوره الخاص.

إن الذي يملك زمام العقل والوعي والإرادة عبر التاريخ هو الإنسان وحده، وما دام الإنسان حرًّا في اعتماد قدراته هذه فإنه كثيرًا ما يسيء الاختيار أو يحسنه ابتداءً، ولكنه

لا يحيطه بالضمانات الكافية، فيجيء (الصراع) لكي يكشف عن نقاط الضعف في التجربة البشرية، ويوجه إليها الضربة القاصمة التي قد تصدر - أحيانًا - عن فئة غاية في البطش والقسوة واللا أخلاقية. ويؤول الأمر إلى ردة تاريخية، رجعية، مهما كانت نتائجها البعيدة ومغازيها غير المنظورة، إيجابية في شحذ الهمم وتعميق الوعي بالمصير، إلا أنها - على أية حال - رجوع وليست تقدمًا.

* * *
* *
*

الفَصْلُ الرَّابِعُ

سقوط الدول والحضارات

سقوط الدول والحضارات (١)

إذا ما انتقلنا إلى الفقرة الأخيرة من هذا البحث، والتي تتعلق بمسألة تدهور الدول والحضارات وسقوطها فإننا نجد - كما سبق وأن مرّ بنا - أن معظم مذاهب التفسير الوضعي للتاريخ تكاد تجمع على القول بحتمية سقوط الدول والحضارات، بشكل أو بآخر.

فهيغل - في مثاليته - يرى الناس والمجتمعات والدول في ممارساتهم وتجاربهم التأريخية كأدوات مرحلية يستخدمها العقل الكلّي في فترة زمنية محددة، ثم ما يلبث أن يطيح بها صوب الفكرة الأحسن؛ لكي يجيء ذلك اليوم الذي يكون التاريخ فيه - بشتى معطياته - تعبيرًا متجليًا كاملًا لهذا العقل.

وماركس يخضع حركة التاريخ، بدولها وحضاراتها وتجاربها، لحتمية تبدل وسائل الإنتاج وانعكاسه على (الظروف)، وأن كل وضع تاريخي مآله الزوال بمجرد هذا التبدل الديناميكي الدائم. ثم ما يلبث ماركس أن يقع في تناقض أساسي مع نظريته عندما يقرر (الدوام) و(الثبات) لمرحلة حكم الطبقة العاملة (البروليتاريا) حيث لا زوال بعدها. وهذا يشبه - في إحدى جوانبه - الديالكتيك الهيغلي الذي يؤول بحركة العالم إلى السكون وعدم التغير بمجرد بلوغها مرحلة تجلّي المتوحد !!

أما شبنكلر وتوينبي فيعلنان عن حتمية السقوط كأمر لا مفر منه، وبينما يغرق شبنكلر في تشاؤميته نجد توينبي يقع في تناقض - صريح هو الآخر - عندما يؤكد في الأجزاء الأخيرة من دراسته للتاريخ على أن هنالك أملًا في بقاء الحضارة الغربية المعاصرة بوجه الأعاصير. فما هو الموقف (الإسلامي) في هذا الصدد؟

في البداية تبرز أمام الوعي آية حاسمة ذات دلالة خطيرة في هذه المسألة، والتي تقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾. إنها ترد في هذا الإطار القرآني تعقيبًا على تجربة المسلمين في أُحد: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٤١].

إن القرآن يطرح في هذا المقطع التاريخي ذي المغزى العميق، والذي ترد فيه كلمات ذات علاقة عضوية بالمسألة مثل: سنن، مداولة، تمحيص. قاعدة أساسية في موقفه إزاء الدول والتجارب البشرية والحضارات. إنه بواقعيته وإحاطته المعجزة يقرر منذ البدء عدم ديمومة أي من هذه المعطيات، ولا يستثني من هذا الإسلام والمسلمين ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾. وقد قال: ﴿ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بمعنى عموم هذه (السنة) التي لا محيص عنها، والتي تقوم بلا ريب على أسبابها ومقدماتها في صميم الفعل الإنساني نفسه.

وفي أماكن عديدة أخرى يؤكد لنا القرآن هذه الحتمية كأجل لا مفرّ من نزوله في وقته المحدّد سلفًا في علم اللَّه، ويكشف لنا عن صيغها في صميم الممارسة البشرية:

- ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود: ٨].

- ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ [الحجر: ٤، ٥].

- ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ [الحجر: ٢٤].

- ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٨].

- ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

- ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

- ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٤].

ونظرًا لارتباط هذه الآجال بمواعيد ثابتة محددة في علم اللَّه، كجزء من نظام كوني متماسك ووفق مقاييس زمنية قد تبدو للإنسان - ذي القدرات النسبية الموقوتة - طويلة، ونظرًا إلى أن إرادة اللَّه سبحانه وحكمته في خلقه، شاءت أن تمد في هذه الآجال كي تمنح الفرصة كاملة لكل جماعة أن تكفّر عن ظلمها وطغيانها، وأن تسعى لالتزام الطريق العادل المستقيم. نظرًا لهذا وذاك، يتصور بعضهم، أنهم غدوا بمنأى عن عقاب اللَّه، وأنه لا تدهور ولا سقوط. ويتطرف بعضهم الآخر ويستعجل المصير قبل تحققه على سبيل

التحدي والاستفزاز. إلا أن هؤلاء وهؤلاء لم يدروا أن كتابهم لم يبلغ أجله، وأنه إذا جاء فليس لهم إلا أن يعانقوا مصائرهم التي صاغوها بأيديهم سلفًا، والتي مُدّ في أجلها لكي يزيدوها بممارساتهم السافلة، بلورة ووضوحًا وانطباقًا على هذه الممارسات:

- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

- ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

- ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٨، ٥٩].

- ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه: ١٢٩].

- ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

- ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٥].

- ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [الشورى: ١٤].

والقرآن الكريم يطرح فكرة المداولة كفعل دايناميي يستهدف (تمحيص) الجماعة البشرية، وإثارة الصراع الدائم بينها، الأمر الذي يتمخض عن تحريك الفعل التاريخي، وخلق التحديات المستمرة أمام المنتمين إلى هذا المذهب أو ذاك. إنه لا يفرزها تشاؤمًا وحزنًا كما هو الحال في بعض المواقف التفسيرية الوضعية، ولا يطرحها عبثًا ولا جدوى كما هو الحال في مواقف أخرى. ولا يقدمها كحتمية قاهرة يتحول الناس إزاءها إلى عبيد مسلوبي الإرادة، والعقل الحرّ، والاختيار المسبق، كما هو الحال في مواقف ثالثة. إن التعبير القرآني نفسه يحمل دلالاته العميقة، كما هو شأن القرآن دائمًا.

إن (المداولة) توحي بالحركة الدائمة، وبالتجدّد، وبالأمل. وتقرّر أن الأيام ليست ملكًا لأحد، ومن ثم لا داعي لليأس والهزيمة، فمن هم في القمة الآن ستنزل بهم حركة (الأيام) إلى الحضيض، ومن هم في القاع ستصعد بهم الحركة نفسها - ومن خلال

فعلهم الحرّ وحركتهم واختيارهم - إلى القمة. إن (المداولة) القرآنية تحمل كافة جوانب إيجابيّتها التاريخية : حركة العالم المستمرة، وتمخّض الصراع الفعّال، وديمومة الأمل البشري الذي يرفض الحزن والهوان: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]!!

تكاد الحياة الدنيا تبدو من خلال الموقف الإسلامي، أشبه بالناعور. والشجاع الشجاع هو الذي يحصل على (صعدة) أكثر في تاريخ هذه الحياة التي تدور فيها المواقف ولا تستكين لأحد، من أجل أن يرى البشرية صورًا من حقائق التطبيق الصحيح للمبادئ السماوية. إن هذه الوضعية الداينامية أشبه - أيضًا - برجل كتب عليه أن يحيا في مدينة ما، وأتيح له أن يغادرها إلى أي مكان مرتحلًا، طالما أسعفته إمكاناته وإرادته، إلا أن مصيره دائمًا هو أن يعود إلى مدينته الأولى. والإنسان كلما كان ذا إرادة أقوى، وعزيمة أمضى، وإيمان أعمق، وجهد وإبداع أشد تركيزًا، أتيح له السفر إلى منطقة أبعد لاكتشاف مزيد من المجاهيل في الطبيعة والعالم.

إن كلًّا منا هو هذا الرجل، وبمجموعنا كجماعة ننتمي إلى هذا المبدأ أو ذاك نستطيع أن نرحل دائمًا، و نعلم البشرية أن ترحل معنا إلى تلك الآفاق البعيدة الرائعة، فإذا ما (حتّم) علينا أن نعود؛ لأن حكمة اللَّه سبحانه تقتضي بأن نسمح للآخرين كي يرحلوا بدورهم؛ لأن من حقهم أن يرحلوا، بعد إذ ضعفت إرادتنا وقويت إرادتهم، وخارت عزيمتنا ومضت عزيمتهم ، وتسطّح إيماننا وتوغل إيمانهم، وتفكك جهدنا وإبداعنا وتركز جهدهم وإبداعهم. إذا ما حدث هذا، وهو لا بد أن يحدث، إذا ما أريد للعدل الكوني أن يأخذ مجراه، فلا بد - وفق منطق المداولة نفسه، ودايناميّته وما يحمله من شحنات الأمل - أن نبذل محاولات ثانية وثالثة من أجل إعادة الكرّة والتهيؤ لمرحلة أكثر غنى وعطاء وشمولًا. وهذا لا يعني أن المنجزات الحضارية عمومًا تصاب بنكسات (دورية)، على العكس، أنها تبقى في الأغلب الأعم، صاعدة على سلم لا ترجع عنه إلى وراء، إلا إذا مارست الأمم القوية لعبة الدمار الشاملة التي يستبعد أن تحدث أساسًا. هذا فيما يتعلق بالإبداع المادي للحضارة، أي ما يصطلح عليه باسم (المدنية). أما القيم والمبادئ وقواعد السلوك الفردي والجماعي والدولي، والممارسات الأخلاقية والروحية، والعاطفية، ومعطيات الفكر والوجدان، فيما يسمى بحقل (المعارف الإنسانية) أدبًا وفلسفة وفنًّا وأساليب تفكير ومواقف نفسية واجتماعية، فهي التي تتعرض للانتكاس

وهي التي لا تستقيم إلا بانتصار المبدأ الأقوى والأكثر انسجامًا مع بنية الإنسان ودوره في الكون، ولن يتأتى هذا إلا بأن يتولى زمام القيادة الحضارية الشاملة، ويكون في القمة رجال يؤمنون باللَّه واليوم الآخر و﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣]، وإلا في أن يتسلّم المسلمون مكانتهم (الوسط) في قلب العالم ليكونوا ﴿ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]!

إن الذي يفرق الموقف الإسلامي ويميّزه إذن، هو أنه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات، ما يمكن تسميته (الحتمية التفاؤلية). إنه يقرر حتمية الانحلال والسقوط، ولكنه يقرر - في الوقت نفسه - إمكانية أية أمة أو جماعة أن تعود باستمرار لكي تنشئ دولة أخرى، أو تمارس تجربة جديدة، أو تتولى زمام القيادة الحضارية والعقائدية، بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك، وأولها عملية (التغيير الداخلي) التي أكد القرآن على حدها الإيجابي بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، وأكد على حدها السلبي بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣]، هذا التغيير الذي يمتد إلى كافة المساحات الأخلاقية، وسائر المكونات النفسية الأساسية، وكل العلاقات الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكن الإنسان فردًا وجماعة من مواجهة حركة التاريخ.

إن القرآن الكريم يطرح - إذن - مبدأ التغيير الذاتي مقابل حتمية السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة ولا نقول للاستمرار؛ لأنه ليس بإمكان أية جماعة بشرية أن تظلّ متوترة الإرادة في مواجهة التحديات الدائمة، قرنًا بعد قرن، دون أن تضعف أو تغفل أو تفقد توترها هذا، فتتخلى عن مكانها المتقدم للجماعة الأكثر استعدادًا، وحيوية، وتوتّرًا.

إن تأكيد الإسلام على مبدأ التغيير في جانبيه (السلبي) و(الإيجابي) يعني أنه يمنح الإرادة البشرية فرصتها في صياغة المصير، في التشبث به أو استعادته إذا ما أفلت من بين أيديها. ومن ثم فإنه ما إن تتهيأ هذه الإرادة للعمل في ميدان التاريخ، عن طريق الشحذ النفسي والاستعداد الأخلاقي، حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات المادية والخارجية من أي نوع كانت وبأي درجة جاءت، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان. وهكذا يعود الإنسان - في الإسلام - لينتصر على الحتميات وليستعيد قدرته الأبدية على التجدد والتطور والإبداع. فيما تقف في مواجهته جلّ المذاهب الوضعية

لكي تؤكد أنه إذا ما أطيح بتجربة تاريخية، فإنها لا قيام بعدها؛ لأنه محتوم عليها أن تواجه هذا المصير في عالم لا يعترف بحرية الإنسان واختياره، ولا بقدرته على المجابهة والاستعادة والانتصار.

إن التفسير (المسيحي) للتاريخ - مثلًا - والذي كانت له تأثيراته العميقة في أذهان عدد من الوضعيين وعلى رأسهم توينبي[١]. يبني موقفه على فكرة (الخطيئة والخلاص) بعد تحويلها من نطاقها الفردي إلى النطاق الجماعي. وإذن، فإن التاريخ - في هذا التفسير - تحكمه جبرية تجعل الأمم المسيحية تتجه جميعًا، في حركة صاعدة، إلى مثلها الأعلى مهما اقترفت من ذنوب وارتكبت من معاصٍ وآثام، حتى لو استعمرت شعوب الأرض جميعًا واستحيت نساءها وذبحت أبناءها، فما دام السيد المسيح عليه السلام قد (خلّصها) بصلبه فقد رفعت عنها المسؤولية وسيقت إلى مصيرها دون مقاومة أو عناء.

في التفسير الإسلامي تمتد نظرية الإسلام في المسؤولية الفردية فتشمل النطاق الجماعي - كما سبق وأن مرّ بنا في الفصل الأول - ولا يتحدد مصير أية جماعة إلا نتيجة لما تقدمه من (أعمال)، وهذا يعني أن التاريخ (الديني) لا تحكمه جبرية تجعل من فعاليات الأمم المؤمنة حركة صاعدة مكتوبة بأحرف من نور، وإنما تتعرض هذه الأمم في سيرها، للصعود والهبوط، والنجاح والفشل، للارتفاع والانهيار، اعتمادًا على ممارستها ومعطياتها، ومن ثم تبرز (المسؤولية) كعامل أساسي في توجيه مصائر الحركة التاريخية.

إن النُّذُرَ التي يقدمها اللَّه سبحانه، تبدو في التفسير المسيحي مسلطة على أولئك الذين لا يؤمنون بفكرة الخطيئة والخلاص، أما في التفسير الإسلامي فتنصب على كل إنسان وكل جماعة تتنكّب عن المضيّ على الصراط المستقيم. وتتوقف عن ممارسة التغيير الذاتي، وما يعقبها من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وتسنّم مركز (الشهادة) في العالم. ومن ثم فإن النقمة قد تكتسح المسلمين أنفسهم بمجرد خروجهم عن هذا الصراط وتوقفهم عن تلك الممارسات والفاعليات الدايناميه التي ما إن تكف حتى تجد الجماعة الإسلامية نفسها في المواقع الخلفية التي لا تحسد عليها، وما أكثر ما وجدت نفسها هناك !!

---

(١) لاحظ تفسير كولن ولسون في كتابه (سقوط الحضارة) لعبارة توينبي (تمسك وانتظر) !!

ليس هذا فحسب؛ بل إن القرآن يؤكد في أكثر من موضع، على أن أية أمة - مؤمنة كانت أم غير مؤمنة - إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها، أمام اللّه وأمام التاريخ، ولن تحمّل أبدًا تبعة أمة أخرى إلا بالقدر الذي تفرضه عليها مسؤوليتها ذاتها تجاه الإنسان والعالم. فكما أنه على المستوى الفردي، يؤكد القرآن على مسؤولية الإنسان عن أفعاله فحسب، فكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات:

- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤][(١)].

- ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وهذه المسؤولية (المستقلة) إزاء الذات الجماعية تجيء تأكيدًا للارتباط العادل الوثيق بين التجربة البشرية وبين مصيرها الذي تؤول إليه تقدمًا وتطورًا أو تأخرًا وانحلالًا.

* * *
* *
*

(١) وانظر السورة نفسها (آية: ١٤١).

سقوط الدول والحضارات (٢)

وقضية (السقوط) هذه، خلال الأمة أو الجماعة الواحدة التي كثيرًا ما ترد في القرآن بتعبير (قرية)، انسجامًا مع بنية التقسيم الاجتماعي السائد زمن نزول القرآن، والتي لن نقصر تحليلنا لها على المستوى الحضاري وحده، وإنما نمده إلى كافة التجارب السياسية والتشكيلات الاجتماعية والكيانات المحلية أو العالمية، والتجمعات المذهبية.. إلى آخره. ومن ثم فلا يتصورنّ أحد أننا نعني بالسقوط سقوط الحضارات فحسب؛ لأن هذه أطول عمرًا بكثير من التشكيلات التي أشرنا اليها، وبخاصة في جوانب إنجازاتها المادية؛ ولأنه كثيرًا ما يحدث أن تسقط إمبراطوريات ودول وإمارات، وتتهافت تجارب سياسية واجتماعية ومذهبية، بينما الحضارة في إطاراتها الشاملة تواصل ديمومتها وبقاءها، أو صمودها على الأقل، فترات طويلة أخرى.

إن قضية السقوط هذه تأخذ اتجاهات عدة: سياسية وإدارية واقتصادية وأخلاقية واجتماعية وعقائدية.. وعلينا أن نتذكر أن القرآن هنا لا يطرح تفاصيل وجزئيات، ولا يلامس الأحداث اليومية العابرة، أو الموقوتة المتغيرة، إنما يطرح مبادئ عريضة وقواعد شاملة في مجالات الحياة المختلفة. ولنا نحن أن نتصور ما يمكن أن يتمخض عن هذه المسائل الكلية من فروع وجزئيات. إننا - على سبيل المثال - نستطيع ببساطة أن نضع أيدينا على حشود السلبيات المدمّرة التي يمكن أن تتمخض عن أية تجربة سياسية أو إدارية تلتقي في قطبيها (القيادة) الظالمة و(القاعدة) الساكنة، أو أية ممارسة اجتماعية يتقابل فيها بشكل محزن ومخيف: الترف والحرمان، أو أي مجتمع ينسى أهدافه الكبرى وتفشو فيه الأخلاقيات الهابطة، أو أية ممارسة تاريخية يفتقد فيها التوازن بين قيم الروح والمادة. هذه الحشود التي تبدأ جزئيات وتفاصيل يومية صغيرة متقطعة، مستعصية على الرؤية والضبط، ولكنها ما تلبث أن تتجمّع وتتجمّع حتى تشكل تيارات خطيرة جارفة تدمر في طريقها كل شيء، وتوقف كل نشاط فعّال، وتصيب بالتفكك والدمار كل إنجاز وإبداع.

إن منحنى الإنجاز الحضاري، بمفهومه الشامل، يرتبط بهذه المسائل جميعًا، والتي يكثّفها القرآن الكريم في مسلّمات وخطوط أساسية عريضة. وحيثما طغت وتراكمت السلبيات المتمخضة عن هذه الخطوط والمسلّمات كفّت طاقة الإنسان المبدعة عن مواصلة صعود المنحنى، وآل الأمر إلى الهبوط والتحلل والانهيار.

نبدأ بالمسألة الأولى (السياسية)؛ حيث نجد المعطيات القرآنية ترمي إلى إلقاء المسؤولية على القيادات والقواعد على السواء، نظرًا للعلاقة المترابطة بين الطرفين، ولأن القيادة لا تمارس فاعليتها وأخلاقيتها، الحسنة أو السيئة، إلا بإقرار مكشوف أو ضمني، من القاعدة: حركة وسكونًا.

على مستوى القيادة يحدثنا القرآن كيف أن ساعة السقوط تحين يوم يتسنم القيادة حفنة من المترفين الفسقة أو الإداريين الظلمة أو المجرمين الطغاة، فيمارسون من موقع السلطة تلك كل أسلوب من شأنه أن يؤول إلى إلحاق التفكك والدمار بالجماعة أو الأمة التي (ارتضتهم) قادة لها: الترف، الفسوق، الطغيان، الفوضى، الاستغلال، المكر، رفض الدعوات الجديدة، واستخدام أقصى درجات القسوة والطيش لصدّ قومهم عن الانتماء إليها، واعتبار مبادئهم ورؤاهم وتشريعاتهم الذاتية القاصرة، المفككة، الحدود النهائية لموقف الإنسان في العالم، وهو اعتبار يقوم على أقصى درجات (الطغيان) وأشد المواقف بعدًا عن مفهوم (التوحيد) العادل، السمح، الإنساني: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

وأروع ما في التعبير القرآني أنه يصوّر هؤلاء الطواغيت، وهم في قمة الجاه والثروة والسلطان، أدوات بيد اللّه، يسخرهم، من حيث لا يدرون؛ لإنزال عقابه العادل بطرفي الجريمة: السلطة التي تظلم والقواعد التي ترضى بالظلم.

- ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦، ١٧].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

- ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

- ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

- ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

- ﴿ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [النحل: ٣٤].

- ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

وفي المقابل، ومن أجل أن تظل مقاييس السلطة والقيادة موضوعية ثابتة بيّنة في أذهان الجماهير المؤمنة، يطرح القرآن: البديل، في أكثر من آية، وعلى أعرض جبهة يمكن أن يتحرك عليها المسؤولون عن قيادة الأمم والشعوب، جبهة التلقّي عن اللّه وحده، والتزام قيم الحق والعدل، ومواصلة العطاء على هذا الطريق:

- ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١].

- ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

- ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]. **وما من ريب في أن المسألة (الإدارية) ترتبط أشد الارتباط بممارسات السلطة السياسية في إطارها الشامل**، وتأخذ إزاءها علاقة طردية، فكلما زادت القيادة ظلمًا وطغيانًا، أصيب الجهاز الإداري - الذي هو الأداة التنفيذية لسياسة الدولة - بالتفكك والاضطراب والعجز، وبالعكس، وهذا هو الذي دفع حكامًا إسلاميين كالراشدين وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم، أن يولوا اهتمامًا كبيرًا إلى هذا الجانب الأساسي في سياسات الأمم، ويرون في صلاحيته وتماسكه، ضمانًا للأداة التي (تنفذ) بها القيادة أهدافها الشاملة، وتجعل من قيم الحق والعدل أمرًا واقعًا[1].

وفي آيات أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن بعض أصحاب المذاهب الذين يطرحون أقوالًا تثير الإعجاب، وآمالًا تفوق الخيال، وهم بعد في صف القاعدة. حتى إذا ما أتيح لهم أن يبلغوا القيادة انقلبوا على دعواتهم وأهدافهم وتنكروا لمبادئهم ووعودهم، وانتموا إلى تيارات الفساد والطغيان. ولكن هؤلاء الذين مارسوا، ويمارسون، **لعبة الازدواج بين الفكرة والسلطة هذه**، لا يعدون أن يكونوا هم الآخرون أدوات مسخرة بيد اللّه تقود

(١) انظر كتاب (ملامح الانقلاب) للمؤلف، فصل (الإدارة والتخطيط).

الجماعة التي سمحت لهم بممارسة اللعبة إلى الدمار والبوار وهم يذكروننا بنماذج النفاق التي تحدث عنها القرآن:

- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥].

- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

تلك هي اللعبة، وهذه هي العاقبة.. وما أكثر ما يتكرر هذا الشكل المحزن من أشكال السقوط بالنسبة لعديد من التجارب (الأيديولوجية). إن (سارتر) يحدثنا في (الدوّامة) وفي (الأيدي القذرة) عن التجربة نفسها. عن الكتل الثورية في عالمنا الحديث، تلك التي تطرح أفكارًا حاسمة ومُثلًا إنسانية واسعة وآمالًا اجتماعية عراضًا وهي تحمل - في الظاهر - نقاءها (الثوري)، لكنها ما إن تمارس السلطة حتى تتلطخ بأوحالها، وتجد دنسها يتوغل بعيدًا في جلّ ما تتخذه من مواقف وتسلكه من ممارسات إزاء القوى الثورية (الجديدة) التي أدركت أبعاد اللعبة وتحركت لسحقها.

إن (سارتر) وعددًا من كبار المفكرين المعاصرين يعرضون التجربة (من الخارج) ولا يضعون أيديهم، رغم نفاذهم الوجودي، على السبب الحقيقي الكامن وراء هذا الازدواج. إنه (الأخلاقية) التي تجيء دائمًا ضمانًا للقيم المعلنة، وحارسًا للممارسات العقائدية من الخيانة أو الغش أو الاستغلال أو التنكّر أو التزوير أو التحريف، من الوحل والدنس. بصورة عامة. وما دامت هذه الأخلاقية غير متحققة أساسًا لدى الكتلة الثورية قبل ممارستها الحكم، فإن من المنطقي تمامًا، وقد دفعتها الجماهير إلى السدّة العليا أن تمارس اللعبة؛ لأن الأرضية التي تحركت عليها، قبل هذا وبعده، موبوءة متفككة، لا تضبطها القيم والأفكار ولكن تحكمها الأهواء. إن الآيتين السالفتين، المنبثقتين عن الرؤية الإلهية المتوغلة في أعماق التجربة البشرية تشيران إلى موطن الداء منذ لحظته الأولى؛ لأنها تراه ﴿ .. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤]!! بعد ذلك تجد الجماهير، التي كافحت لإيصال هؤلاء القادة إلى السلطة، نفسها مسوقة بهم إلى ﴿ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾[إبراهيم: ٢٨، ٢٩] لأنها تتحمل قسطًا من المسؤولية التي يوزعها القرآن دومًا، وفق نظرته الشاملة، على طرفي المسألة.

ونقف قليلًا - قبل المضي في الموضوع - لتفحّص موقف القرآن إزاء المسألة الاجتماعية في جانبها (الاقتصادي) ودوره في التدهور والسقوط.. إننا نلتقي هنا أيضًا، كما التقينا في أماكن أخرى، بواقعية التفسير الإسلامي وتأكيده على العامل الاقتصادي تأكيدًا متزايدًا في حشد من الآيات، كلها تريد أن تقول لنا: إن إتاحة المجال لفئة قليلة أن (تملك) إلى حد الترف بمواجهة كثرة هائلة لا تملك إلى حد التضوّر جوعًا. مسألة غاية في الخطورة، سيما إذا كانت الفئة المالكة في مراكز السلطة والمسؤولية (والعلاقة المتبادلة قائمة أبدًا) - خلا التجربة الإسلامية الأصيلة - بين الترف والسلطة، فإما أن يقود الترف إلى السلطة أو أن تقود السلطة إلى الترف)، وهي تنذر - بانحرافها عن الموقف الإنساني الاجتماعي المتوازن - بشرّ مستطير وعقاب يستأصل من الجذور أمة أو جماعة أتاحت بإرادتها وسلبيتها ظهور هذا التناقض الخطير بين فئة مترفة حاكمة تملك كل شيء، وكثرة معدمة مظلومة لا تملك شيئًا. أليس هذا مجانفة لجوهر الحق والعدل واللذين تقوم عليهما بنية السموات والأرض؟

لقد مرت بنا تلك الآية الحاسمة التي تكفي وحدها لتوضيح الأهمية الكبرى التي يوليها القرآن للمسألة المادية في تفسيره لحركة التاريخ: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦، ١٧].

كما مرّت بنا آية أخرى تؤكد نفس الرؤية القرآنية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤ - ٣٧].

لكن القرآن لا يقف عند هذا الحد، بل يمدّ المسألة ويوسع مساحتها، ويسلط عليها مناظيره من زواياها جميعًا.. لكي يخرج - دائمًا - بالنتيجة الواحدة التي تفسّر كثيرًا من وقائع التاريخ البشري وأحداثه.

إنه يريد أن يطرح علينا معادلة واضحة ولكنها خطيرة حاسمة « إنه إذا اختفى العدل وانعدم التوازن ظهر الغنى الفاحش والترف. وإذا كان القرآن قد عالج الترف - والغنى

الفاحش بطبيعة الحال[1]- كمسألة هدامة في كيان أي مجتمع، تنبثق عنها - دومًا - مواقف سالبة رجعية وإجرامية كافرة، فمعنى هذا أنه يريد مجتمعًا متوازنًا كبديل لحتمية ظهور الترف في (حالة اجتماعية غير متوازنة). ولقد مد القرآن تحليله للظاهرة إلى أعماق النفس وأمداء العلاقات الاجتماعية مادية وروحية وفكرية وأخلاقية، وتقدم بها صعدًا صوب الآفاق البعيدة والتحليلات الشاملة لكي ما يلبث أن يلقي أضواءه ويقول كلمته في حجم الدور الذي يلعبه الترف إزاء مسيرة التجارب التاريخية والحضارية ونموّها، وعوامل سقوطها ودمارها.

(إن الترف ممارسة (مدمّرة) سواء للجماعة كلها التي تسكت عليها وتغضّ عنها الطرف، أو تغلو في انهزاميتها فتتملّق وتتقرب وتداهن، أو للمترفين أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش - وما ينبثق عنه من ممارسات مرضية متضخمة مبالغ فيها - بصائرهم ويطمس على أرواحهم، ويسحق كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم، ويحجب عنهم - وهذا هو الأهم والأخطر - كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدنيا، وموقفه في الكون، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الحضور والغياب، والمادة والروح، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والأرض والسماء. فبما أكسب الترف نفوسهم وحسّهم من خشونة وثقل وغلاظة، ثقلوا فهبطوا فانقطعوا عن كل رؤية بعيدة أو إيمان جادّ يتجاوز بهم عالم الحضور إلى الغياب، والمادّة إلى الروح، والطبيعة إلى ما وراءها، والأرض إلى السماء، والعلاقات المنفعية إلى المواقع الأخلاقية التي يتميز بها بنو آدم عن عالم النحل والنمل والحيوان. وهذا التحليل القرآني يقف في تضادّ كامل مع الفرضية الماركسية التي تقول: إن (الدين) لا يعدو أن يكون جزءًا من الأخلاقيات والممارسات (البورجوازية)!!

« .. ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤]. فها هي كلمات اللّه تبين لنا البعد الحقيقي والأهم لما يؤول إليه الترف: إنكار للنبوّات والقيم الغيبية، وكفر بها، وتكذيب بلقاء الآخرة، وعدم مقدرة على استخدام مقاييس دقيقة في وزن الحوادث والدعوات والأشياء غير مقاييس الطعام والشراب. ثم حكم وقتي خاطئ وسريع، بعد هذا، يرى في أن الالتزام

---

(١) انظر كتاب (مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف .

بأي نداء يخرج الإنسان من دائرة علاقاته المنفعية المباشرة، ويصده عن الانغمار في الطعام والشراب، إنما هو صفقة خاسرة، هكذا بمنطق التجار »!!

« وما كان للمترفين، حماية لمواقعهم تلك، إلا أن يحرنوا، ويتمنوا على حركة التاريخ المحتمة أن تحرن معهم وتسكن، وهم في مواجهة أية دعوة جديدة تدعو الإنسان للتقدم خطوات إلى الأمام، يرفعون شعارات (السكون) و(الرجوع) إلى الوراء خوفًا من أن تجرفهم الدعوة بعيدًا عن أماكنهم، وفي أكثر من موقع يحدثنا القرآن عن (رجعية) هؤلاء المترفين: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٤].

ولكن الغلبة تكون دائمًا لكلمة اللّه: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الزخرف: ٢٥].

ويمضي القرآن في حديثه عن المؤمنين من خلال وحدة مصائرهم الكالحة في الأرض والسماء: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾[1] فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٥٥].

« .. هذا لا يعني أبدًا (تعليق) الجزاء على جريمة الترف إلى يوم الحساب وتجميد الإرادة البشرية عن العمل لوقف الجريمة وإعادة حال التوازن. وما جاء القرآن لينفخ روح القعود والكسل في نفوس الناس، ومن السذاجة أن يمر هذا في البال كمجرد خاطر، وهو الذي تترى آياته تباعًا لتؤكد مسؤولية الإنسان الكاملة عن كل (فعل) يمارسه هو، أو تمارسه (الجماعة) التي ينتمي إليها، ويندمج فيها ويشتبك مصيره بمصائرها، على العكس تمامًا. إن القرآن لا يكتفي بعرض المسألة من جانب واحد ويبين ما في تجربة

---

(١) لاحظ أن الشمال - أي اليسار - هنا ، وفي أماكن قرآنية أخرى يأتي كرمز مقترن بالترف لا العكس كما هو معروف !! وهكذا ، فإن لنا - إذا أردنا الحفاظ على أصالتنا - أن نتميز حتى على مستوى تقسيمات عرضية كهذه، ما دام القرآن نفسه لا يبخل علينا بها !!

الترف من قبح وكفر وإنكار، وما سيؤول إليه أصحابها من مصير يوازي بشاعة ممارستهم تلك، يوم الحساب، وإنما ينتقل - كما سنرى - إلى الجانب الآخر، ويندد بالجماعة التي لا (تتحرك) لوقف الجريمة عند حدها، وبالجماهير، وهي تنظر إلى قلة من طغاتها تمارس المنكر فلا ترفع يدًا ولا تنطق بكلمة، وبالناس الذين يرون رأي العين الدمار الذي يقودهم صوب النهاية المحتومة بسبب ما يمارس بين ظهرانيهم من فساد، فلا يتجمعون للمجابهة والإصلاح قبل فوات الأوان: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

« وتبقى سنّة اللَّه التي لا تتبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ، وتتخذ من المترفين أداة تسوق بها القرى والدول والجماعات والأمم نحو مصائرها المفجعة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٤].

ولم يترك القرآن، وهو يتحدث عن المترفين، الطبقة الأخرى التي تلتصق بهم، دائمًا، التصاق مصلحة ومنفعة واستنزاف، دون أن يسلط عليها أضواءه؛ طبقة رجال الدين من (الأحبار والرهبان) الذين يشترون بعقيدتهم ثمنًا قليلًا، ويدجّلون على الناس باسم الدين ليأكلوا أموالهم ويضخموا بها كنوزهم من الذهب والفضة.

إن الدور التاريخي الذي تلعبه هذه الطبقة في السير بالجماعات والحضارات صوب التفسخ والتدهور والانهيار؛ لا يقل خطورة عن دور المترفين، إن لم يفقه بكثير؛ لأنه يمارس خطيئة اجتماعية مركبة تقوم على الاستنزاف في أشد ما يهم الناس في حياتهم اليومية والتزوير في الصق ما يهمهم في تجربتهم الدينية الشاملة. وما أكثر الوقائع التي يقدمها لنا التاريخ عن ارتباط هذه الفئة بطبقة المترفين، وعن الدور المزدوج الذي لعبه الطرفان بمواجهة حق الجماهير المادي والروحي على السواء. أكثر من هذا، إنهما وقفتا بمواجهة حق الفكر في البحث والتنقيب والاكتشاف كيلا يؤول به الأمر إلى فضح مواقعهما المحصنة بظلام الجهل والدجل والخرافة. وهما في الحالتين تقفان بمواجهة حركة التاريخ ونمو الحضارات اللذين لا يتحققان إلا وفق تحققّ حد أدنى من شروط العدل والحرية والمساواة.

« لقد أراد القرآن الكريم أن يفتح أعين المسلمين جيدًا، ويستفز وعيهم الدائم كيلا يتيحوا لظاهرة هدامة كهذه أن تبرز في مجتمعهم وبين ظهرانيهم، مهما كانت على درجة من الضآلة والخفاء، ويندد بكل من تحدثه نفسه بممارسة الأسلوب الذي مارسه الرهبان والأحبار (طبقة رجال الدين المترفين) طويلًا. وهذا - وغيره من الأسباب - يفسر لنا انعدام (المرتزقة) بالدين في تاريخنا، وظهور نقيض هذا تمامًا : رجال الفكر الإسلامي وهم أشد الناس فقرًا وتواضعًا واندماجًا في حياة الناس العاديين، ورفضًا لمواقع السلطة، وإنكارًا لإغراء الذهب والفضة[1].

« ليس هذا فحسب، بل إن القرآن يوجه تحذيره الرهيب إلى المسلمين أنفسهم، ألا يكنزوا الذهب والفضة، وأن ينفقوها في سبيل اللّه، وأنه بدون هذا وذاك سوف تنقلب عليهم وبالًا يوم الحساب. وأي مترف أو غني تتحول حياته إلى تكديس للمال، والناس يتضورون جوعًا، دون أن يتحرك بأمواله لوقف ظاهرة الجوع والحرمان، فإن له أن يتصور أن هذا الخطاب موجه إليه، وأنه غريب عن المجتمع الإسلامي الذي ينتمي إليه، بل إنه مارق عن قيمه وأهدافه:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

- ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢، ٦٣].

« في آيات أخرى من سورة (الفجر) يتكرر هذا التنديد بجمع المال وأكل التراث ويرتبط أساسًا بعدم إكرام اليتامى و(الحض) على إطعام الفقراء مبتدئًا بكلمة الزجر القرآنية العنيفة: كلا: ﴿ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٠].

ونحن نستطيع أن نلحظ السمة الجماعية، المشتركة في فعل (تحاضون)، والمفهوم الحركي الكامن في صيغة المبالغة.

---

(١) انظر مقال (مواقف) للمؤلف (مجلة الوعي الإسلامي)، سنة (٧) العدد (٨١).

والآيات الكثيرة التي تأمر بربط (الإشباع) بـ (الاعتدال) ، والتقوى والعمل الإيجابي الصالح، وتنهى عن الإسراف والطغيان والإفساد واتباع خطوات الشيطان - تعمق في ذهن المسلم العادي والمتفقه، وتحذرهما في الوقت نفسه، من حتمية هذه العلاقة الأساسية المتقابلة بين عدم تنظيم الإشباع وبين كل ما يتمخض عنه من (ظلم اجتماعي) يتمثل في الطغيان والإسراف في الأرض، وليس ثمة مجتمع تتحكم فيه قلة من الذين يملكون في كثرة من الذين لا يملكون، وتتخم فيه بطون معدودة وتتضور الملايين - يخلو من سمات الإسراف والطغيان والإفساد في الأرض، ذلك (الإفساد) الذي يتلبس وسط هذا التناقض الاجتماعي ألف لبوس، ويتخذ - وقد اختفى التوازن - ألف أسلوب؛ لتدمير المجتمع وعرقلة الحركة الحضارية، ووضع العقبات في طريقها:

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

- ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة: ٦٠].

- ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

- ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٩].

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

- ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١].

« والآية التي تبين للناس جميعًا، أن الأرض قد (ذللت) لهم بإرادة اللَّه سبحانه وتدعوهم إلى أن يتحركوا في أمدائها، ويأكلوا من رزقها، ولا معذر بعدها لجائع قاعد لا يجهد، ومسحوق ساكن لا يتحرك ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]. والآية التي تقرن كارثة الجوع بمأساة الخوف وتبين لهم كم هي عظيمة المنة التي يمنّها اللَّه على الناس عندما ييسر لهم سبل الشبع والأمن. أفلا يعبدوه ؟ ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش: ٣، ٤]. والآيات التي تأمر المسلمين أن يتجاوزوا أخطاءهم ويكفروا عنها باعتبارها أعمالًا (سالبة)، وذلك بتقديم ما يقابلها ويعوّض عنها من (عطاء) باعتباره (عملًا إيجابيًّا) يمنح المجتمع ما خسره من جراء ممارسة الأخطاء. وأي (فعل) أولى

بهذا (العطاء) من إطعام الجائعين وتحرير المستعبدين؟ ﴿ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ... ﴾ [المائدة: ٨٩] »[١].

لقد وقف (ابن خلدون) في (مقدمته) طويلًا عند مسألة (الترف) ولا نشك بأنه تأثير بالمناظير والمواقف التي يطرحها القرآن عن المسألة، فضلًا عن دراساته ومشاهداته للدول التي قرأ عنها أو عاصرها، وقد اعتبر ابن خلدون الترف (حتمية) ترتبط بعملية (التحضر)، بانتقال الجماعات البشرية من الفقر والبداوة والتنقل في الصحراء، إلى الغنى والحضارة والاستقرار في الأمصار، وعالج المسألة من جانبيها الأخلاقي والاقتصادي، فبين في الأولى ما يؤول إليه الترف من تفكك في الأخلاق وركود في الهمة ينعكسان بالضرورة على مسيرة الحضارة، ويأذنان بتوقف تدفقها الإبداعي، وبالتالي بانحلالها ودمارها. وبين في الثانية ما يعنيه طغيان الترف في مجتمع ما من اختلال في التوازن بين الإنتاج والاستهلاك، ومن تضخم للنزعة الاستهلاكية على حساب التنمية والعطاء، الأمر الذي ينعكس هو الآخر سلبًا على التطور الحضاري العام.

وما أكثر الدويلات الإسلامية، وغير الإسلامية، التي كان الترف يكمن وراء تدهورها وسقوطها، وما أشد الحاجة لأن نعود لتفحص هذا الجانب المهم من تاريخنا على ضوء المعطيات القرآنية وإشارات ابن خلدون، من أجل أن نضع أيدينا على الدور الذي لعبه ذلك التناقض اللا أخلاقي الفاضح بين طبقات حاكمة تملك كل شيء تقريبًا، وبين قواعد محكومة لا تملك شيئًا، لا خبزًا ولا سكنًا ...

لقد علمنا الراشدون، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم، من خلال تجربتهم في الحكم، صيغة أخرى نقيضة تمامًا لهذا الجرم[٢]، فلماذا نتردد في فضح الجرم الذي مارسه كثير من حكام بني أمية وبني العباس وأمراء الدويلات الإسلامية، فقادهم جميعًا نحو البوار؟ ولماذا نتخلى عن المبادرة الموضوعية، في إطارها الرحيب، لكي نسلمها لتلامذة الفكر المادي الذين ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ [البقرة: ٩٣] فيفسدوا بها تاريخنا كله بتشنجهم المعروف، وأحكامهم المرسومة سلفًا؟!

---

(١) وعن برنامج الإسلام لمجابهة مشكلة الفقر، بالمقابل، انظر بالتفصيل (مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف.
(٢) انظر (ملامح الانقلاب) و(لعبة اليمين واليسار) و(مقال في العدل الاجتماعي) للمؤلف.

وإذا كان ماركس ورفاقه قد ضيقوا المسألة وحصروها في الإطار المادي الصرف: حتمية التناقض الطبقي، وضرورات التبدل في وسائل الإنتاج، وهذا صحيح إلى حد ما، فإنهم - بهذا - تجاوزوا البعد الأخلاقي، ونسوا أن الترف قد يبرز في مجتمع تزول فيه الطبقات، على يد الفئة الحاكمة، هذه المرة بما تملكه من مقومات السلطة والقوة، و(ميلوفان دجيلاس) يعطينا دليلًا قاطعًا على هذا من خلال تحليله للشيوعية اليوغسلافية[1].

أما القرآن، فقد عرض علينا المسألة من أوسع منظور، وتوغل في صميم التجربة البشرية، وربط في عدد من آياته بين الغنى والسلطة من جهة، وبين الغنى والطغيان الأخلاقي من جهة أخرى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وهذا تأكيد واضح على العلاقة الصميمية بين التجربتين الاجتماعية والأخلاقية وعلى انعكاس العلاقات المادية في صميم السلوك البشري.

وثمة فرق شاسع بين هذا الموقف وبين التشنج الماركسي الذي يرد كل التبدّلات في أخلاق الناس وسلوكهم إلى تبدل العلاقات المادية ويخضعهم لها إخضاعًا ... بينما يكسر القرآن من خلال حشود آياته هذا الجدار الأصم، ويفتح الطريق أمام الإرادة البشرية لكي تسيطر على التبدلات المادية وتصوغها لصالح الإنسان نفسه، فتحقق بهذا، التوازن الاجتماعي الذي لا بد من توفره كشرط أساسي من شروط نموّ الحضارات وديمومتها، تمامًا كضرورة التوازن السياسي بين القيادات والقواعد، مما سبق وأن عرضنا له، وكضرورة التوازن الشامل بين القيم الروحية والمادية مما سنعرض له فيما بعد ... وهذا كله يؤكد الموقف (الوسطي) (المتوازن) الذي يمنحنا القرآن إياه، والذي يمثل المفتاح الأول والأخير لتفسير التاريخ البشري كله سلبًا وإيجابًا.

ونعود مرة أخرى إلى تفحص العلاقات السياسية المتبادلة بين القيادات والقواعد نظرًا لارتباطها الوثيق بالمسألة الاقتصادية آنفة الذكر.

إن القرآن - كما رأينا - لا يعلق المسؤولية على القيادات التاريخية فحسب، وهي تمارس جرمها وفجورها وترفها وطغيانها وأخلاقيتها الهابطة، وتلعب لعبة الازدواجية تلك ... إنما هي (القواعد) التي أعانتها في البدء على (الوصول)، وهي تعينها الآن

---

(١) انظر الهامش السابق.

بتأييدها المعلن أو الضمني، المادي أو الأدبي، الفكري أو الأخلاقي، أو بسكوتها – على الأقل – على مواصلة المسيرة بالجماعة صوب البوار ... ومن ثم يصدر القرآن الكريم تحذيراته إلى هذه القواعد من أن يتبلد وعيها، ويتجمد حسها الجماعي، فتنساق في مجرى (الطاعة) و(الاندماج) في مسار السلطة؛ حيث لا تستطيع حتى أن تقول (لا) بل إنها – أكثر من ذلك – تقر في سرائرها هذا الطغيان الذي تمارسه السلطة، ولا تستطيع أن تجد في نفسها أي (مبرر) للرفض أو المقاومة. ومن ثم تجد الجماعة نفسها وقد غفلت عن أهدافها وقيمها ومطامحها؛ لأنها لم تدع مسافة كافية بينها وبين (السلطة) للرؤية والنقد والتمحيص والرفض والمقاومة، بل اقتربت منها، رغبًا ورهبًا، واندمجت بها ... وأصبح محتومًا أن تتحمل معها المسؤولية حتى لو لم تحصل باندماجها هذا إلا على الفتات، وأحيانًا على الاحتقار والازدراء والصفعات.

إن القرآن الكريم يبين لنا، بأسلوب ينضح سخرية واحتقارًا، شكوى هذه القواعد التي دانت بالطاعة (الاختيارية) لحكامها وطواغيتها: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

هناك آيات أخرى كثيرة يدور الحوار فيها على هذا النسق بين التابعين والمتبوعين يمكن أن نجدها في إطار المشاهد التي يعرضها القرآن عن القيامة:

– ﴿ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

– ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٢١، ٢٢].

إن هذا يذكرنا بمأساة (الدوامة) كما يعرضها (سارتر)، مرة أخرى، إن السكرتير – الذي يرمز به للالتصاق الكامل بالسلطة، ولافتقاد الإنسان بعده الذاتي وتميزه الوجودي بالكلية – يبقى في مكانه مهما تبدلت الزعامات وتغيرت القيادات ... إنه، لدى تسلّم كل

زعيم ثوري جديد مسؤوليته أول مرة، وجلوسه على كرسي الحكم، يتقدم إليه بالكأس التقليدية لكي يشربها ... وسارتر، زيادة في السخرية، وفي تعرية هؤلاء الملتصقين من بقايا إنسانيتهم وحطام ذاتيتهم، يعرض علينا (السكرتير) - بعد تبدلات ثورية ازدواجية عديدة - يدًا (فقط) تمتد بالكأس لكي يشربها الزعيم الجديد ... أما من صاحب اليد؟ ما اسمه؟ وما هويته؟ ما شخصيته؟ فلا أحد يدري؛ لأنه لا يوجد أساسًا لهذه اليد صاحب له اسم وهوية وشخصية.

* * *
* *
*

سقوط الدول والحضارات (٣)

ما الذي يطلبه القرآن الكريم من القواعد كيلا تلعب (عليها) و (بها) الزعامات الطاغية، والطبقات المترفة؟

إنه - في البداية - يطلب منهم جميعًا أن (يتحركوا)، أن (يردوا) على الظلم، أن (يرفضوا) الانتماء إليه، أو قبوله كمسلمة لا تقبل نقضًا ولا جدلًا. إن بمقدورهم - كذلك - أن يغادروا المواقع التي يسود فيها الطغيان لكي لا يساهموا في الجريمة، بشكل أو بآخر، يغادروها إلى أي مكان، فأرض اللَّه واسعة. وليس معنى هذا دفعهم إلى الفرار أبدًا. إنما هو فكهم من هذا الاندماج المخزي بالسلطة، وإبعادهم عن هذا الالتصاق المذل بمواقع الطغيان، فإذا ما تمكنوا أن يحدثوا بحركتهم فاصلًا بينهم وبينها تمكنوا آنذاك من رؤية الموقف على حقيقته، حتى لو دفعتهم حركتهم إلى الهجرة إلى أقصى الأرض؛ لأنهم لا يلبثون أن يكروا عائدين، مسلحين - هذه المرة - بالوعي والقوة؛ لكي يستأصلوا شأفة الظالمين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

وينعي، في آية ثانية على الذين آثروا السكون على الحركة، واختاروا الالتصاق بالظلم والعمل تحت يديه، على رفضه والانشقاق عليه ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]. وفي آية ثالثة يبرز هدف هذه الهجرة (الحركية) التي يدعو لها القرآن واضحًا نقيًّا : إن الإنسان المؤمن يجب ألا يعبد إلا اللَّه. هذا هو دوره الحقيقي في العالم؛ بل هذا هو مبرر وجوده في الكون. وعبادة اللَّه - كما سبق وأن بيّنا - ليس في أن نتصل به في شعائرنا اليومية أو الموسمية فحسب؛ بل أن نرتبط به في كل فاعليات حياتنا، وأن نتوجه إليه في كل خطوات وجودنا الداخلي، وألا نأخذ إلا منه، ولا ننتمي ونخضع إلا له. فإذا ما سعت القيادات الجاهلية الطاغية أن تزيف هذا الدور البشري الأصيل، فتصد القواعد المؤمنة عن التوجه إلى خالقها توجهًا سليمًا كاملًا أصيلًا، من أجل أن تلتصق بها وتمارس خدمتها، فإن على هذه القواعد أن ترفض: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا

مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]. وأن عليها أن تتحرك وتهاجر إذا اقتضى الأمر: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. الهجرة التي تعقب عودة واعية مسلحة إلى مناطق الطغيان لوقفه قبل أن يقود بقية الناس إلى الدمار ﴿ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]. ولنا في هجرة رسول اللّه ﷺ أبرز دليل.

وفي آية حاسمة أخرى ينبه القرآن الكريم، القواعد المؤمنة، إلى حقيقة على درجة كبيرة من الخطورة؛ لكي يكونوا على وعي تام بها، وعلى حذر كامل منها في الوقت نفسه؛ ذلك أن الفتنة التي تتمخض حتمًا عن ممارسة الطغيان وانحراف القيادات عن أمانة المهمة التي عهدت إليها لن تنزل على رؤوس هذه القيادات فحسب. إنها ليست ممارسة (هندسية) لكي تجيء منطبقة تمامًا على مساحة الواقع التي يحتلها الطغيان؛ لأنها تجربة اجتماعية، والتجربة الاجتماعية تجيء دائمًا متداخلة المساحات، متشابكة الممارسات، مرتبطة الوشائج بحيث يصعب تفكيكها وتجزيئها بأسلوب رياضي صارم. وأن مسؤولية الطغيان لا تقع - كما يؤكد القرآن دائمًا - على عاتق القيادات، وإنما تتحمل القواعد نصيبًا كبيرًا منها لسكوتها وإقرارها وعدم رفضها ومقاومتها وتحركها.

لهذا كله، فإن الفتنة أو العقاب الذي سينجم عن ممارسة الطغيان والظلم سوف ينزل على رؤوس الجميع، مدوّيًا مزلزلًا، شاملًا، لا يعرف (أحدًا) في البنية الاجتماعية التي يمارس فيها الانحراف، ظالمًا كان أم مظلومًا، ولم يكن العقاب، أو تكن الفتنة، في يوم من الأيام ملكًا أو نبيًّا. إن القرآن الكريم يحذر القواعد المؤمنة ويمنحها الوعي الكافي كذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٤، ٢٥].

وآيات القرآن الكريم، خلال هذا، تترى، مانحة القواعد المؤمنة، مزيدًا من المواقف التي تمكنهم من عملية المجابهة الحركية هذه، وهم مطمئنون إلى صلابة الأرضية التي يتحركون عليها. إن القرآن يدعونا، على المستوى النفسي الداخلي (العمودي) لأن نمارس باستمرار أخلاقية أو (عملية) التغيير الذاتي، أو ما سماه الرسول ﷺ الجهاد الأكبر لكي نكون قديرين دائمًا على المجابهة، مستعدين أبدًا لكشف المواقف اللاأخلاقية وتعريتها وعزلها:

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

- ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما يدعونا، على المستوى الجماعي الخارجي (الأفقي)، إلى أن نتمسك بالوحدة، وألا نمارس تفكيك وحدتنا هذه بالانشقاقات والمنازعات:

- ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

- ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

كيف تستطيع الجماعة المؤمنة أن تحفظ وحدتها من التفكك والتمزق والدمار؟ إن القرآن يطرح أمامنا التزامين أساسيين، لا لضمان هذه الوحدة وديمومتها فحسب، بل لتنميتها وتوسيعها عمقيًّا وعموديًّا؛ لتحويلها إلى (صيرورة) دائمة نحو الأحسن والأرقى في ممارساتها وفي معطياتها على السواء.

الالتزام الأول التزام أخلاقي، يرمي إلى تكوين أخلاقية خاصة بالجماعة المؤمنة تنبثق في أعماق الفرد لكي ما تلبث أن تعطي لونها للعلاقات الاجتماعية كلها. وإذا كنا قبل قليل قد تكلمنا عن أخلاقية التغيير الذاتي، وهي جهد نفسي إرادي دائم لحماية قيم المجتمع المسلم وتنميتها؛ فإننا هنا نشير إلى هذه القيم نفسها التي تمثل مراكز الثقل في حضارات الأمم وشحنات الدفع في مسيراتها، وتكاد علاقتها الضرورية للنمو الحضاري تبدو طردية باستمرار على مستويي الكيف والكم. فكلما التزمت جماعة ما بمزيد من القيم الأخلاقية، وكلما سعت إلى صقل هذه القيم وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية، تمكنت من حماية وحدتها ومن تأخير عمرها الحضاري وإبعاد شبح التدهور والسقوط

بالتالي. وكلما بدأت جماعة ما بالتخلي عن هذه الالتزامات، وإطراحها جانبًا، وعدم السعي لبلورتها وتعميقها في الممارسة الجماعية، عرضت وحدتها للتفتت، وأذنت نشاطها ومعطياتها الحضارية الشاملة بمصير سيئ قريب.

إننا نرى اليوم بأم أعيننا كيف أن بقايا القيم الأخلاقية التي يتميز بها رجل (العالم المتقدم) ومجتمعاته، من صدق وأمانة وتحمل للمسؤولية وشجاعة وإخلاص. وصبر وتضحية، ومن رفض للكذب والغش والخيانة والتهرب والجبن والجزع والأثرة، هي التي تلعب دورها الواضح على المستوى العملي (البراغماتي) في تفوق هذا الرجل وذلك المجتمع، في عالم لم يعد يعترف - على المستوى النظري - بالأخلاقيات، مما يشير إلى مدى الثقل الواقعي لهذه القيم وارتباطها العضوي بأية ممارسة حضارية.

إن القرآن الكريم يطرح سُلمًا من القيم الأخلاقية، كثير الدرجات، بعيد الامتداد، من خلال مئات الآيات المنبثة هنا وهناك، والتي لا يسعنا الإشارة إليها، والتي تجيء في معظم الأحيان ملامسة لواقعة تاريخية قريبة أو بعيدة، معلقة عليها، مستمدة منها قيمًا جديدة. وذلك من أجل أن ترتبط (القيمة) الخلقية ارتباطًا شرطيًّا في ذهن المسلم ونفسه، وتزداد توغلًا في أعماقه، وتأصلًا في علاقاته مع المجتمع الذي يتحرك فيه.

ولا جدال في أن القيم الخلقية المنبثقة عن الرؤية الإيمانية والحس الديني، تكتسب موضوعية في ميدان العلاقات وعمقًا في ميدان الذات لا نجد عشر معشارها في الأخلاقيات الوضعية المبنية على الموقف المصلحي والتبرير البراغماتي (العملي). إنها آنذاك سوف تفقد موضوعيتها وشموليتها، وتقع في أسر التحيز والنسبية، فتحور وتزيف، حينًا، من أجل أن تلائم مصلحة ما أو منفعة معينة، وتلغى أو تستبعد، حينًا آخر؛ لأنها لا تنسجم أساسًا ومتطلبات الموقف النسبي.

هذا إلى أن هذه القيم ستفقد بعدها العمقي، وتغدو أكثر قلقًا واهتزازًا، الأمر الذي يفقدها قوتها الإلزامية، وثباتها وديمومتها. وإننا بمجرد إلقاء نظرة عجلى على التاريخ البشري، سنتبين بوضوح هذا الفرق الحاسم بين قيم أخلاقية دينية موضوعية شاملة عميقة متأصلة، وبين قيم أخلاقية وضعية نسبية محدودة سطحية قلقة، ولشد ما لعب هذا التقابل الأخلاقي دوره في التاريخ، وغطى مساحات واسعة لا تبررها بأية حال النظرة المادية الضيقة أو المثالية الفضفاضة.

إن مقياس التفوق الحضاري لا يكمن في حجم الإنتاج الكمي بقدر ما يكمن في

مدى (أخلاقية) الجماعة المتحضرة، وسعيها لخدمة الأهداف الإنسانية الشاملة. وإننا بمجرد أن نلقي نظرة سريعة على حضارتنا الإسلامية في عصور تألقها، ونقارن ذلك بمعطيات الحضارة المعاصرة، على المستوى الإنساني، سنضع أيدينا على قيمة هذا (المقياس) وأهميته القصوى. إن الحضارة المعاصرة تتجاوز، حتى على مستوى الفكر والفلسفة، حدود الموضوعية الشاملة، وتهبط كثيرًا عن أخلاقية الإنسان، بما هو إنسان، فتحصر أهدافها ومعطياتها في نطاق دولة أو عرق معين كما هو الحال عند هيغل، أو طبقة معينة كما هو الحال عند ماركس ورفاقه، أو على أحسن تقدير، في إطار وحدة حضارية معينة كما هو الحال عند توينبي هذا، بينما تطرح الحضارة الإسلامية وحدها شعاراتها الإنسانية الشاملة الرحيبة المنبثقة عن قيم الحق والعدل التي صاغها القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

الصدق، الأمانة، تحمل المسؤولية، الشجاعة، الصبر، الإخلاص، التضحية، الإيثار، مقاومة إغراءات الشهوة، التجرد، الصمود، التزام الحق والعدل بمقاييسهما الموضوعية لا النفعية.. إلى آخره.

ويطرح القرآن - بالمقابل - النقائض السالبة لهذه الأخلاقيات كالكذب والغش والتزوير والتهرب والجبن والجزع والأثرة والانسياق وراء إغراءات الشهوة والمنفعية .. إلى آخره. داعيًا المسلمين، أفرادًا وجماعات إلى مكافحتها دون هوادة، وإلى استئصالها من أعماق نفوسهم وأمداء علاقاتهم الاجتماعية، رابطًا إياها بمسألة الصراع الدائم الذي لا يكف بين الإنسان والشيطان، بين الخير والشر، من أجل أن يمنح الإنسان المسلم قاعدة واسعة لتصور الموقف، وإيمانًا عميقًا بضرورة المقاومة، واستجاشة لكل طاقاته من أجل الانتصار، الذي مهما كان جزئيًّا، فإنه في النهاية سيضيف قوة إلى الرصيد الأكبر في صراع الخير ضد الشر، والإنسان ضد الشيطان.

وتكاد المسألة تبدو في المجتمع المسلم أو في أي مجتمع، أشبه بمعادلة رياضية واضحة: كلما تجاوز الإنسان والمجتمع، في حضارة ما، درجة أكثر في سلم القيم الخلقية، تقدم خطوات إلى الأمام وامتلك مزيدًا من ضمانات الديمومة والتطور، وبالعكس، يجيء الرجوع، أو السكون، أو التفتت أو الانهيار، بالإشاحة عن هذه القيم وإسقاطها، في ميادين الذات والمجتمع واحدة بعد أخرى.

لقد كان خليفة المسلمين الأول، أبو بكر الصديق، واضح الرؤية عندما خاطب منتخبيه في كلمته الأولى لهم: « إنه ما شاعت الفاحشة في قوم قط إلا ضربهم اللّه بالذل »، ووضح الرؤية أيضًا عندما أردف: « وإنه ما ترك قوم الجهاد قط إلا عمهم اللّه بالبلاء » **وهذا ينقلنا إلى الالتزام الآخر.. (الجهاد)..**

والجهاد كما هو معروف، وكما أكدنا أكثر من مرة، والذي يرد هو الآخر في عدد كبير من الآيات لا نجد ضرورة للإشارة إليها، هو حركة المسلمين الدائمة في العالم لإسقاط القيادات الجاهلية الضالة، وإتاحة حرية الاعتقاد للإنسان حيثما كان هذا الإنسان، بغض النظر عن الزمن والمكان والجنس واللون واللغة والثقافة والانتماء. إنه - في الحقيقة - مبرر وجود الجماعة الإسلامية في كل زمان ومكان ومفتاح دورها في الأرض وهدفها الحقيقي، ومعامل توحدها، وضمان ديمومتها وتطورها. وبدون هذه الحركة الجهادية، يسقط هذا المبرّر ويضيع المفتاح، وتفقد الجماعة المسلمة قدرتها على الوحدة والتماسك والاستمرارية والبقاء.

إن الجهاد، كهدف إيماني حركي دائم، أشبه بمعامل عقائدي - اجتماعي يشد أفراد المجتمع الواحد بعضهم إلى بعض، ويوجههم صوب بؤرة واحدة، ويدفعهم إلى تجاوز السكون والتحرك الدائم إلى أهداف أبعد فأبعد، وهذا - بطبيعة الحال - يجيء بمثابة ضمان أكبر لوحدة الجماعة المسلمة وتماسكها واستمرارها وصيرورتها التحررية المبدعة.

وعلى العكس، ما إن تفتر روح الجهاد في نفوس المسلمين، أفرادًا وجماعات، قيادات وقواعد، حتى تتفكك عرى وحدتهم، وتتعدد أهدافهم، وتميل تجربتهم الاجتماعية إلى التباطؤ فالسكون، وتتساقط مواقعهم الأمامية، وبدلًا من أن يسددوا ضرباتهم إلى القوى الجاهلية، ويمتلكوا زمام المبادرة الاستراتيجية في العالم، إذا بهم يتلقون الضربات من هذه القوى، ويتراجعون صوب المواقع الدفاعية في الخطوط الخلفية.

فهي الهزيمة - إذن - على كل المستويات السياسية والعسكرية والاستراتيجية والعقائدية، والحضارية في نهاية المطاف، وإننا لننظر إلى تاريخنا فنرى في هذا الالتزام الكبير الآخر، معادلة رياضية أخرى، فحيثما سادت روح الجهاد مجتمعًا إسلاميًّا ما تمكن من حماية وجوده، وتعزيز وحدته، وضمان ديمومته العقائدية، وإبداعه الحضاري، واتساع ميادين نشاطه في العالم. وحيثما افتقدت هذه الروح الجهادية وطمس عليها في مجتمع

آخر فقد مبرر وجوده، وتمزقت وحدته، وتباطأت اندفاعيته العقائدية، واضمحلت منجزاته الحضارية، وتقلص دوره في العالم، وآل أمره إلى التدهور والسقوط. وإن تاريخنا المعاصر ليقدم لنا عشرات الأمثلة التطبيقية على صدق هذه المعادلة. لقد كان أبو بكر - مرة أخرى - واضح الرؤية عندما قال مخاطبًا منتخبيه: « إنه ما ترك قوم الجهاد قط إلا عمهم اللّٰه بالبلاء » !!

* * *
* *
*

سقوط الدولة والحضارات (٤)

وثمة حقيقة أساسية أخرى، من بين حقائق القرآن الأساسية بهذا الصدد يجب رؤيتها والوقوف عندها بعض الشيء: إنه ما دام القرآن الكريم قد قدم لنا - من خلال نسيج آياته جميعًا - صيغة للنشاط البشري على الأرض تتميز بالتوازن والتداخل والتكامل بين قيم الروح والمادة، انطلاقًا من تكويننا الآدمي المنبثق عن (نفخة الروح) في (قبضة التراب)، وحدثنا من خلال حشود سوره ومقاطعه عن تجربة المسلم، فردًا وجماعة، تلك التي لن تأخذ مسارها الصحيح المنسجم مع موقف الاستخلاف في الأرض، إلا بموازنة متطلباتها الروحية والمادية على السواء. وعن القيمة الكبيرة التي أولاها القرآن للمسألة الجسدية والمادية مما لا نلمح عشر معشاره في معظم التجارب الدينية التي جنحت باتجاه الروح، ونظرت إلى المسألة الجسدية أو المادية نظرة احتقار واستعلاء وازدراء. فإن معنى هذا أن أي خلل في هذا التوازن، الذي يؤكده القرآن ويدعو إليه كشرط أساسي للاستخلاف، سيؤول - بالضرورة - إلى تفكك وانحلال الفرد والجماعة وتمزقهما وتشتتهما بهذا الاتجاه أو ذاك. الأمر الذي يقود ولا ريب إلى تأزم في الفاعلية البشرية، وبالتالي في تدفق معطياتها الحضارية، مما يعرض (الجماعة) لانتكاسة قاسية قد تأتي عليها من القواعد.

إن مسألة (التوازن) عميقة في نسيج القرآن؛ بحيث إننا نراها تأخذ أكثر من اتجاه، وتتلبس بأكثر من شكل. إن إحدى الآيات تتحدث بصراحة عن (الزينة)، آمرة بني آدم أن يمارسوها، وأين ؟ عند كل مسجد؛ حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الحياة الدنيا ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ تعقب ذلك دعوة صريحة - أيضًا - إلى الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حد الإسراف ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]. ثم ما تلبث التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية واضحة: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إن المحرم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة، أيًا كان مصدرها، الجسد أم الروح، وليس ثمة رفض أو تحريم أو احتقار موجه ابتداء إلى الجسد بما أنه جسد، وإلى غرائزه وحاجاته بما أنها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح!! إننا نقرأ في الآية التي تلي

ذلك - وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح - نقرأ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وما أكثر الآيات التي تستنكر على بعض أتباع الديانات المنحرفة السابقة تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلها اللّه، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى استغلال الطيبات دون إفراط أو تفريط. وإلا لِمَ كان خلق اللّه سبحانه لها، وتفجير خيراتها وتنويعها في أنحاء الأرض؟!

- ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

- ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

- ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ... ﴾ [الأنعام: ١٤٣ - ١٤٥].

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ [يونس: ٥٩].

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

- ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

- ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٣٥].

إن الآيتين الأخيرتين تضعان التحريم الاعتباطي جنبًا إلى جنب مع الشرك باللّه، وتنعى على أولئك الذين يمارسون هذا التحريف بشأن الحقائق الكونية وبحق أنفسهم على السواء، قائلين: أن هذا قدر لا مفر لهم منه. إن كبت الغرائز هو تزوير للموقف

الإنساني في الأرض، والشرك بالله هو أكبر تزوير، ومن ثَمَّ كانت الممارسة البشرية التي تعتمد التزوير مرفوضة في القرآن مهما صغر حجمها أو كبر.

أكثر من هذا، إننا نجد في الآية التي تقول: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠]. إن كبت بعض جوانب الغريزة أو الحد من إشباعها القائم على ضرورة التنويع يجيء بمثابة (عقاب) وليس - كما قد يتصور البعض - قاعدة من قواعد الدين. على العكس أن إحدى كبريات البداهات الدينية التي نتعلمها من القرآن الكريم، أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعًا: طعامًا وشرابًا وجنسًا، وأن التحريم مسألة (استثنائية) محدودة المساحة، ضيقتها، حتى إن القرآن ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي كفرًا وافتراء على اللّه: ﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٤٠]. ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ [النحل: ١١٦] ويحذر المؤمنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه اللّه وهو أدرى به ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم: ١]. ويبيّن لهم أن إحدى مهام الأنبياء الأساسية، أن يجيئوا - دائمًا - لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها ويقفوا بمواجهة التزوير. وهنا في مجال التجربة الغريزية، يجيئون لكي يفتحوا الطريق العريض أمام متطلباتها مرة أخرى؛ لكي يمضي الإنسان المؤمن إلى أهدافه الروحية دون أن تعيقه الضروريات أو تفرض على لا وعيه الباطن ألف تصور مدمر وخيال منهوم لا يعرف شبعًا ولا ارتواء ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠]. ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إن نداء يطرحه القرآن لبني آدم في مواضع كثيرة: ﴿ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨]. يقودنا إلى بديهة أخرى، كثيرًا ما غفلنا عنها؛ لشدة ظهورها ووضوحها، إن اللّه سبحانه قد (سخر) لنا الأرض بما ينسجم وتركيبنا الآدمي، من أجل أن نواصل مسيرتنا لإعمار العالم وعبادة اللّه وحده. ذلك (التسخير) الذي يتحدث عنه القرآن في مئات المواضع. وإنه لمن التناقض الفاضح، المرفوض في القرآن قطعًا، أن يركب الإنسان - من قبل اللّه - تركيبًا معينًا، وأن تسخر الأرض - بإرادة اللّه - لتلبية متطلبات هذا التركيب، ثم تجيء الأديان - من عند اللّه أيضًا - لكي تنصب الحواجز وتضع الأسلاك الشائكة بين متطلبات التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرة.

إن هذا التناقض إنما يجيء - حينما يجيء - على أيدي طبقات رجال الدين التي يقوم دورها التاريخي على التزييف ووضع الحواجز ونصب العراقيل في دروب المؤمنين من أجل أن تضطرهم اضطرارًا للجوء إليها وطلب معونتها، قبل السماح لهم بالذهاب إلى اللَّه. وهناك يبدأ الاستغلال والاستنزاف والأكل بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا. وقد قطع الإسلام الطريق على بروز طبقات محترفة كهذه، ومن ثم فلا داعي للحديث أساسًا عن تزوير كهذا يقف بمواجهة إرادة اللَّه في تحقيق الانسجام الكامل بين الإنسان والعالم.

وما يقال عن حاجة الإنسان إلى الطعام يمكن أن يقال عن حاجته إلى الجنس، سواء بسواء. ولقد وقفنا بعض الشيء عند المسألة الأولى؛ لكي تبدو للقارئ بمثابة معيار موضوعي مستمد من القرآن الكريم مباشرة، يقيس به موقف الإسلام من سائر الحاجات المادية للإنسان؛ لكي لا يخرج بنا ذلك عن وحدة الموضوع الذي بين أيدينا وعن متطلباته المنهجية.

إن القرآن الكريم يبين لنا - أكثر من مرة - أن علاقة الإنسان بالحاجات المادية - الجسدية هذه علاقة صميمية، وإن حبه لإشباعها مركوز في جبلته التي يشكلها الجسد تمامًا كما تحركها الروح والإرادة والقدرات العقلية: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤]. إلا أن الخطوة الحاسمة التي يخطوها القرآن، متميزًا بها عن سائر المذاهب والنظريات أنه يضع أهدافًا أعلى، وقيمًا أوسع وأكثر شمولًا من مجرد تضييق نطاق الحياة البشرية في البحث عن إشباع الحاجات الجسدية، على ثقلها وواقعيتها وضروريتها؛ لأن تركيز الهدف النهائي للإنسان في الإشباع وحده يشده إلى الأرض ويلصقه بترابها، ويبعده عن مواقع الاستشراف الإيماني الشاملة الرحيبة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]. ولأن توسيع نطاق المناشط والأهداف البشرية، وتنويعها وربطها بآفاق أرقى وأشرف وأكثر سموًّا يعطي الحياة قيمتها الحقيقية، ويمكن الإنسان من تأدية مهمة الاستخلاف الأرضي بحالة من التوازن الفذ الذي يحميها من الالتصاق الساكن بالأرض ويمنعها كذلك من التهويم الاتكالي السالب في سموات الروح: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ

رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٧].

إننا نستطيع أن نتلمس بوضوح موقف القرآن الكريم إزاء (المسألة المادية) عمومًا، من خلال حشد كبير من سوره ومقاطعه وآياته. إن أي حديث عن الكون والطبيعة والعالم، وتسخير السموات والأرض. ومسائل الرزق والكسب والسعي، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية، والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشري على الأرض ولأداء مهمته كخليفة جاء لإعمار العالم. ونداءات التسلح واعتماد القوة المادية - إلى جانب القوى الروحية - لصد العدوان، أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة، وتنظيمات الحياة اليومية المتشعبة، وغيره كثير - تأكيد واضح تمامًا للأهمية التي يوليها القرآن الكريم للمسألة المادية. إلا أنه يضع دائمًا في صميم هذه العلاقات والممارسات، ولا نقول بمواجهتها؛ إذ إن القرآن يرفض الثنائية والازدواج، يضع قضايا الروح والقيم والأهداف البشرية العليا، التي تحفظ توازن الموقف البشري في الأرض وتمكنه من أداء مهمة الاستخلاف الضخمة المنوطة به وتحركه صوب الهدف الأوحد والأشمل الذي خلق من أجله، ألا وهو عبادة اللّٰه وحده والتلقي عنه والتوجه إليه. أخذًا وعطاءً.

وفي مقابل (حالة التوازن) هذه التي يرسمها القرآن، ويدعو المؤمنين إلى التشبث بها، والتحرك وفق مقاييسها الموضوعية العادلة. تبدو أية تجربة بشرية تجنح باتجاه المادية، مهملة الروح، أو تتشبث بالروحية مهملة المتطلبات المادية، شذوذًا وانحرافًا؛ لأنه تزوير وتزييف للموقف البشري في الأرض، وقسر لتجربة الإنسان الفردية والجماعية، على التشكل فيما يأباه تكوينها الأساسي القائم على التداخل والتكامل والتوازن بين قيم الروح وقيم المادة على السواء.

ولن تكون نتيجة هذا الانحراف الذي يأخذ في الحالة الأولى، اتجاهًا ماديًّا صرفًا، أو علمانيًّا مزدوجًا، يفصل بين شؤون الدين والدنيا. ويأخذ في الحالة الثانية اتجاهًا رهبانيًّا هروبيًّا يرفض الدخول في قلب العالم لتغييره بما ينسجم ومهمة الإنسان في الأرض. لن تكون نتيجة هذا الانحراف إلا تمزيق الذات الإنسانية على المستوى الفردي، والنفسي، الأمر الذي ينعكس على طبيعة النشاط الاجتماعي، فيصيبه هو الآخر بالتمزق والتشتت والازدواج وفقدان الهدف، وانتشار الإحساس السالب بالعبثية وباللاجدوى وتحطم

الأمل بالمصير، وسيادة نزعة التشاؤم والانشقاق. وهي مسائل تبلغ - بتصاعدها الدوري المستمر - درجة من الحدة يغدو معها النشاط الجماعي - الحضاري الموحد، مستحيلًا أو في حكم المستحيل. ثم ما تلبث الجماعة أن تجد نفسها عاجزة عن مواصلة الإبداع والإنجاز، ويؤول أمرها إلى التدهور والانهيار والسقوط(١).

القرآن الكريم - إذن - يطرح قاعدة التوازن العريضة لكي يحمي التجربة البشرية في العالم من التفكك والتشتت والدمار، ولكي يمنح الإنسان، فردًا وجماعة، الطريق الذي ينسجم تمامًا مع تكوينه من أجل التقدم صعدًا لأداء مهمته الأساسية في الأرض. وهذا - بالمقابل - يقدم لنا - على المستوى التاريخي - أحد الأسباب الكبرى التي تفسر نشوء الحضارات ونموها من جهة، وتوقفها وتحللها وانهيارها من جهة أخرى.

وبينما يتشبث كل من هيغل وماركس بمسألة التناقض والصراع في عالمي الفكر والمادة، كمفتاح لتفسير النشوء أو السقوط الحضاري، وبينما يبلغ تأكيد توينبي على مسألة التحدي والاستجابة حدًّا يصل به إلى التزام موقف الصراع والتناقض بين الإنسان والبيئة، نجد القرآن الكريم - على اهتمامه بمسألة التناقض والصراع كمحرك للنشاط الحضاري، وتخصيصه لها المساحات الواسعة من مواقفه، كما سبق وأن مرَّ بنا - يقف هذه المرة موقفًا متميزًا مستقلًّا مغايرًا تمامًا للموقف الغربي عمومًا والذي ينعكس هناك حتى على المستوى اليومي والصحفي، فتجيء محاولات الصعود إلى القمر والكشف عن الفضاء باسم (غزو) القمر أو الفضاء، الأمر الذي يفسره بعض المفكرين بأنه امتداد للصراع القديم الذي شهدته قارة أوربا الضيقة بين الأقوام المتصارعة وبين الأرض الشحيحة !!

إن القرآن هنا يرسم خطًّا جديدًا في تصويره للعلاقة بين الإنسان والعالم. خطًّا يقوم على الوئام والانسجام والتكامل والوفاق والتجانس والالتحام بين الروح والمادة، بين العقل والقلب، بين الأرض والسماء، بين الجبرية والقدرية، بين الفعل والتأمل، بين الغريزة والوجدان، بين الحضور والغياب، وبين الطبيعة وما وراء الطبيعة. فما دام الإنسان مزيجًا معقدًا فذًّا معجزًا بين الروح والجسد فإن تلاؤم وتوافق هذين الجانبين، وما يتفرع عنهما من قوى وطاقات، هو الوضع الطبيعي الذي يمكن الإنسان من بذل الحد الأقصى لطاقاته وقدراته، وبالتالي تسيير العجلة الحضارية بسرعة أكبر، وإنجاز

(١) انظر بالتفصيل كتاب (تهافت العلمانية) للمؤلف.

أبدع. وإن الصراع بين هذين الجانبين أمر شاذ يؤول إلى تفكيك وحدة الذات البشرية وتمزيقها، الأمر الذي ينعكس - بالضرورة - على الفاعلية الجماعية فيصيبها بأكثر من خلل يعرقل مسيرتها الحضارية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه ما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساسًا لخدمة الإنسان، ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم، فإن العلاقة بينهما ليست بالضرورة علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء. إنما علاقة انسجام وتقابل وتواصل وتعاون وتكامل وكشف وتنقيب، إنها علاقة الخادم المطيع بالسيد القدير. إنه في هذه الحالة لا يصطرع مع خادمه أو يستفزه أو يرفع السلاح بوجهه. إنما (يستخدمه) بحصافة وذكاء لتأدية واجباته جميعًا، في أجواء تسودها علائق الطاعة والمحبة والإبداع.

إن الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية منفعية صرفة مهما وضعت في أطر فلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة، ولكننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها، فإننا سنعثر على منطق الصراع الذي تبني عليها معطياتها. صراعًا يضعه هيغل في عالم الفكر، ويبرر به أية جريمة شوفينية يمارسها شعب أوربي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة، ويقسره ماركس على عالم المادة ليبرر به أية مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة. أكثر من هذا، إنه يجرد الإنسان، في قلب هذا الصراع والتغير المادي، من حريته وإرادته، ويجعله تابعًا مطيعًا لمنطق الصراع المادي هذا، يأتمر بأمره ويتشكل بقواعده، حتى في أشد ممارساته بعدًا عن المادية: الدين والفن والعواطف والأخلاق والمطامح والرؤى.

إن القرآن الكريم، على العكس من هذا كله، يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لا خلل فيها ولا اضطراب. إننا ما دمنا قد خلقنا وفق هذه الصيغة التي تشتبك فيها قوى الروح والمادة، فإن لنا أن ننطلق في نشاطاتنا وممارساتنا من نقطة التوازن التي لا تجنح ولا تنحرف، ولا تميل. التوازن الذي ينتفي فيه الصراع، ويتحول الجهد الإنساني الدائم إلى سعي خلاق من أجل التوحد والتكامل والانسجام. وإنه ما دامت قوى العالم - من جهة أخرى - قد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيرًا، فإن علاقتنا بها ليست أبدًا علاقة صراع وتناقض واقتتال. إنما هي محاولة للكشف والتنقيب والاندماج والوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين العالم، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية.

إننا بمجرد أن نتفهم الأبعاد الحقيقية لمسألة التوازن والانحراف هذه، فسنضع أيدينا

على أحد المفاتيح الأساسية لتفسير جانب كبير من تواريخ الأمم والشعوب والجماعات والحضارات. إنه حيثما افتقد الإنسان، فردًا وجماعة، توازنه في أمة أو حضارة ما، حل محله (الانحراف) كبديل لا مفر منه، انحرافًا من شأنه أن يزداد ويتسع كمًّا ونوعًا بمرور الزمن وبمقدار الابتعاد عن نقطة التوازن تلك. الأمر الذي يجعل الجماعة البشرية تجنح باتجاه جانب ما من جوانب النشاط البشري، وتجابه بالكبت والقمع والاستئصال الجوانب الأخرى، الأمر الذي يعيق مسيرة الحركة الحضارية وتوازنها الخلاق. ويؤول بها إلى التدهور والسقوط.

إن القرآن - إذن - يطرح مقولاته عن عوامل تدهور الحضارات وفق أوسع الجبهات وأكثرها شمولًا وامتدادًا. إنه هنا، كما هو في كل مكان، يتجاوز ما يمكن تسميته بالتشنج المذهبي الذي تعانيه نظريات التفسير الوضعية: يفترض (أحدهم) صيغة معينة أو يحدد هيكلًا مسبقًا أو يتخذ زاوية ثابتة. ثم يجيء إلى حركة التاريخ لكي يرغمها على الانطباق الهندسي الكامل على صيغته تلك، أو دخول هيكله ذاك، أو المرور عبر زاويته الثابتة، وما لا ينطبق أو يدخل أو يمر، زيّف وحور، أو شذب واستبعد؛ لكي لا يتبقى إلا الوقائع التي تجيء منسجمة منطبقة على الموقف المسبق.

ولن يكون هذا التشذيب والتحوير والاستبعاد إلا على حساب الوقائع التاريخية. لقد ذكرنا هذه الحقيقة في مقدمة البحث، ونعود لنؤكدها مرة أخرى؛ لأنها في الواقع أخطر ما تتمخض عنه النظريات الوضعية. وإن بعضهم ليصل أحيانًا حد (التشنج) في رفض وتكذيب كل واقعة تند عن رؤياه المسبقة، وبعضهم الآخر تضغط عليه الوقائع (المضادة) أو (المغايرة) فيجد نفسه مضطرًّا للعودة إلى القاعدة الخاطئة نفسها، والسعي لتوسيع زاوية الرؤية، ومد نطاق الصيغة المرسومة سلفًا وتوسيع ردهات وممرات الهيكل المسبق. أكثر من هذا إننا نرى من تلاميذ التفسير المادي للتاريخ اليوم، موقفًا عجبًا: إنهم يخطئون كل من يأخذ على الماركسية صرامة موقفها المسبق، ورد كل الوقائع التاريخية إلى القاعدة التحتية المتمثلة بتبدل وسائل الإنتاج فحسب؛ بل إنهم يتهمون هؤلاء النقاد - وقد أحرج التلاميذ - بالقصور وعدم القدرة على فهم النظرية المادية بما فيه الكفاية. والواقع أن هؤلاء التلاميذ يرتكبون هذه المرة تزييفًا آخر ولكن تجاه التفسير المادي نفسه !!

ومهما يكن من أمر فإن القرآن، وفق منهجه (البعدي) الشامل، المنبثق عن الرؤية

الإلهية المحيطة، والذي يسعى إلى عرض مقولاته اعتمادًا على حركة التاريخ البشري عبر ضفافه جميعًا، قدم لنا - كما رأينا - قواعد عريضة؛ لتبرير السقوط، وقادنا إلى الأسس الواضحة والعميقة في الوقت نفسه، والتي تؤول بالأمم والحضارات إلى الدمار. إنها - باختصار- تكمن في صميم الموقف البشري نفسه، لا في الطبيعة أو العلاقات المادية. إنما في إطار الإرادة الإنسانية. وهذا يجيء - بطبيعة الحال - امتدادًا لنظرية الإسلام الأساسية في استخلاف الإنسان في الأرض لأداء دوره الحضاري فيها. وما دام هذا الإنسان قد اختار، برفضه لتعاليم اللَّه التي وعد بها آدم وذريته لاستكمال مهمتهم الأرضية، الطريق المعكوس، فمعنى هذا أن يقف على النقيض من دوره المرسوم.

ويمد القرآن مسألة الموقف من الدور البشري في الأرض إلى مساحاته الحقيقية الشاملة: الفرد والجماعة، القيادات والقواعد. فمن خلال الممارسات المعقدة المتشابكة التي تمارسها كل من القيادة والقاعدة، ويعايشها الفرد والمجتمع، ومن خلال (الأخلاقية) التي تتميز بها هذه الأطراف، وعبر العلاقة (الجدلية) بينها جميعًا، يصدر القرآن حكمه، ويمنحنا في الوقت نفسه، المقياس الدقيق العادل لإصدار الحكم على أن هذه الأمة أو الحضارة، أو تلك، في طريقها إلى التقدم والصعود أو إلى التأخر والتفكك والدمار.

* * *
* *
*

سقوط الدول والحضارات (٥)

وثمة من يتصور - بصدد موقف القرآن من سقوط الحضارات - أن عقاب اللّه الجماعي - الذي يرد مرارًا في كتاب اللّه - مقصور على يوم الحساب، وأنه قد غادر مواقعه في الدنيا منذ عصور التاريخ المتقدمة، بعد أن دمر عددًا من القرى الظالمة والمجتمعات الضالة. إن أي واحد يقرأ آية كهذه، يرد على خاطره هذا التصور، الذي سيتضح خطؤه من الأساس: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

إن المتمعن في آيات القرآن الكريم، حول هذه المسألة، وفق نظرة شمولية عريضة، يتبين له مدى خطأ هذا التصور المنبثق عن موقف جزئي محدود، ونظرة جانبية مفككة. إن القرآن الكريم يؤكد على أن (العصيان) بشتى أبعاده تجنى ثماره المرة ليس في الآخرة فحسب، وهو المآل الأكبر والأخطر والأهم بطبيعة الحال بسبب ديمومته وخلوده، وإنما هنا في الدنيا أولًا. إن العذاب ينتظر العصاة هنا وهناك، في الأرض والسماء، ويتنزل - قوة وضعفًا لكي يكافئ - بعدل إلهيّ دقيق - مدى العصيان وحجمه وطبيعته. المصير في القرآن واحد؛ لأنه ينبثق من أعماق الإنسان، والجماعة البشرية، من مسؤوليتهما الحرة ومن اختيارهما، هذا الاختيار الذي ينعكس على الفعل الإنساني، وبالتالي على التاريخ، ومن ثم يعود ليطوق الإنسان والجماعة الخاطئة؛ لأنهما رهينان بما كسبت يداهما.

المصير واحد !! وتلك قمة الانسجام مع طبيعة الوجود الإنساني والنشاط الحضاري، فليس ثمة تعليق (للجزاء) على المستوى الجماعي التاريخي، إلى يوم البعث؛ إذ إن هذا يعني تناقضًا واضحًا مع أبسط القوانين والبداهات التي تسيّر الحياة والأشياء؛ إذ لا يمكن أن يزرع الإنسان حسكًا وشوكًا ثم يقطف ثمارًا حلوة طرية. ما دام قد زرع العلقم فلا بد أن يقطف العلقم ويزدرد الشوك ويتجرع المرارة، بناء على طبيعة سنن الحياة ذاتها. السنن التي تؤكد على أن (الجزاء) يتشكل من جنس العمل سواء هنا في الأرض أم هناك في السماء.

بعبارة أخرى: إن المصير الفردي والجماعي، الذي ينبثق عن الاختيار، سرعان ما يتشكل هنا أولًا وفي السماء بعد ذلك، وفقًا لتسلسله الزمني، ربما كان الفرق بين

المصيرين في الدرجة والنوع لا في الكينونة. فالمصير كائن هنا وهناك، والخارجون عن طريق التوجيه الإلهي - الذي أعلن القرآن عن دوره الحاسم في اختيار الحياة السعيدة أو الشقية في أعقاب هبوط آدم عليه السلام - هؤلاء الخارجون سيجدون العذاب ينتظرهم في الأرض، قبل أن يحاسبوا في السماء، عذابًا يأتيهم من بين أيديهم وأرجلهم ينصب عليهم من فوق ويتفجر من أعماقهم، يزلزل عليهم وجودهم ويسقط مؤسساتهم ويمرغ حضاراتهم بالتراب. عذابًا يوجه سياطه تارة إلى النفس وأخرى إلى الجسد، ويعمل معاوله حينًا بعد حين في جلّ المعطيات التي قدمها مجموع الأفراد على السواء.

وهكذا نجد مواقف العصيان تسعى إلى مصيرها الفاشل هنا أولًا، فتحبط، ثم تعود لتمتحن مرة أخرى - فيما بعد - هناك يوم الحساب فتحبط مرة أخرى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٢]. الإحباط والعذاب، دونما نصير. ومن يتقدم لنصرة الخاطئين الذين اختاروا الطرق المعوجة وصدروا عن نيات سوداء إزاء خالقهم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!؟

المصير واحد إذن - وفق تعليمات القرآن وتحذيراته - ليس ثمة تجزئة ولا ازدواج وليس ثمة فاصل أو جدار بين الأرض والسماء، ولا بين جزاء الإنسان هنا وجزائه هناك. إن المؤمنين من جهة أخرى يجدون مصيرهم السعيد هنا أولًا:

- بركات تتنزل عليهم من السماء، وأمنًا ويقينًا يتنزل من الأعماق ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦] ...

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

وأية سعادة تعدل سعادة الإنسان الذي تحرر من الخوف والحزن؟

إن كل عذاب يهون إزاء عذاب الخوف والحزن وكل مصير يحتمل إزاء فتك الحزن ونذير الخوف. إن الخائفين والمحزونين لا يقر لهم قرار ولا يتذوقون سعادة، ولا يحسون طعم الحياة، إنهم ليسوا أحياء ولكنهم ميتون، قتلهم الخوف والحزن، إن هذا الخوف وهذا الحزن يبدآن بالأفراد، ولكنهما سرعان ما ينعكسان على الواقع الجماعي ويعطيان التاريخ لونه القاتم والحضارة وجودها القلق المهزوز. إننا نلحظ اليوم هذا الحزن وهذا

الخوف على مساحات واسعة من خارطة العالم المعاصر، وهو مصير كان لا بد من تحققه إزاء العصيان وإزاء الفساد الذي غطى معظم مساحات الأرض ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

إن المؤمنين، أفرادًا وجماعات، كانوا دائمًا سعداء، قبل أن ينتقلوا إلى السماء ليضاعف لهم الجزاء، ويكتسب صفة الكثافة والدوام والخلود، وقد أتاحت لهم هذه السعادة العميقة، وهذا التوحد الذاتي، وهذا التماسك، فرصة حقيقية لتجميع طاقاتهم كلها، وتوجيهها وجهة بنّاءة لتصب في مجرى الحضارة الواسع اللانهائي. وهكذا انعكس اختيار الأفراد ومصائرهم، على طريق الجماعة والأمة ومصيرهما، فكانت الأمم المؤمنة أكثر الأمم فاعلية وإيجابية وإسهامًا في إغناء حركة التاريخ، وكان (الدين) - كما يؤكد كثير من الباحثين - الشرارة التي تشتعل في قلب الإنسان فتنير له الطريق لصياغة العالم وتحضيره وتطويره.

إن القرآن الكريم يقدم لنا، في أكثر من مكان، صيغًا واضحة عن هذا الارتباط بين المصيرين: الإيمان باللّه على ضوء التعاليم التي حملها الأنبياء جيلًا بعد جيل، والذي يؤول بالضرورة إلى التلقي الكامل عنه والتوجه إليه، وحده، ومن ثم السعادة في الدارين. السعادة بمفهومها الأشمل والأعمق. أو الكفر باللّه - والذي يؤول بالضرورة كذلك - إلى التلقي عن الزعامات الطاغية والتوجه إليها والاندماج بها، ومن ثم الشقاء في الدارين. الشقاء بمفهومه الأشمل والأعمق. وفي كلا الحالين تجيء التجربة مصداقًا لما وعد اللّه به آدم وذريته، يوم هبوطه إلى الأرض وتوبته عليه:

- ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

- ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ثم ما تلبث الآيات والمقاطع القرآنية أن تترى - بعد ذلك - محدِّثة إيَّانا عن الارتباط الوثيق بين المصيرين:

- ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [هود: ٦٠].

- ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢].

- ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١].

- ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾[النحل: ١١٢].

- ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

- ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥].

- ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

- ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [النساء: ١٣٤].

- ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

- ﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥].

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

- ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

- ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

- ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣].
- ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤٢].
- ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٥، ٢٦].
- ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

ثم تجيء الآية الحاسمة في هذا المجال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]. ويسقط عندها السؤال (الاستنكاري) الذي طالما فرض نفسه على أذهان المؤمنين، قبل الكافرين. وكيف يكون ذلك ونحن نرى الأمم التي كفرت بالله تتولى أزمة القيادة والتحضر على السواء؟ ... يسقط هذا السؤال على وجاهته وخطورته؛ لأن المقاييس التاريخية لا تأخذ بالآني أو المرحلي وتصدر منه أحكامها ومقولاتها، إنما هي تجيء أساسًا تكثيفًا وتعقيدًا لحركة التاريخ البشري كله في ماضيه وحاضره، مضافًا إليه في الرؤية القرآنية، وفي بعض الرؤى الوضعية، البعد المستقبلي. إن أصحاب المواقف الوضعية أنفسهم يتجاوزون من أجل أن يكونوا موضوعيين وعلميين، الأحكام المرحلية والنظرات الآنية المحدودة إلى ما هو أشمل وأعم وأبعد مدى. وإنهم هم أنفسهم، يحدثوننا في كثير مما كتبوا، عن حضارتهم الراهنة كيف أنها تجابه من داخل بنيانها بعوامل التدمير والتفكيك التي تسير بها قدمًا نحو المصير السيئ. هذا ما يؤكدونه هم فكيف بالنسبة لنا، ونحن ننطلق في أحكامنا التاريخية من الموقف القرآني الأكثر شمولًا والأبعد نفاذًا لأنه كلمات الله الذي وسع كل شيء علمًا؟!

إن علينا ومن أجل أن نكون موضوعيين مع أنفسنا ومع قرآننا ومع حركة التاريخ نفسه أن نشمل في استقرائنا التاريخي للتأكد من صدق المعطيات القرآنية، تاريخ البشرية كله، وأن نمد رؤانا وأحكامنا الاستنباطية المقارنة صوب المستقبل كذلك وحين ذاك ستتكشف لنا حقائق عدة فمن جهة كان مصير جميع الرسالات السماوية النجاح الحاسم، ومصير جميع القيادات الطاغية الباغية الدمار الكامل. ومن جهة أخرى كانت الجماعات المؤمنة، حتى في مرحلة كفاحها ومواجهتها لقوى الكفر التي تفوقها عدة وعددًا، أكثر سعادة وفرحًا، وأعمق أمنًا ويقينًا، وأشد إيمانًا بالمستقبل والمصير من الجماعات

الكافرة، حتى وهي تتولى القيادة وتضع يديها على مصادر القوة والمال في العالم. ومن جهة ثالثة ليست (السعادة) مسألة جزئية موقوتة ولا نسبية محدودة، إنما هي تجربة شاملة معقدة متشابكة، تمد فعلها إلى كل مساحات النشاط البشري وتتوغل تعابيرها إلى سائر مكونات الإنسان عقلًا وجسدًا وروحًا وعاطفة وغرائز ووجدانًا، وإلى شتى مناشط الجماعة البشرية في علاقاتها الداخلية والخارجية وفي طبيعة موقفها في العالم.

ومن ثَمَّ لا يمكن القول بأن الجنوح المادي الذي طالما تميزت به قوى الكفر منذ فجر التاريخ وحتى القرن العشرين، كضرورة من ضروريات التصاقها بالأرض ورفضها أي إيمان بالغيب أو المثل العليا، إنما يمثل تعبيرًا عن السعادة بمفهومها الشامل. على العكس، إن هذا الجنوح يمثل نقصًا كبيرًا وانحرافًا خطيرًا في تجربة هؤلاء، يملأ خلاياها وشرايينها بالتعاسة والشقاء، وهي من أجل أن تغطي على هذه الهزيمة الحقيقية في تجربتها تزداد تجبرًا وطغيانًا. وهذا كثيرًا ما يحدث على المستويين الفردي والجماعي؛ حيث يزداد الطغيان وفق نسبة طردية مع زيادة الشقاء البشري، كنوع من التغطية والتعويض والأسقاط التي يحدثنا عنها علم النفس وهو يحلل التجارب البشرية المرضية الشاذة، لا الصحية المستقيمة.

وهنا نحن نرى، بأم أعيننا، من خلال التجارب الاجتماعية والذاتية التي يمارسها العالم المتقدم، مدى اتساع نطاق التعاسة والشقاء البشريين، في أتون حضارة جانحة تقف - على كثرة وتنوع معطياتها - قبالة السعادة الإنسانية بمفهومها الشامل العميق الذي يتجاوز مآسي الخوف والحزن والتمزق والإحساس بالعبث والملل واللاجدوى. وسواء عايشنا هذه التجارب القاسية في أرضها وبلادها معايشة حيوية واقعية مباشرة، أم قرأنا عنها في المرايا التي تعكسها أدبًا وفكرًا وفنًّا، فإننا لن نخرج إلا بنتيجة واحدة مؤكدة: إن الإنسان والمجتمع الغربيين الراهنين ليسا من السعادة بمفهومها الكلي الشامل، كما يتصور بعض الملتصقين بعصرهم، الناظرين عبر مقاييس مرحلية، جزئية آنية، لا يمكنها بحال أن تعكس لنا الصيغة النهائية لحركة التاريخ البشري ومصير حضاراته المتعاقبة. ولن يكون موضوعيًّا بحال من يقف عند حدود تجربة تاريخية، أو حضارية، تمت في القرن العاشر أو الخامس عشر أو العشرين ثم يقول: هذا هو تاريخ البشرية كله وهذا هو مصيرها المحتوم!![1].

إنه ليس بإمكان أي مفكر أو باحث أن يحكم سلفًا، حكمًا إيجابيًّا يقينيًّا جازمًا على

---

(١) عن مسألة أزمة الحضارة الغربية المعاصرة، انظر بالتفصيل (تهافت العلمانية).

مصير الحضارة الراهنة - أو أية تجربة بشرية أخرى - سيما وأن عددًا من علمائها ومفكريها أنفسهم يضعون الكثير من التحفظات على موقف اعتباطي كهذا.

ومن كان يتصور - على سبيل المثال - أنه خلال نصف قرن من حركة التاريخ طويلة المدى، ستسقط ألمانيا الجبارة مرتين وتنهض مرتين أو أن تغادر الصين الشيوعية واليابان الرأسمالية موقعهما في الخطوط الخلفية لكي تقفا في مقدمة الدول العالمية وتلعبا دورهما الحاسم على المستويين السياسي - العسكري الحضاري. بينما تظل أمم أخرى من العالم الثالث نفسه تعاني التخلف والتبعية في عالمنا الراهن؟ ومن كان يشك في أن إسبانيا التي ورثت عنفوان الحضارة الإسلامية، وأضافت إليها - دفعة عسكرية جغرافية - أوصلتها وشقيقتها البرتغال إلى أطراف العالم ووضعت يديهما على مشارق الأرض ومغاربها. ستؤولان بعد عقود عديدة من الزمن إلى أن تكونا في ذيل الحضارة الغربية المعاصرة وفي خطوطها الخلفية بحيث إن أحدًا لا يكاد يرى لهما أي دور في ميادين هذه الحضارة؟ بل من كان يشك في أن الإمبراطورية البريطانية التي لم تكن الشمس تغيب عن أراضيها الشاسعة أبدًا؟ والتي بلغت قمة قوتها وجبروتها وامتدادها في الربع الثاني من هذا القرن في أعقاب جهود مستمرة دامت القرون الطوال - ستتفتت وتنكمش، منذ مطلع النصف الثاني، في مدى لا يزيد على العقد أو العقدين. ثم ما تلبث أن تدخل في دوامة الأزمات السياسية والاقتصادية والقومية التي ما زالت تطحنها في عقر ديارها طحنًا لا يرحم؟!

ثم ما كان لنا - قبل أن نمضي في موضوعنا هذا إلى غايته - إلا أن نلتفت - كرة أخرى - صوب ماضينا نحن، لكي نرى بوضوح، في حركة تاريخنا المدهشة نفسه، وفي تفجر طاقاتنا الحضارية الفذة، أو في تسلمنا مواقع القيادة الأمامية على كل المستويات، عبر قرون الإسلام الأولى، قرون الإيمان والالتزام والإبداع، والتلقي عن اللَّه وحده والتوجه إليه دون أي شريك. ثم ما حدث - في القرون التالية - من تعثر كاد يصل إلى حد (السكون) في حركتنا التاريخية، ونضوب يصل حد التقليد الممسوخ في معطياتنا الحضارية، وخضوع وذلة يصلان حد الاستسلام الكامل للقوى الغازية. بسبب مغادرتنا - بدرجة أو أخرى - مواقع الإيمان والالتزام والإبداع. ما يؤكد لنا - على مستوى الواقع - أطروحات القرآن الكريم بهذا الصدد، ويملأنا يقينًا بالمصير الذي

تحدثنا عنه والذي تتوجه إليه الآية السالفة: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾.

ثمة نقطة مهمة يجب الالتفات إليها بصدد الحديث عن ارتباط المصيرين في القرآن، تلك هي أن المصير هنا في الأرض ينبثق - قبل كل شيء - عن إرادة الأفراد واختياراتهم، ولكنه سرعان ما ينساح على الجماعة ليعطينا صفاتها وملامحها بما أنها البحر الذي تصب فيه كل الإرادات والاختيارات الفردية، ومن ثم فإن الجزاء سينصب على الأفراد والجماعات على حد سواء. وهكذا فإن العذاب في الأرض قد يصيب (عصاة) بالذات كأفراد، وقد يدمدم على الجماعة كلها فيمزقها شر ممزق. كما أن السعادة في الأرض قد تمنح لمؤمنين بالذات كأفراد، وقد تتنزل على الجماعة المؤمنة كلها فتوحدها وتجعلها جسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

أما في السماء فيتقدم الإنسان وحيدًا ليحاسب أمام اللَّه، يحمل معه كتابه الذي خط فيه اختياره وسطر على صفحاته أعماله، فينال - بعد حسابه - مصيرًا مكافئًا لهذا الاختيار وذلك العمل. في اليوم الآخر تتفكك الجماعات وينصب الحساب على المنطلق الأول، حجر الزاوية في العمل البشري: الفرد، الذي لا مفر له من أن يجابه مصيره هناك ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]. ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ولكن، وبين الحين والآخر ستشهد المحاكمة الكبرى يوم القيامة، أممًا شتى أسهم كل أفرادها أو جلهم في (العصيان)، صدروا عن نيات سوداء، وقدموا أعمالًا لا وزن لها عند اللَّه، أو أن بعضهم على الأقل سكت، ولم يحرك يدًا ولا لسانًا ولا قلبًا، إزاء العصيان الذي يمارس أمام عينيه، والفجور الذي يتمخض عن سكوته، والظلم الذي يطيح برقاب القلة المؤمنة التي تتعرض للتصفية، وهو واقف ينظر دونما حراك: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

* * *
* *
*

سقوط الدول والحضارات (٦)

وليس لنا - في ختام هذا الفصل - إلا أن نشير إلى (**الأشكال**) أو (**الصيغ**) **التي يعرضها القرآن عن** (**العقاب**) **أو** (**السقوط**)، ويجب أن نلاحظ دائمًا أن العلاقة بين التعبيرين واضحة وعميقة؛ إذ إن سقوط أية تجربة لن يجيء إلا بمثابة عقاب إلهي مباشر، عن طريق السنن التاريخية التي تعمل من خلال الإنسان نفسه، بسبب نكول الجماعة عن أداء دورها المطلوب وتملصها من مسؤولية الاستخلاف المعقدة المتشابكة.

ولا يظن أحد أن الصيغة الوحيدة التي يطرحها القرآن عن السقوط هي تلك التي يحدثنا فيها عن الدمار المباشر الذي حاق بعدد من القرى والمجتمعات، عبر عصور التاريخ المتقدمة، بسبب مواقفها الجائرة من دعوات الأنبياء - عليهم السلام - والتي سبق وأن عرضنا لها في الفصل الأول؛ حيث أشرنا - بصدد الحديث عن الفعل الإلهي المباشر - إلى أننا أمام قوتين يسخرهما اللَّه لتحقيق كلمته: قوة الطبيعة المادية المنظورة، وقوة الروح غير المنظورة، وأننا - في الأولى - نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة الصلف والكفر والغرور البشري: السيل، الجفاف، الحاصب، الصيحة، الخسف أو (الزلزال) أو الرجفة، الغرق، الصاعقة، الطوفان، الحشرات، المطر العنيف، الأوبئة، الريح العاتية، الإماتة الجماعية، تمزيق المجتمعات، الخوف والجوع، ثم الدمار الشامل دون إشارة إلى (وسيلة) بالذات.

ذلك أن القرآن الكريم، كما سبق وأن بيّنا هناك أيضًا، ما يلبث أن يحدثنا بواقعيته الصادقة أن هذا الأسلوب لم يجدِ مع كثير من الأقوام السابقة، وأنه أحرى به ألا يجدي مع الأقوام اللاحقة، وبضمنهم العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ ومن ثم كانت معجزة القرآن وحدها شكلًا ومضمونًا، كافية لحمل أجيال البشرية إلى طريق الإسلام على مر القرون ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وتبقى بعد هذا، (الصيغ) الأكثر شمولًا وديمومة، والتي تجيء تعبيرًا غير مباشر عن الإرادة الإلهية من خلال الإنسان نفسه، والذي يقود بممارساته الخاطئة، وبرفضه الالتزام بدوره كمستخلف على الأرض، وبأخلاقياته السالبة: الأمم والشعوب والحضارات إلى الدمار. ومن ثم فإننا كثيرًا ما نلتقي، في أمداء القرآن، بالعقاب المقدر والسقوط المحتوم

اللذين يتأتيان عن طبيعة الفعل الإنساني. نلتقي مرارًا بهذا وذاك، ولكننا لا نلتقي بأسباب محدودة وصيغ صارمة كتلك التي عوملت بها قرى وأقوام جابهت دعوات الأنبياء - عليهم السلام - بالصلف والتمرد والغرور. كما أننا نلمس في هذه الآيات الأكثر عددًا والأطول مدى تعابير وكلمات كالجرم والكفر والغرور والبطش، مما يشير إلى مدى تعليق القرآن الكريم لمسألة السقوط على الفعل البشري نفسه[1].

إن هذا العقاب، أو السقوط بمفهومهما الشامل، لا يجيئان إلا بعد أن تكون الجماعة قد استنفدت كافة مبررات بقائها، كما سبق وأن بيّنا في الحديث عن عوامل السقوط، ومن ثَمَّ، فإن أية ضربة توجه إليها تكون كافية لإزاحتها من الوجود وفسح الطريق أمام الجماعات الأكثر فاعلية، وفق مفهوم المداولة القرآني. وهكذا فقد تجيء هذه الضربة النهائية على شكل غزو خارجي (من قبيل ما يسميه توينبي البروليتاريا الخارجية) أو عصيان داخلي (من قبيل ما يسميه توينبي البروليتاريا الداخلية)، أو تمزق طبقي، فيما يسميه ماركس وإنكلز (صراع الطبقات). كما أنه قد يجيء على شكل كارثة طبيعية قاسية تفوق في تحديها قدرة الجماعة المفككة على الرد والصمود، فتتمزق وتتلاشى:

- ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

- ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

- ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

- ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء: ٦٨، ٦٩].

- ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

---

(١) انظر ما سبق من هذا الفصل.

-﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ١٠٧].

ولا يتصورنّ أحد أن العقاب أو السقوط بمفهومهما القرآني الشامل هذا يعقبان إبادة نهائية للجماعة أو تصفية جسدية لا تبقي لها أثرًا، كما كان الحال مع عدد من الأقوام المتقدمة التي أشرنا إليها. إنما هو التمزيق والتفكيك والتشتت الذي يتسبب في إرغام جماعة ما على التنازل عن مركزها القيادي والتراجع إلى الخطوط الخلفية لكي تمارس التبعية للجماعات الأقوى، بعد أن كانت متبوعة مطاعة:

-﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

-﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ [هود: ٥٧].

-﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠].

-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴾ [فاطر: ١٥ – ١٧].

-﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١].

-﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٨].

ولشدة واقعية القرآن وتأكيده على المسؤولية البشرية، فإنه يخاطب الجماعة الإسلامية نفسها، كما يخاطب أية جماعة مؤمنة، بأنها ستلقى نفس المصير بمجرد تخليها عن أداء دورها الفعّال في العالم، والذي قادها إلى مواقع القيادة المتقدمة والمسؤولية البشرية الشاملة:

-﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

-﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴾ [النساء: ١٣٣].

-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

-﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩].

وتبقى علاقة (الاستبدال) الجدلية هذه، ماضية إلى أهدافها، تداول الأيام بين الناس، بإرادة اللَّه، وتضع قومًا وترفع آخرين: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٩].

وهذا الاستبدال التاريخي أو الحضاري، الذي يحدثنا عنه القرآن في أكثر من موضع، لن يجيء وفق أساليب متعسفة ومباشرة، وبمقتضى حدود زمنية صارمة كالأرقام. إنما هي سنن اللَّه في التاريخ وإرادته النافذة من خلال (النواميس) ذاتها، التي تؤول، وفق مساراتها المنطقية المرسومة البعيدة المعقدة غير المباشرة، إلى تحقيق هذا الهدف الخطير:

-﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

-﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦] .

-﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

-﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

-﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

-﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى، إزاء نظرية (الاستخلاف) الأساسية التي عرضنا لها في أول البحث، والتي طرحها القرآن لحظة خلق آدم. وإزاء (الوعد) الدائم بعودة أبنائه البررة إلى مركز (القيادة) والشهادة، أولئك الذين (يجاهدون) على كل الجبهات

لتنفيذ مقتضيات خلافتهم في الأرض، والالتزام بشروطها التي لن تستقيم بدونها، لبني آدم حياة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]!!

* * *
* *
*

أهم المراجع

– القرآن الكريم.

– إنكلز، فردريك: التفسير الاشتراكي للتاريخ (مختارات)، (ط٢) ترجمة راشد البراوي، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٦٨م).

– توينبي، أرنولد: مختصر دراسة التاريخ (ط١)، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٦٠/ ١٩٦٥م).

– خليل، عماد الدين: آفاق قرآنية (ط١)، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٧٩م).

– ....: تهافت العلمانية (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٤م).

– ....: دراسة في السيرة (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٤م).

– ....: الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٧م).

– ....: فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٧م).

– ....: مع القرآن في عالمه الرحيب (ط٣)، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٨٤م).

– ....: مقال في العدل الاجتماعي (ط١)، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٩٧٨م).

– ....: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (ط١)، الدار العلمية، بيروت (١٩٧١م).

– خوري، منح: التاريخ الحضاري عند توينبي (ط١)، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٦٠م).

– دروزة، محمد عزة: سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم (ط١)، مطبعة عيسى البابي (١٩٦٥م).

– صديقي، عبد الحميد: تفسير التاريخ (ط١)، ترجمة كاظم الجوادي، الدار الكويتية، دون تاريخ.

– عبده، غانم: نقض الاشتراكية الماركسية (ط١)، مصورة، بغداد (١٩٦٣م).

– العلي، صالح أحمد: محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الأول (ط٣)، مطبعة الإرشاد، بغداد (١٩٦٤م).

– كاريل، ألكسيس: الإنسان ذلك المجهول (ط١)، ترجمة شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت – بدون تاريخ.

– ولسون، كولن: سقوط الحضارة (ط٢)، ترجمة أنيس زكي حسن، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٦٣م).

* * *
* *
*

السيرة الذاتية للمؤلف

أ.د. عماد الدين خليل.

- ولد في الموصل – العراق عام (١٩٤١م).

- حصل على البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية / جامعة بغداد عام (١٩٦٢م)، والماجستير في التاريخ الإسلامي بدرجة جيد جدًّا من معهد الدراسات العليا بكلية الآداب/ جامعة بغداد عام (١٩٦٥م)، عن رسالته الموسومة بـ(عماد الدين زنكي: ٤٨٧ – ٥٤١ هـ/ ١٠٩٤ – ١١٤٦م)، والدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة عام (١٩٦٨م)، عن أطروحته الموسومة (الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام (٤٦٥ – ٨١٣هـ / ١٠٧٢ – ١٤١٠م).

- عمل مشرفًا على المكتبة المركزية لجامعة الموصل عام (١٩٦٨م).

- عمل معيدًا، فمدرسًا، فأستاذًا مساعدًا، في كلية آداب جامعة الموصل للأعوام (١٩٦٧– ١٩٧٧م).

- عمل باحثًا علميًّا، ومديرًا لقسم التراث، ومديرًا لمكتبة المتحف الحضاري، في المؤسسة العامة للآثار والتراث – المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في الموصل للأعوام (١٩٧٧/ ١٩٨٧م).

- حصل على الأستاذية عام (١٩٨٩م)، وعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين في أربيل للأعوام (١٩٨٧ – ١٩٩٢م)، ثم في كلية تربية جامعة الموصل (١٩٩٢ – ٢٠٠٠م)، فكلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، بالإمارات العربية المتحدة (٢٠٠٠ – ٢٠٠٢م)، فجامعة الزرقاء الأهلية، الأردن، عام (٢٠٠٣م)، فكلية آداب جامعة الموصل (٢٠٠٣ – ٢٠٠٥م) التي أعارت خدماته لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة اليرموك – الأردن، لفصلين دراسيين عاد بعدهما للعمل في كلية آداب جامعة الموصل حتى إحالته على التقاعد عام (٢٠٠٩م) لكي يعيّن بعدها أستاذًا متمرسًا في الكلية ذاتها. هذا إلى تعيينه أستاذًا محاضرًا في قسم الدراسات العليا لكلية الإمام الأعظم في الموصل حيث لا يزال.

- حاضر في عدد من الجامعات والمؤسسات العربية والإسلامية والعالمية.

- اختير عضوًا في مجلس جامعة صلاح الدين – أربيل، العراق (١٩٨٩ – ١٩٩١م) ومجلس جامعة الموصل – العراق (٢٠٠٣ – ٢٠٠٥م) ممثلًا عن التدريسيين.

- حصل على العديد من التقييمات من دوائر وجامعات ومؤسسات شتى كان من بينها حصوله على جائزة الدولة التقديرية لرئاسة دولة السودان عام (٢٠٠٥م)، وجائزة جامعة الزرقاء الأهلية لأفضل كتاب عن عام (٢٠٠٣م)، واعتباره الأستاذ الأوّل في جامعة صلاح الدين – أربيل – العراق – عن عام (١٩٨٩م). كما قيّم كتابه (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) من قبل مؤسسة أرامكس ميديا واحدًا من أفضل عشرة كتب في العالم لعام (٢٠٠٥م).

- شارك في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية في كثير من الدول العربية والإسلامية.

- شارك في عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والفكرية المحكمة.

- أشرف على العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي.

- كتب عن أعماله عدد من رسائل الدبلوم والماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات العربية.

- ترجمت بعض مؤلفاته إلى عدد من اللغات وبخاصة الإنكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والإندونيسية.

- نشر عشرات البحوث في العديد من المجلات العلمية والأكاديمية والمحكمة .

- نشر مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسة وتنظيرًا ونقدًا وإبداعًا) فيما يقارب السبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية.

الأعمال التأليفية

ساهم الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل بنشاط وافر في الحقل التأليفي، وسوف نقتصر هنا على ذكر بعض مؤلفاته، فمن ذلك ما يلي:

أولًا: الموسوعات:

أنجز العديد من المواد العلمية في التاريخ والحضارة والفكر والأدب للموسوعات العربية والإسلامية؛ ومنها:

١ - موسوعة دار الشروق، القاهرة (٤٠ مادة).

٢ - الموسوعة العلمية المتطورة، مدريد (١٠ مواد).

٣ - موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية، القاهرة (٣٥ مادة).

٤ - موسوعة مؤسسة الوقف التركية، إسطنبول (مادة واحدة).

٥ - الموسوعة الدينية، بيروت (٦ مواد).

ثانيًا: الأعمال التاريخية:

المنهج والفلسفة:

١ - التفسير الإسلامي للتاريخ (٦ طبعات) (دار السلام - القاهرة، الطبعة الحديثة)، وهو كتابنا هذا.

٢ - حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٣ - المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٤ - دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي - عمان).

٥ - مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي - الرباط).

٦ - مدخل إلى الحضارة الإسلامية (٤ طبعات) (المركز الثقافي العربي - الرباط).

السيرة والتراجم:

١ - دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس - بيروت).

٢ – ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٣ – عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٤ – نور الدين محمود زنكي: الرجل والتجربة الإسلامية (٤ طبعات) (دار السلام – القاهرة، الطبعة الحديثة).

قضايا في التاريخ المعاصر:

١ – لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢ – أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

ثالثًا: الأعمال الفكرية:

المنظور الإسلامي للمعرفة:

١ – أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٥ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢ – العلم في مواجهة المادية (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٣ – مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٤ – تهافت العلمانية (٧ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

المنظور الغربي للإسلام:

١ – قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢ – القرآن الكريم من منظور غربي (طبعتان) (دار الفرقان – عمان).

٣ – المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (٣طبعات) (دار السلام – القاهرة، الطبعة الحديثة).

٤ – الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٥ – نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس – بيروت).

٦ – غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).

البحوث والدراسات:

١ – مع القرآن في عالمه الرحيب (٤ طبعات) (دار السلام – القاهرة، الطبعة الحديثة).

٢ – رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٣ – مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٤ – اللَّه أو الطاغوت : مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).

المقالات الإسلامية:

١ – آفاق قرآنية (٤ طبعات) (دار السلام – القاهرة، الطبعة الحديثة).

٢ – مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٣ – في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).

٤ - من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام - القاهرة).

٥ - العالم ينتظر البديل (طبعة واحدة).

٦ - آيات قرآنية تطل على العصر (قيد النشر).

٧ - أحاديث نبوية تطل على العصر (قيد النشر).

رابعًا: الأعمال الأدبية:

الدراسات الأدبية والفنية:

١ - الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٢ - فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٣ - الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

التنظير:

١ - في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٢ - مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير - بيروت).

٣ - حول استراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٤ - متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

٥ - من يوميات الأدب الإسلامي (قيد النشر).

النقد التطبيقي:

١ - محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٢ - في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير - بيروت).

٣ - في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير - بيروت).

* * *
* *
*

من إصدارات دار السلام

- استخلاف أبي بكر الصديق ﷺ .... أ.د. جمال عبد الهادي محمد مسعود - أ.د. وفاء محمد رفعت
- أهل الصُّفة .... أ.د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف
- تهذيب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير .... تهذيب وإعداد عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم
- الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى (منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم) .... أحمد عادل كمال
- الخلفاء الراشدون القادة الأوفياء وأعظم الخلفاء .... فضيلة الشيخ حسن أيوب
- صفحات مطوية من تاريخ بيت المقدس ...... أ.د. جمال عبد الهادي محمد مسعود - أ.د. وفاء محمد رفعت
- فضائل الصحابة .... الإمام أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق / أ.د. فاروق حمادة
- مؤتمر السقيفة وبيعة أبي بكر ﷺ (دراسة نقدية) .... أ.د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف
- المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة (أبو بكر الصديق ﷺ) (جـ١) .... د. منير محمد الغضبان
- المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة (عمر بن الخطاب ﷺ) (جـ٢، جـ٣، جـ٤) .. د. منير محمد الغضبان
- المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة (عثمان بن عفان ﷺ) (جـ٥) .... د. منير محمد الغضبان
- المسيرة الإسلامية لجيل الخلافة الراشدة (علي بن أبي طالب ﷺ) (جـ٦) .... د. منير محمد الغضبان
- معارك العرب ضد الغزاة .... أ.د. محمد عمارة
- معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية .... د. عبد اللّه ناصح علوان
- أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية .... د. منير محمد الغضبان
- الأساس في السنة وفقهها - القسم الأول السيرة النبوية .... سعيد حوى
- الأساس في السنة وفقهها القسم الأول محمد ﷺ الخصائص والشمائل والمعجزات .... سعيد حوى
- أيام في حياة الرسول ﷺ .... أ.د. فاروق حمادة
- بحوث في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي .... أ.د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف
- تاريخ الأمة الواحدة سيرة خاتم المرسلين محمد ﷺ منذ الميلاد وحتى الممات .... أ.د. جمال عبد الهادي
- التربية والتعليم في المدرسة المحمدية .... د. عبد الكريم عكيوي
- الرسول ﷺ « طبعة منقحة خص بها المؤلف دار السلام » .... سعيد حوى
- الرسول محمد ﷺ (طبعة منقحة خص بها المؤلف دار السلام) إنجليزي .. سعيد حوى - ترجمة / خليفة عزت
- السيرة الميسرة (سيرة ابن هشام) « مشروحة ومبوبة ومعنونة » .... المفضل فلواتي
- السيرة النبوية دروس وعبر .... د. مصطفى السباعي
- السيرة النبوية كيف نبني دولة قوية؟ .... محمد مسعد ياقوت
- السيرة النبوية لابن كثير .... تحقيق / أ.د. مصطفى عبد الواحد
- السيرة بلغة الحب والشعر .... سعيد حوى

- شخصية الرسول ﷺ .... د. محمد علي الهاشمي
- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة .... د. محمد سعيد رمضان البوطي
- لمع من المعجزات النبوية .... د. محمد بنكيران
- محمد ﷺ المصطفى المعصوم بشر يوحى إليه .... أ.د. محمد عمارة
- محمد ﷺ الرسول السياسي .... أ.د. محمد عمارة
- محمد ﷺ رسول لزماننا (إنجليزي) .... أ.د. أحمد بوعود
- محمد ﷺ وواقع الأمة .... محمد إبراهيم أبو يوسف
- مع الرسول ﷺ في أسرته .... د. بثينة الغبزوري
- مع المصطفى ﷺ .... أ.د. سلمان العودة
- منامات الرسول ﷺ .... مجدي فتحي السيد
- المنهج السياسي للسيرة النبوية .... د. منير محمد الغضبان
- منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة .... أ.د. محمد أمحزون
- مواقف سياسية من سيرة خير البرية .... أ.د. نظمي خليل أبو العطا
- نبوءات الرسول ﷺ ما تحقق منها وما يتحقق (١٨٨ نبوءة) .... محمد ولي اللّه عبد الرحمن الندوي
- هذا الحبيب محمد رسول اللّه ﷺ يا محب .... أبو بكر جابر الجزائري
- ومضات من السيرة النبوية (١/ ٥) .... أ.د.فاروق حمادة
- قصص الأنبياء (قصص الصفوة الممتازة أنبياء اللّه ورسله) .... فضيلة الشيخ حسن أيوب
- قصص الأنبياء .... الحافظ عماد الدين أبو الفداء ابن كثير
- نبي اللّه إدريس بين المصرية القديمة واليهودية والإسلام .... د. هدى درويش
- ابن رشد الحفيد.. الفقيه الفيلسوف .... أ.د. طه جابر العلواني
- أبو الأعلى المودودي والصحوة الإسلامية .... أ.د. محمد عمارة
- أبو بكر الصديق ﷺ وإدارة الأزمات .... أ.د. عبد السلام الهراس
- أبو بكر الصديق ﷺ وإدارة الأزمات (إنجليزي).. أ.د. عبد السلام الهراس - ترجمة / محمد عبد الفتاح أحمد
- أبو هريرة أسرار الذاكرة وقوة الأرقام .... د. صهباء محمد بندق
- أبو هريرة ذاكرة عهد النبوة .... د. صهباء محمد بندق
- أبي كما عرفته .... الشيخ محمود محمد الحامد
- الأساس في السنة وفقهها - القسم الأول أعلام الصحابة رضوان اللّه عليهم .... سعيد حوى
- إسلاميات السنهوري باشا إسلامية الدولة والمدنية والعمران .... أ.د. محمد عمارة
- أعلام تربية في الحضارة الإسلامية .... أ.د. سعيد إسماعيل علي
- الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره .... أ.د. بلقاسم الغالي

- الإمام فخر الدين الرازي ومصنفاته .... أ.د. طه جابر العلواني
- البتاني الرقي أحد الفلكيين العشرين الأوائل في العالم .... علي شواخ إسحاق
- جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض .... أ.د. محمد عمارة
- الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه .... د. محمود زيادة
- حوارات الشيخ الغزالي السيرة والمسيرة .... المعهد العالمي للفكر الإسلامي
- حياة الصحابة مع شرح الغريب .... العلامة الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي
- الدكتور عبد الرزاق السنهوري (إسلامية الدولة والمدنية والقانون) .... أ.د. محمد عمارة
- سفيان الثوري ﷺ وحياته العلمية والعملية .... د. محمد أبو الفتح البيانوني
- شباب في العهد الراشدي .... د. منير محمد الغضبان
- شباب في العهد النبوي .... د. منير محمد الغضبان
- شخصيات لها تاريخ (٤٥ شخصية) .... أ. د. محمد عمارة
- شهداء الإسلام في عهد النبوة .... أ. د. علي سامي النشار
- الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة .... أ. د. محمد عمارة
- الشيخ المراغي والإصلاح الديني في القرن العشرين .... أ. د. محمد عمارة
- الشيخ رشيد رضا والعلمانية.. والصهيونية.. والطائفية .... أ. د. محمد عمارة
- الشيخ شلتوت إمام في الاجتهاد والتجديد .... أ. د. محمد عمارة
- الشيخ محمد الغزالي الموقع الفكري والمعارك الفكرية .... أ. د. محمد عمارة
- صلاح الدين الأيوبي (إنجليزي) .... د. عبد اللّٰه ناصح علوان - ترجمة / خليفة عزت
- صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين .... د. عبد اللّٰه ناصح علوان
- عبد اللّٰه بن عباس الإمام البحر عالم العصر .... عبد الحميد طهماز
- عظماؤنا في التاريخ .... د. مصطفى السباعي
- علال الفاسي قمة من المغرب .... د. عبد القادر الإدريسي
- فقهاء مناضلون: مواقف تاريخية في العلم والسياسة .... فضيلة الشيخ الدكتور محمد بن إبراهيم
- كشف المستور .. أفكاري التي أحيا من أجلها .... د. منير محمد الغضبان
- مع الأئمة أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد (الجوامع والفروق والسير) .... أ.د. سلمان العودة
- المغيرة بن شعبة السياسي المجاهد .... د. منير محمد الغضبان
- أول إقطاع في الإسلام وقف الرسول ﷺ لتميم الداري .... د. تيسير بيوض التميمي
- تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة من روايات الإمام الطبري والمحدثين .... أ. د. محمد أمحزون
- الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية (جبهة الشام وفلسطين ومصر) ... أ. حامد غنيم أبو سعيد
- الحسن بن علي وعام الجماعة .... عبد الوهاب عبد السلام طويلة

* * *
* *
*

رقم الإيداع: ١٩٥٦٤ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي I. S. B. N 7 - 270 - 717 - 977 - 978